سأرحل عنك يا وطني

لشاعر الوطن : أحمد رفيق المهدوي

رحيلي عنك عز علي جدا ... وداعا أيها الوطن المفدى

وداع مفارق بالرغم شاءت ... له الاقدار نيل العيش كدا

وخير من رفاه العيش ، كد ... اذا أنا عشت ، حرا مستبدا

سأرحل ، عنك ، يا وطني ، واني ... لاعلم ، أنني قد جئت ادا

ولكني ، أطعت اباء نفس ... أبت لمرادها في الكون حدا

علو النفس ، ان عظمت ، شقاء ... يلذ ، لمن الى المجد استعدا

اذا رزق الفتى ، نفسا عزوفا ... تهاون بالخطوب ، وزاد جدا

طلبت العز في وطني ، مقيما ... فأوسعني زمان السوء ، ردا

سأركب عزمة ، قعصاء ، أمضي ... أقد بها حجاب الغيب قدا

أبلغها ، وراء السعي ، عذرا ... لنجح ، صد عنها ، أو تصدى

سواء عاد بعد الجهد ساع ... بفوز ، أو سعى حتى تردى

فلم أر راضيا بالعيش ، الا ... ضعيفا ، أو من الجبن استمدا

ويا وطني هجرتك ، لا لبغض ... ولا أني منحت سواك ، ودا

فلا والله ما هاجرت حتى ... جهدت ، ولم أجد من ذاك بدا

يقول : لي الصديق ، ارح ركابا ... فانك واجد اربا ، وجدا

يكلفني ، لابلغ من حطام ... غنى ، أرضى به ليدي ، قدا

فقلت لطالب الاحسان قيدا ... قبول القيد ، من شيم العبدا

هداك الله ، كيف تطيب نفسي ... وفي عنقي ، أرى للاسر قدا

تعفف ، ليس غير الله ، يعطي ... بلا من ولا شكر يؤدى

ويا وطني ، نبا بي ، عند حب ... وأحيانا يكون الحب صدا

وقد يأتي الغيور بما يراه ... خلى ، من جوى ، للعقل ضدا

فلست ألام ، في تركي حبيبا ... أرى في حبه ، الاعداء ندا

وجه وبرقع وشباك

شعر : أحمد الشارف شيخ الشعراء

ومليحة طلعت بوجه أروع ... فسرى النسيم بعرفها المتضوع

نظرت الي وقد وقفت أمامها ... نظر الغنى الى الفقير المدقع

وقفت قليلا في « الشرافة » واختفت ... تحت المطارف خشية المتطلع

خوف المباغت لا تطيل حديثها ... كي لا يعيه وبغيتي ألا يعي

لم تبرح الرقباء عنها ليتها ... كانت وكنا في الفضاء الاوسع

الشمس يخفيها السحاب ووجهها ... لم تخفه الا سحابة برقع

غير الاريكة ما لها من متكا ... غير الحظيرة ما لها من موضع

طلبت سبيلا لا أريد سلوكه ... فمشيت فيها مشية المتسكع

لعبت أناملها على قيثارة ... وشدت الي بصوتها المترجع

قالت لقد أزف الرحيل فروعت ... مني الفؤاد وكان غير مروع

فسألتها كيف الوصال فأنشدت ... قول المعري عندما وقفت معي

فعلمت أن الوصل أصبح دونه ... خرط القتاد وهول يوم المفزع

حلبية...

شعر : حسن السوسي

حلفت بوجهك العربي
وبالامجاد والحسب
وبالاموي ، وبالصلوات
والمحراب ، والكتب
وكل شريعة للناس
قد نزلت ، وكل نبي ..
بكل فتى الى غسان
ان تنسبه ينتسب ..
وبالنهر الضحوك يهـ
ش للازهار والعشب ..
ببوح الياسمين الى
نسيمات الصبا الرطب
وبالليمون ، والزيتون
أو بالتين .. والعنب
غراس الغوطة الفيحاء
ذات الغلة العجب
حلفت بكل واضحة الجـ
مال ... صريحة النسب
بكل وضيئة القسمات
كل غزيرة الهدب

وكل كريمة للحور
ينميها .. أعز أب
وكل مليحة العينين
من حمص .. الى حلب
يغار الصبح ان طلعت
بوجه .. نصف منتقب
ويندى الورد من خجل
على الاغصان .. والقضب
ويعبق دربها أنى
مشت .. في الوشي والقصب
اذا خطرت .. فيا شوق
أضطرم .. يا فتنة .. اضطربي
حلفت .. وما حلفت بها
على حنث .. ولا كذب
بأنك يا بلاد الشام
مهوى اللطف والادب
وأن هواك يجري في
دمي ، ويمور في عصبي
وأني يا دمشق أرى
بوجهك .. وجهي العربي

غسلت على ضفاف هواك
بعض الشوق .. والتعب
أتيتك .. بعد عشر كن
بي أسرفن في اللعب
فان أنكرت ما أنكرت
من مرحى ، ومن طربي ..
فهن وسمنني بالميسمين
.. الشيب .. واللحب
ومن عجب .. يهيم فتى
بحبك يا ابنة النجب ..
وينأى عنك عشرا ثم
لم يهرم .. ولم يشب
أحبك يا دمشق وان
نأى بي عنك مضطربي
أحبك عزمة صمدت
على الاحداث والنوب
أحبك قصة تروى
ـ على الايام .. للعقب
ومجدا كان ـ لما كان
عنه الشمس لم تغب
وجندا في سبيل الحق
بين الركض .. والخبب
يد فيها كتاب الله
مجلى الشك .. والريب
وأخرى صارم يهوي
على الاوثان والنصب
أحبتنا بأرض الشام
مثوى السادة النجب
بلاد قد براها الله
من لطف ، ومن أدب
وأرض الصانعين المجد
لم يبهت على الحقب

ومطلع كل نجم عن
سماء العز لم يغب
بلاد المزهر الرنان
روض البلبل الطرب
ودنيا الفن والابداع
والاقلام ، والكتب
يراعتها « مجنحة »
بأجنحة .. من الذهب ..
اذا طربت جرت بحديثها
كسلافة العنب
وان غضبت فكالبركان
حين يمور باللهب
ولي عينان .. واحدة
ترف عليك من كثب
وواحدة بها صلب
معلقة على الهدب
لقد حيرتما قلبي
وقلبي مسرح الريب
كلا الوجهين يجذبه
بما قد مد من سبب
فلم يعرف .. أذات
الحسن ـ يعشقها .. أم الحسب
فأنت دمشق حاضنة العلا
.. وربيبة الشهب
وتلك القلعة الشماء
قد شمخت على السحب
سلاما من ربا وطني
سلام الحب .. والحدب
فنحن وأنتمو أبدا
عن الساحات لم نغب
وليس بغير منهجنا
تعود مكاسب العرب

نماذج في الظل

حمدى

بقلم : علي مصطفى المصراتي

أسود اللون فاحمه .. مكتنز الجسد متداخله أقرب الى السمنة ، أفطس الانف .. أشم النفس .

مقرقر الصوت ، يضحك هادرا أو مزلزلا ..

ويطوح برأسه كأنه يريد أن يتحاشى تفاقد الوزن في الضحك من بعيد تسمعها . وتميزها .. فلها ملامح أو نبرات مميزة .. أو مميزات ومميزات .. ضحكة أولاد البلد لعله اكتسبها من الاحياء الشعبية بالاسكندرية التي عاش بها ردحا .. وان اتى اليها على كبر .. مثقل الهموم .. باحثا عن لقمة العيش .

اذا رآه رسام من هواة رسم الشخصيات التاريخية لاستوحى صورة من كافور الاخشيدي .. وان لم تكن بينهما قرابة ولا سلالة ولا معاصرة .. ولا حتى لغة تفاهم .

مرح طروب .. يضرب الدنيا بصرمة .

ويقولها في سخرية : طظ ..

وبلغة مهذبة .. ومفصحة – بالضم والتشديد .. ولو .. لا يهم .

آه يا دنيا .. ولا يهم .. خليها سايرة .

عرف الفن .. أو عرف بالفن .. في بلد كاد .. أو كان تاريخ الفن المسرحي فيه صفرا .. تلاحقه أصفار ...

وكان من الهواة .. الشداة .. الغواة .. من الغية .. لا من الغواية ، لو كان له قسط أوفر من الثقافة .. أو استمرارية .. لعدمن رواد الفن المسرحي .. رغم بلقعة هذا التاريخ .

لم يجد الجمهور الكافي .. والمجال الوافي .. قل يا شافي .. يا عافي .. وكانت تتنازعه هوايتان كل منهما في واد ..

تكاد أن تكونا من تقابل الاضداد .

فن التمثيل .

والضرب باللكمة والقبضة – وما يعرف برياضة الملاكمة .. وسبحان من جمع الهوايتين في بني آدم ..؟؟

هو ممثل مسرحي .

ورياضي ملاكم .

ترى ماذا كان يصنع معه المخرج ، هل كان يلقنه الادوار بأدب وتخوف ؟ لان لغة الملاكمة لا تعرف الهوادة والرحمة : ولم نعرف في تاريخ الفن المسرحي من كان ملاكمـا ..

على الاقل في جيله ومحيطه .. أو فيما لدينا من مراجع تاريخ المسرح ببلاد الناطقين بالضاد .. وغيرها من حروف المعجمات .. وحروف العجماوات والمضمومة والمشمومـة .

أو لم نعرف في مجالات الضرب والملاكمات من كان ممثلا فنيا .. وضارب اليد الملاكم والمصارع .. هل له أن يكون فنانا حساسا ..؟

ولكن يظهر ان المناخ الاول .. والجو الرياضي شجعـه ..

ووجد المدرب الرياضي الملاكم .. أكثر من المدرب الممثل ..

وان كانت شهرته في هذه وتلك في محيطـه الشعبي .. معروفة وكان الطليان في بلده لا يشجعون تمثيلا ولا ملاكمة .

كان يشق طريقه بعصامية .. وعظامية .. في الصخور والاشواك وسار في الطريق رغم قدميـه الداميتين .. في الطريق الوعر ..

حمدي .. وهكذا اسم عرف .. ولا يعرف الناس الا اسمه فقط شهرته .. وكان المجتمع يعرف بعض الاسماء ذات الشهرة في مجالاتها بالاسم .. وعلى سبيل المثال :

— الافوكاتو قدري وهو الصحفي المناضل المعروف .

— داود أفندي وهو العالم الباحث المعروف .
— أبو قشة وهو الهاشمي المكي الصحفي المناضل
— الشيخ بن مصطفى الفقيه كامل بن مصطفى الحنفي .

— الشيخ بن موسى الصحفي محمود نديم بن موسى .

— وبعدها بجيل أو جيلين .. وان أردت المغالطة في الحساب ثلاثة أجيال أو اربعة .. عرف اسم حمدي: أو لقب اخر عثمان عبد الباسط .. لشخصية اكتسبها او اقتبسها من التمثيل الفكاهي الذي كان يقلد به الفنان المسرحي علي الكسار .. أو بربري مصر الاول ..

وقد شارك علي الكسار في اللون .. وان كان أفحم .. أو أكثر فحامة في سحنته .. وان كان الكسار لا يقرأ ولا يكتب .. لكن حمدي كان خريج مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية ..

والاسم بالكامل كما تشهد شهادة الميلاد .. حمدي محمد أبو بكر من مواليد طرابلس الغرب سنة ١٩١٤ .

وعاش في فترة شبابه في عهد مظلم .. عهد الاستعمار الايطالي الفاشي .. لا يفتح نوافذ المواهب بل يغلق كل الكوات والمسارب وكانت هناك كوة يتسلل منها نور .. هي مدرسة الفنون ..

هي في الحقيقة مدرسة اسلامية ومؤسسة شعبية أنشئت بأموال الشعب .. حسنة من حسنات العهد التركي ولو كره المغالطون .. أو تجاهل الذين أهملوا تاريخ التربية والتعليم .. كانت تربي التلاميذ الفقراء وتؤوي اليتامى .. وتعلمهم صناعة .. وتزودهم بحرفة .. وتربي فيهم الذوق الفني والصناعي .. وكان من بين طلابها هذا الصامت المكتنز — حمدي — دخل مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية عام ١٩٢٤ م وظل بها ثماني سنوات .. وتخرج عام ١٩٣٢ م .

ورغم أنها مدرسة اسلامية .. وبأوقاف المسلمين وتبرعاتهم وبمجهود أهل الوطن قامت .. فقد كان مديرها آنذاك طليانيا واستولى الطلاينة الملاعنة .. حتى على مطبعة المدرسة .. وأعطوها لاحد المجندين الطليان السنيور « ماجي » مشروعا تجاريا . وبعد تخرج حمدي من المدرسة كان قد كسب مهنة صفاف حروف بالمطبعة .. درسها بالمدرسة .. وعمل أيضا بجانب جمع الحروف في مهنة (تسفير) أي تجليد الكتب .

والتسفير تعبير أندلسي مغربي جميل الاستعمال .. فصيح .. صحيح .. وعمل أيضا « بوهيجيا » وبالاضافة من بقايا الترك .. جي .. علامة اضافة .. أي نقاشا .. ومزوقا للحوائط .. نسبة الى البوهية.

يمزج الالوان في جردل .. ويضرب الحائط .. بالفرشة .. لا برأسه وكان عمله مع مواطن يسمى « مهدي الشريف » وكان طالبا معه أيام الدراسة ثم أصبح من أهل الاعمال الحرة واشتغل مقاولا .. وأخذ صاحبه وزميله حمدي ليعمل عنده .. لخفة يده في ضرب الالوان ومزجها .. وتبييض الحوائط .. وتغيير سحنتها .. واظهار رونقها ..

وقد كسب مهارة في المطبعة وظل بها أكثر من ثماني سنوات يقرأ الحروف معكوسة .. ويصحح التحريف والتصحيف .. قبل أيام الحرب العالمية الثانية .. وفي أثناء كابوس الحكم الايطالي .. الغابر الدابر .. وكان هواه في تنقل الحرف .. وتبدل المهن .. من طباع ومزوق حوائط .. وأصباغ أصابعه بالحبر في الاولى والجير والالوان في الثانية وينتقل الى عوالم الخيوط الكهربائية والاسلاك والموجات غير البحرية راقت لمزاجه .. وحلت لمذاقه .. حرفة اصلاح أجهزة المذياع على قلة العاملين بها في ذلك المحيط واكتسب مهارة في هذه المهنة الفنية الدقيقة ..

فكل من خرخش ، وخنخن له مذياع ، أو تعصلج معه أو تداخلت موجاته ، وتشابكت محطاته .. أو ارتخت مؤشراته .

كان حمدي يسرع اليه بأصابعه يجسه كطبيب اذاعي .. أو مهندس للاسلاك يختبرها .. ويعرف داءها ودواؤها .. وعلة انسهالها أو علة امساكها .. من جسة واحدة .. وتحريكة .. يصل الى معرفة السبب والمسبب . ويسعفه بقطعة من أكداسه التي تكونت في دكانه من مصارين الخيوط .. وعروق الالات .. وقد تعلم وتدرب في مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية قواعد ومبادىء أصول الهندسة الاذاعية .

ومدرسه ومدربه الطلياني ، لم يضن عليه بالدراسة الجادة فقد كانت له روح علمية رغم تسلط الادارة لقد كان من نوع نبض ضميره العلمي .

ولم يخل أهل العلم في بعض الحالات ونوادر الحالات من روح علمية .. فقد كان مدرسه ايطاليا .. ولم يكن فاشيا .. وعلمه باتقان في غفلة من المدير المتعصب هكذا كان يروي الراوي .. والعهدة وأمانة النقل عنه ... في عنقه .. عنه رويناها .. وبسند يتل الي روايته .

وطوحت به المهن حتى وصل الى باب المسرح .

وشكل مصطفى العجيلي – أو الدكتور كما اشتهر لقبه – فرقة فنية للمسرح من داخل مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية اشرف علها قنابة الشاعر .. تأسست سنة ١٩٣٦ م.

وقدمت روايات ذات اطار ونكهة تاريخية .. ومثل بها حمدي .. وجدت هوايته الفنية مسربا .. وكان بارع التمثيل جيد الالقاء .. لديه مقومات النجاح في العمل الفني .

فهو لماح .. مدرك .. متقمص لادواره .. عاشق لدوره – بدافع الرغبة الفنية .. وعرفته أوساط الجماهير المحبة للفن بأنه الممثل البارع .. الممتاز .. المتميز .. له موهبة .. ولكنها لم تجد تنمية ، وله اتجاه فني لم يجد مجراه ، الفن موهبة لا شك ، ولكن للفن أيضا أجواء وعوامل لا شك .

من هنا نعرف عند المقارنات لماذا يثمر الفن في ناحية أو أنحاء ؟

ولماذا يضمر ويموت بالسكتة أو بالاغماء .. في أنحاء .. وأنحاء .. ومنحنيات من تعاريج الزمن ؟!
وقد مثل حمدي مع مجموعة من هواة التمثيل لم يستمروا على دربه .. ما زال .. أو كان يذكر أسماء .. عبد المجيد النعاس – احمد البزنطي – خيري فرحات – خليفة الغدامس – عثمان نجيم – وينطقها أهل طرابلس بالجيم من النجامة فلان ناجم – على القروش – بشير عريبي – حسن يوسف الشربيني – وكان مصريا مبعدا من مصر في عهد ايطاليا – وعاش في طرابلس عاملا في الوسط المسرحي فترة .. وكان من أصدقاء حمدي .. يتبادلان القفشات والنكات المصرية .. في موجة من الضحك المتواصل .. تغسل ادران الصدر وتكنس هموم القلب .. وعمل حمدي فصولا فكاهية من النوع المسمى (اسكتش) ولم أجد للعبارة تعريبا فلتدخل بعد اذن اللغويين والمتشددين .. كان هذا الاسكتش – من اللون الخفيف .. الذي كان متداولا في استعراضات مسارح روض الفرج وغيرها في الثلاثينات بمصر .. وعمل حمدي أيضا في روايات ذات طابع تاريخي فني مثل رواية – فيروز – وحلاق بغداد – مما كان مستمدا من ينابيع روايات وحكايات ألف ليلة وليلة ..

وفي أيامه الاولى لهوايته المسرحية اتخذ مع الهواة مكانا للتمرين في بيت آل قنابة بباب البحر – في العهد الايطالي .

وايضا بمسرح البوليتياما – بسوق الترك قرب باب البحر .. مكان سينما النصر الان ..

وهاجر حمدي الى مصر .. واتخذ من الاسكندرية مهجرا .. ومقرا في احد أحيائها الشعبية العريقة كان مقدمة الى الشاطىء السكندري عام ١٩٤٣ م.

كانت أول رحلة من طرابلس عن طريق البر – بعد قيام الحرب العالمية – وصحبة اثنان من حجاج الجزائر .. صحبهما من منطقة سرت قاصدين بيت الله الحرام على طريقة اسلوب زعاليك الحجاج قديما .

خرجنا من فاس ومكناس
لا برمة ولا كسكاس
في حبك يا رسول الله

والحاجان هما أحمد قليل – والثاني محمد بن غلبون – مما يدل على وجود لقب غلبون حتى في الجزائر كما هو في مصراتة .. والاندلس .

وافترقوا في طريق العامرية – حيث ذهبا الى القاهرة –

وهو توجه الى الاسكندرية وفي نفس الوقت يردد أغنية شعبية قديمة :

اسكندرية مرية .. وترابها زعفران

نزل في الاسكندرية بحي بحري .. بالانفوشي .
حيث لا تزال في تلك الاونات بنات بحري الجميلات المائسات يلبسن على الوجه ويتبرقعن بتلك الفلالة الحريرية الهفهافة تلك الفلالة التي انقرضت رغم جمالها وطابعها الشعبي .

وقد أوحت برسم فني للفنان المبدع سيف وانلي .. والفنان محمود سعيد في لوحة « بنت بحري »

واين الحمامات المائسات في شطوط تونس بالغلالة البيضاء ؟

والحمامات المائسات في شط الاسكندرية بالغلالة السوداء ..؟

وكان حي الاسكندرية يموج بالملابس الفضفاضة سراويل أولاد البلد : والقبضايات أشبه بسراويل أولاد البلد من ابناء باب البحر بطرابلس .

* * *

ومن أجل لقمة العيش ودع حياة التمثيل والفكاهة والاسكتشات .. انها لا تسد فراغا .. ولا تسد معدة وعمل مع الجيش البريطاني في مركب حربي .. حيث يضمن لقمة العيش مع القروش التي تتكاثر وتتناثر أيام الانجليز ..

ولكن هل الحياة قروش وكروش ؟

ترك العمل في محيط المركب الحربي ، وعربدة الانجليز ..

وصخب « جوني والكاس »

وآثر العمل في اصلاح المذياع .. وعلاج خنخنة الراديو واشتغل مع زكي أمين من مواطني الاسكندرية في شارع الست « المصرية » .. بالسين .

وهي زاوية من آثار الصوفية .. ولعلها ست من صاحبات الخير والفضل وكان الاسطى أو المعلم زكي أمين صاحب محل كهرباء واصلاح راديو وظل حمدي مدة معه .. فتح الله عليه وفتح حمدي دكانا مستقلا في شارع توفيق ، في ميدان المنشية .

قرب تمثالي محمد علي باشا – ذلك الراكب صهوة الحصان الحجري والمعتمر طربوشا ذا زر طويل كطرابيش المغاربة .

وتوارت ليال المسرح .. والاسكتشات .. وجماهير الفن .. واعلانات اليد .. وتصفيق الاعجاب والزحام على الشباك .. بطرابلس ليحل محل ذلك زبائن وزبونات .. لم يعرفوا سوى المعلم حمدي .. والاسطى حمدي ويا عمي حمدي .. بالاسكندرية .

وكثيرا ما وصل اللطف والكرم أو البذخ في الكرم الى كلمة ولقب .. الباش مهندس حمدي ..

وفتح فرعا لمحله .. وبدل أن يطلق عليه دكانا .. فضل أن يطلق عليه .. مصنعا .. كان الفرع بحي المندرة بالاسكندرية وظل حمدي في عالم الكهرباء .. والموجات .. والاسلاك الموجبة وانواع المذياعات ثلاثة عشر عاما ..

ويحتفظ في صدره بالذكريات الفنية ينثرها ويفض جرابها وخواطر نفسه مع نفسه .. أو ذكريات مع أصحابه في سمر خاطف من زحام العمل الكهربائي .. ويحتفظ أيضا بصور مرسومة أوراق خاصة هي بعض الرسوم والمناظر الملتقطة له مع رفاقه على مسرح البلولتياما وهو في الغرفة المسرحية .. يستعرض مع الصور التي في الذاكرة .. والصور التي في « ألبوم » ذكريات الزملاء في الفن المسرحي والتمثيل .. ترى هل أصدقاؤه على البعد يذكرونه ؟

هل يحمل أحد القادمين للاسكندرية خبرا عنهم؟
أو هو يردد قول القائل في صورة شعرية :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا .. أنيس
ولم يسمر بمكة سامر :

وهل يقتصر نشاطه على الاسكندرية ؟

ان في القاهرة متسعا للجميع .. وهناك فتح دكانا في شارع القصر العيني أمام وزارة التجارة والصناعة .. وسكن في حي الروضة عمارة السمري وفتح دكانا اخر في شارع سعيد الاول بشبرا قرب ميدان مسرة .

* * *

وفي هذه الفترة لم يرتبط بخيط الفن – مع أن له خميرة فنية – وترى كلمة خميرة – خيرا من كلمة خلفية .. غير أنه كان على صلة بصديق له فنان هو الاستاذ عبد الحميد بدوي وهو غير الاستاذ الدكتور عبد الحميد بدوي – القانوني المعروف – بل هو مجرد تشابه في الاسماء .. وتلاقي الحروف .

مجرد مشاركة في الاسم .. ويخلق من الشبه أربعين .. ومن تشابه الاسماء والالقاب ... آلاف ومئات .. كان صاحبه عبد الحميد بدوي ممثلا مسرحيا .. ويعمل في المجال السينمائي أيضا .. أو في بعض الاحايين كان الفنان عبد الحميد بدوي يسافر خارج مصر ، وتصاحبه في جولاته مجموعة من الفنانين والفنانات المصريين وزار طرابلس في العهد

الايطالـي .

وكان من ضمن فرقته ـ اسماعيل جابر ـ القانونـي .

ومعه فتاتان اشتغلتا معه .. منولوجيست ـ وممثلـة

عرفهما حمدي وتسامر معهما .. في ليال فنية.

فتحية مصطفى .. منولجيست

وفتحية محمد .. ممثلة

أين ذهبت الفتحيتان في خضم الزمن العاني ؟

لا حس لهما ولا أثر الا ذكريات فنية يجترهـا حمدي في أسماره الطويلة وذكرياته البعيدة ـ وقدمت مجموعة عبد الحميد بدوي بعض الاعمال الفنية في فرقة مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية باشـراف ونشاط حمدي الذي كان لولب الحفلات . والرابطة الفنية بين الشعبين الشقيقين في العهد الايطالي الذي كان يؤرقه كل ما له صلة بالعرب والعروبة .

وتوطدت الصلة مع عبد الحميد بدوي حيـث ألقى حمدي لونا من الافاكية والاطراب .. واسكتشات فنية من تأليف عبد الحميد بدوي ..

واستمر حمدي بالادوار الكوميدية ..

اشتهر بلون الفكاهة .. واستمرأه .. فهـو يكره التجهم والتقطيب والدراما .. هل يدخل الانسان المسرح ليتفرج .. ويفرج على نفسه أو ليدمع ويهلع .. ويتكبس أي يصيبه كابوس ؟

واتخذ حمدي شخصية فكاهية مسرحية عرف بها .. وعرفت به فترة من الوقت ، حتى كادت أن تنسى الناس اسمه المسجل في شهادة الميلاد ..

انه اسم لشخصية فنية « عثمان عبد الباسط »

دور الخادم والسفرجي ـ وهو تقليد للممثل الفكه « علي الكسار » مع أن هذه الشخصية المسرحية بظروفها وملابساتها ليس مكانها طرابلس ـ وفي الحقيقة لم تكن موجودة هذه المشكلة في طرابلس بل هي من مشاكل الجو الذي كان يعيش فيه « علي الكسار » ولكنه تقليد من بعيد .. ونقل لبضاعة كانت مـن منقولات الفن ، والاغرب والاكثر مدعاة للدهشة أن حمدي الممثل الذي سار على درب « علي الكسار » لم ير في حياته « علي الكسار » ولم يدخل في حياته مسرحية له ، فهل هو من تفصيل المخرج الذي ألبسه هذا الثوب ؟

والاغرب والاكثر مدعاة للدهشة مرة أخرى أن يكون هذا عندما كان علي الكسار ما زال حيا يرزق ويمثل أو يمثل ويرزق .. مع وجود حمدي في هذه الاثناء على بعد فركة كعب ..

شغلته دكاكينه .. ومحلاته عن لقياه ومشاهدته.

* * *

وعندما عاد حمدي من مصر دفعه الحنين القديم والشوق الدفين الى اعادة مسيرته الفنية بعد انقطاع طويل وعمل في الفرقة الوطنية للتمثيل مع ابراهيم المقهور واحسان عزيز .

اراد أن يعيد موات الفرقة .. ويبعث فيهـا شيئا جديدا ...

وشيء جديد تدفق في خاطره .. أراد أن يعمل مؤلفا مسرحيا ..

وفعلا توكل على الله ـ بالهام .. أو وسوسة من شيطان الفن .

وكتب مسرحية « طيش الشباب » ومسرحية « طريق الشيطان » بعد عودته من مصر عام ١٩٥٦ م ، ١٩٥٧ م وعمل معه الفنان حسن المصري صاحبه القديم الذي مكث بطرابلس أكثر مما مكث بالاسكندرية .. وأيضا مثل معه احسان عزيز واخرون كان تمثيلهم لاول مرة .. واخر مرة ..

وبعضهم استمر .. ولكن استمرار سـير المتلكىء المتعثر ..

وحاول حمدي أن يقدم أول فنانة على المسرح بطرابلس .

وجانب اخر في حياة هذا الفنان البوهيمـي المجهول لدى الكثيرين هو جانب الملاكمة وما علاقـة الفن بالملاكمة ؟

شيئان بعيدان .. قد لا يلتقيان على خشبـة واحدة

والملاكمة كانت هواية حمدي منذ عام ١٩٣٢ م

في الثلاثينات .. تمرن على الملاكمة في مدينـة طرابلس .. قبل أن يولد محمد علي كلاي وعهـده

الذهبي في الملاكمة .. وهناك زنقة حسونة باشا كان هناك مقر تتمرن فيه ألوان وأجناس مختلفة .. مختلطة ايطاليون .. ومالطيون .. ويهود .. واسبان ـ احرام على طيوره المناقرة ؟

وتسلل حمدي الى المقر ملوحا بقبضته ... مستعرضا لعضلاته طموحا الى أن يوجه اللكمات على كثير من الانوف والاصداغ يريد أن يجعلها صاغرة تلك التي تصعر خدها ..

وقبضته كانت كرماح عنترة في الساحة ..

وشجع بعض زملاءه الطرابلسيين على أن ينزلوا الى حلبة الملاكمة .. ولا يتركوا الساحة والمران لهؤلاء الدخلاء الاجانب .. فكان من الملاكمين .. عبد القادر جاد الله ـ وعبد السلام القطوس ـ وكان بينه وبين الطليان ما بين القط والفأر ـ كان ذلك عام ١٩٣٣ م واشترك في أول حفل ملاكمة بعد أن عمل حمدي على تمرين الملاكم ـ علي فتحي ـ ويظهر أن فتحي كان حقل تجارب للكمات حمدي .

وفيما بعد تشجع حمدي ونازل الطليان في عقر داره أو عقر ناديهم لان الدار داره وليست موطنا للطليان فلاكم هذا الفنان والرياضي العربي أمثال : اسكمبيل ـ وتشيني ـ واجديلاور ـ وجود شاردين وغيرهم ممن سقطت أسماؤهم حتى عند الملاكمين أنفسهم ..

وعندما تكون ـ بعد سنين ـ في طرابلس نادي للعمال عمل له حمدي . قسما للملاكمة ـ ويظهر أنه كان يريد أن يأخذ العمال حقوقهم بالدراع والقبضات الموجهة .

أراد أن ينشىء لنادي العمال أيضا فرعا مسرحيا .. ويكون قسما فنيا .. واشترك معه فؤاد الكعبازي ـ الرسام الفنان ـ في عمل الديكور للمسرح ـ وكان حمدي يتردد من أجل الناحية الفنية على مسرح الميرماري ليشاهد مسرحيات ايطالية .. والفرق الاجنبية المجلوبة ..

وكانت عودة حمدي من مهجره بالاسكندرية الى طرابلس عام ١٩٥٦ م أما حياته العائلية أو مغامراته الزيجية .

فهو قد تزوج بالاسكندرية مرتين .

ولكنه زواج عرفي ..

أي ان كلا الزوجين العصمة في يده ..

تزوج عام ١٩٤٧ م ـ ١٩٤٨ م ..

الاولى اسمها نجية ـ والثانية اسمها ليلى .

ولم يدم الزواج فقد طلقته زوجته سليطة اللسان وهي من فرقة الاستعراض اللساني واليدوي . اذ رفضت أن تسافر معه الى بلده ليبيا ..

ولم يخلف لا صبيان ولا بنات ..

وان عاش في تلك الفترة في ثبات ونبات .. كما تقول الحكايات واسلوب الخرافات .

لكن بعد أن فاته قطار الزواج ..

أو سفينة الزواج .. آثر أن يغامر مرة أخرى .. وهو في أواخر شوط المسير .. فتزوج من عام ١٩٦٨ م الى ١٩٧١ من امرأة اعترف بها بأنها تجاوزت الخمسين .. أي نصف قرن ..

خمسة عقود باعترافه هو .. واعتراف شهادة الميلاد .

ولكن هي عروس تكذب الاثنين ..

وآثر هذا .. لانه لا يريد خلفا .. ولا وارثا .. ولا وليا للعهد ..

ورغم أنه حماها ـ في صقيع العمر ـ الا انها أيضا أبت أن تسافر معه الى بلد سبها .. في الجنوب بأرض فزان ..

ولا تريد الغربة ولو داخل الحدود .. على حد تعبيرها .. وبرر تمنعها وآثر أن يقدم لها ورقتين .. في ورقة الطلاق ..

وفي ورقة مؤخر الصداق ..

وعاش كالشاعر المعري الذي كان عميدا للعزاب العازفين عن الزواج ..

ويهوى الرسم .. ويعزف على آلة طربول .. الالة النحاسية التي تنفخ الاوداج .. فتظل أوداجه من النفخ كقربة غير مثقوبة ..

لمحة عن الحياة الأدبية في ليبيا

بقلم : خليفة التليسي

ظلت ليبيا حتى أواخر القرن التاسع عشر تعيش منعزلة عن كافة التيارات الادبية والفكرية التي أخذت تظهر في العالم الاسلامي وتمهد للنهضة الحديثة .

وكانت الحياة الثقافية تتمثل في بعض المعاهد الدينية والزوايا التي قامت بدور كبير في المحافظة على الشخصية العربية والاسلامية لهذا البلد .

وقد كان للمراكز الثقافية والمعاهد الدينية التي كانت قائمة بأنحاء مختلفة من البلاد اثرها البعيد في الابقاء على عناصر ومقومات الثقافة العربية والاسلامية .

لم تكن ليبيا ، بحكم موقعها الجغرافي وواقعها التاريخي منعزلة عن الشرق والغرب وعن أوروبا اذ شهدت موانيها حركة واسعة وكانت مدنها مراكز ومحطات تجارية هامة ولعبت بحريتها دورا هاما في الصراع حول البحر الابيض المتوسط .

كان هناك اتصال واحتكاك مستمر بأوروبا في العهد العثماني الاول ، والعهد القرمانلي والعهد العثماني الثاني . وقد كانت هذه العلاقة مطبوعة بطابع المواجهة والتحدي والوقوف في وجه الاتجاهات الصليبية ثم اتسمت في العهد الاخير . أي في العهد العثماني الثاني بطابع الحذر والانغلاق والخوف السلبي . وقد ظلت هذه العلاقة تسير في اطارها الحربي والتجاري ولم يكن لها من الاثر الثقافي ما تحقق لذلك الاتصال الذي قام بين مصر واوروبا عقب حملة نابليون التي يعتبرها بعض مؤرخي العصر الحديث، نقطة الانطلاق في النهضة الحديثة . ولقد كان الحكم القائم في ليبيا حينذاك على صلة بهذه الحملة وقائدها وكانت ليوسف باشا القرمانلي صلات معروفة بنابليون كما قدم عدة تسهيلات لانجاح حملته . ولكن هذه العلاقة ظلت في حدود المصالح السياسية والاستفادة من الصراع القائم في المنطقة بين فرنسا وانجلترا . ولم يتحول ذلك الى التأثير الثقافي فقد كان نشاط البحرية قد استغرق كل اهتمام الحكم القائم ولم يكن الحكام أنفسهم من ذوي العلم والثقافة بحيث يهتمون برعايتها وتشجيعها .

وقد امتدت هذه الظروف فشملت العهد العثماني الثاني الذي كان يمثل سلسلة متعاقبة من الولاة الذين لم يصنعوا شيئا كبيرا من أجل تقدم البلاد ولم يكن يتوقع منهم أن يصنعوا شيئا اذ كانت الامبراطورية العثمانية تمر بلحظات احتضارها . وكانت القوى الكبرى حينذاك تتآمر عليها .

وصورة هذا العهد تتمم الصورة التي استقرت في اذهان المؤرخين للعهد العثماني الاول . ان استعراض الاوضاع السياسية لهذ العهد ، ونماط الولاة والديانات الذين تعاقبوا على الحكم يقدم الدليل الحاسم على ضعف الحياة الثقافية .

فقد كانوا من المغامرين ، أو من المشغولين بشؤون الحرب والبحرية ، ولم يكن للعلم عندهم مكان ، كما أن أكثرهم لم ينحدر من أصول اسلامية عربية ولكنهم كانوا من العناصر الطارئة على الاسلام ، أو من العلج كما كانوا يسمون حينذاك وفي مثل هذا الوسط لم يكن لينتظر للثقافة العربية الاسلامية أن تزدهر وللحياة الادبية ان تقوم .

ومنذ تلك العصور حمل الادب الشعبي راية التعبير عن شخصية المواطن الاصيل .

لقد شاركت ليبيا مشاركة واضحة في الصراع الذي قام حول البحر الابيض المتوسط ، وكان لها دور بارز في نطاق البحرية الاسلامية في الشمال الافريقي ، وقد استمرت تؤدي هذا الدور منذ أوائل القرن السادس عشر حتى اوائل القرن التاسع عشر ، جنبا الى جنب مع شقيقاتها تونس والجزائر والمغرب التي كانت تتصدى لحملات الاسبان والبرتغال وفرسان مالطا حتى انتهت هذه المواجهة بسقوط دول الشمال الافريقي الواحدة بعد الاخرى في قبضة الاستعمار .

وهكذا يتضح لنا ، أن هذه البلدان ، قد واجهت فيما بعد تخطيطا واحدا يرمي الى السيطرة واحدا ، ونهضت بمسؤولية واحدة ، في الدفاع عن الوجود الاسلامي ، قد كان من نتائج هذا الموقف أن واجهت فيما بعد تخطيطا واحدا يرمي الى السيطرة على هذه المنطقة وهو التخطيط الذي نجح الاستعمار في تحقيقه ، وبات واضحا لدى الناس منذ سقوط الجزائر المصير الذي ينتظر بقية البلدان المجاورة ، وقد ادى الى ان تواجه هذه البلدان ظروفا متشابهـا في المخططات التي مارسها الاستعمار ، وفي مناهجه ، وعلى الذين يمارسون تاريخ الاستعمار الحديث في هذه المنطقة أن يعودوا به الى اصوله التي تمتد الى الفترة التي خرج فيها المسلمون من الاندلس .

ورغم أنه لن يتيسر لنا تحديد الملامح الثقافية العامة لهذه الفترة تحديدا تاما الا بتوفر كافة الوثائق عنها ، الا انه من الثابت أن الحركة الثقافية كانت متخلفة ومحدودة وتمثلت في ذلك الاطار التقليدي ، كما كانت أكثر ارتباطا في ملامحها العامة بالطابع الثقافي الذي انتشر وساد المغرب العربي ، فلم يخرج عن دائرة الفكر الفقهي الصوفي ، يدل على ذلك ما كان يظفر به الاولياء المتصوفون من مكانة لدى الولاة وحظوة في المجتمع ، وقد لاحظ الدارسون أن الطابع العام الذي يميز الحياة الفكرية في المغرب العربي منذ الفتح الاسلامي هو سيطرة النزعة الفقهية التصوفية عليه ، فلم ينجب المغرب شاعرا يرتقي الى مستوى الشعراء العظام الذين أنجبتهم البيئة الادبية في المشرق في مختلف العصور ..

بدأت ملامح النهضة الفكرية الادبية في ليبيا تظهر في أواخر العهد العثماني وقد اشتركت في صنعها والتمهيد لها عدة عوامل ، منها الاصلاحات المحدودة التي أدخلها بعض الولاة ، قيام بعض البيئات الادبية في المدن حول مراكز الدعوات الدينية وتأثر البلاد وتفاعلها بحركة النهضة في المشرق العربي وشعورها بالاخطار التي كانت تهددها من وراء الصراع الدولي للسيطرة عليها .

وقد شهدت البلاد في هذه المرحلة نهضة ادبية تمثلت في ازدهار الدراسات التقليدية وصدور عدد من الصحف ، وظهور اتجاهات ادبية تتفاعل وتتجاوب مع الحركات الادبية التي أخذت تنشأ في الشرق ، وأصبحنا نعثر على صدى الحوادث الكبرى التي كانت تهز الامبراطورية العثمانية فيما كان يكتب وينشر في ذلك الوقت . وبدأ التحدي الاستعماري يثير شيئا من الاحتكاك واليقظة ويدفع الى الدعوة الى الاستعداد والتحفز والاخذ بأسباب النهضة والتقدم وكانت النهضة في الشرق العربي ، قد أخذت تسير بخطوات ثابتة ، وقد كان لنتائجها تأثير واضح في ربط الصلات بالتراث القديم وظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر الذي يقدم الينا في هذه الفترة أبرز شخصياته التي دخلت تاريخنا الادبي .

وقد كان من الممكن لهذه الحركة التي أخذت تنشأ في المدن ، وحول المراكز الثقافية الدينية المختلفة أن تؤدي الى قيام بيئة ادبية مزدهـرة ، لولا أن الاستعمار كان على الابواب .

وقد كان اللون الادبي الغالب على هذه المرحلة كما هو الشأن في كافة البلدان العربية هـو الشعر والدراسات اللغوية والدينية .

وهكذا نرى أن رحلة الشعر عندنا ، قد انطلقت من ظلال الزاوية ، والمعهد الديني ، وحملت الينا أثرا واضحا من هذه البيئة تتجلى في النزعة الصوفيـة والاتجاه الى الحكمة والوعظ ولكن صوت التجديد لم يلبث أن هز هذا الشعر هزة خفيفة ونبهه الى الاهتمام بالقضايا المعاصرة له ، فارتبط بالتيارات والقضايا السياسية السائدة ، وحمل التعبير عن النزعة العثمانية واهتم بقضايا الدستور والحريات العامة والدفاع الوطني .

ورغم هذا الجهد الذي بذله هذا الشعر لتأكيد ذاته والخروج من دائرته القديمة فقد ظل بعيدا عن الوجدان الشعبي الذي وجد في شعره ما يغنيه وما

يعبر عن تجاربه بصدق وخلاص .

في هذه المرحلة نلتقي بملامح المدرسة التقليدية الحديثة في الشعر بكل ارتباطاتها بالاحداث العامة ، وصياغتها التقريرية وفهمها المحدود للتجديد .

وكانت هذه مرحلة هامة . فقبل هذه المرحلة لم يكن للشعر تاريخ في بلادنا وقد كنا نقف عند الابيات المحدودة التي نعثر عليها في كتب الادب القديم منسوبة الى بعض الشعراء الليبيين كما يقف الباحث عن الاثار ، عند صخرة أو بقية عامود منقوش ، ليستدل منه على وجود القصر الكبير أو القلعة المنيعة أو المدينة العامرة في ذلك المكان .

ونلاحظ أن الاحساس بالكيان الوطني قد بدأ يظهر في هذه المرحلة ، بظهور الاتجاهات الوطنية والدعوات القومية ، وكان من الممكن أن يتطور هذا الشعر واتجاهاته لينتهي الى ما انتهى اليه على يد شوقي وحافظ ومطران والرصافي والزهاوي وبشارة الخوري ، ولكن الاستعمار أخذ ينسج خيوط المؤامرة ويعد العدة للغزو فانصرف الناس عن الاهتمام بالادب والحركة الادبية الى الاستعداد لمواجهة الخطر الداهم .

وجاء الاستعمار ، فأخمد كل صوت وطني . واستفاد الاستعمار الايطالي من التجربة الفرنسية في الشمال الافريقي فحمل معه الى جانب غزوه الحربي بعثات تقوم على الاحاطة التامة بالاوضاع الاجتماعية والثقافية ، وانشاء المراكز للدراسات الاستعمارية لرسم الخطة التي سيسلكها في تعامله مع المواطنين .

وانتهت به الى وضع برنامج محدد يقوم على العناصر التالية التي تصادفنا في خطط الاستعمار الفرنسي :

١ ــ القضاء على العنصر الوطني .

٢ ــ قطع الصلات بينه وبين ماضيه الحضاري

٣ ــ طمث معالم الشخصية الوطنية .

٤ ــ محاربة اللغة العربية والثقافة العربية .

لقد ادرك هذا الاستعمار أن صراعه مع القوى الوطنية سيطول ويمتد ، وانه لن ينتهي عند حدود الانتصارات الحربية ، وانه سيواجه مقاومة ضارية تقوم على الاعتزاز بالمثل والتقاليد التي تحفل بها الحضارة الاسلامية . وان استمرار الصلة بهذه القيم من شأنه أن يزكي في النفوس شعلة الصمود والمقاومة والنضال المستمر . وكانت اولى العناصر في هذه الخطة تقوم على عزل المواطن عن كافة اسباب الثقافة والتعليم ولقد أقام الاستعمار الايطالي بليبيا اثنتين وثلاثين سنة ، خرج بعدها ، دون ان يخلف أية قاعدة ثقافية يتمثل فيها الاحتضان الصحيح لثقافته بحيث تمثل تيارا معينا في مجرى الحركة الفكرية في البلاد .

وتلك حسنة من حسناته ــ لم يردها ــ جعلت بناء الشخصية الادبية الفكرية بعد الاستقلال تقوم على الازدواجية والانقسام .

ومنذ نزل الاسطول الايطالي الى الشواطىء الليبية في ٥ اكتوبر ١٩١١ الى أن اصدر بادوليو منشوره بعد اعدام عمر المختار بانتهاء حركة المقاومة الوطنية سنة ١٩٣١ ترك الشعب كلمته للسيف وقصائده للمعارك .

وصاحب الشعر الشعبي جمع هذه المعارك وظل هو اللون الذي يسيطر على الموقف ويعبر عن هموم المواطن بصدق وحرارة ليحمل معاناته ونظرته للحياة ويعبر عن جهاده وصدق بلائه ، لقد صاحبه هذا الادب في معاركه ، في سجونه في معتقلاته في تشرده ، في مهاجره ، وفي هذا الشعر تنعكس الصورة الصحيحة، هذه الفترة بكل ما رافقها من كفاح ونضال واستبسال .

كان الشعر الفصيح الى جانبه متخلفا تخلفا شائنا لا يحمل أية خلجة من خلجات الوجدان ، كان وعظا مباشرا ، كان نظما سخيفا ، كان حكمة باردة .

فاذا قارنا شعر هذه الفترة بما توفر لنا من انتاج معاصريهم من الادباء الشعبيين الذين عاشوا في لهيب المعارك أدركنا الفرق بين الشعر الذي تمرس بالنضال وعانى تجربة الكفاح وادرك مستوى رفيعا من الصدق الشعوري والتعبيري ولم يعد يحجبه عن الوجدان شيء وبين الشعر الذي لم تساعده الظروف على التطور فقتلت فيه تلك الروح التي أخذت تظهر في بعض القصائد ابان المراحل الاولى من الكفاح وقبل استقرار الاوضاع للمستعمرين .

واذا كان لهذه الفترة من قيمة فنية تعتز بها فهي كامنة في هذا الادب الشعبي ، لقد استنفد هذا الادب وحده ، واستقطب الطاقات الفنية ، حين تعطلت ملكة الابداع في الشعر الفصيح وتلك الظاهرة واضحة ملموسة في تاريخ الشعوب والحضارات ، اذ

لوحظ أن الفنون الشعبية انما تزدهر لدى الشعوب التي تخلف ادبها الفصيح في التعبير عنها . كان الشعر الشعبي سجلا نفسيا للاحداث ، وانا أعني بالسجل النفسي شيئا يختلف عن السجل الاخباري والوثائقي ، أو متابعة الاحداث من الخارج متابعة صحفية باهتة .

وتبدأ مع التحرير مرحلة جديدة في رحلة الادب الليبي ، ويبرز من جديد اللون الوحيد وهو الشعر ، يسهم في معركة التحرر والاستقلال ويرفع شعارات هذه المرحلة . ويرتبط كل الارتباط بالاحداث العامة والقضايا السياسية ، ويلتزم بها التزاما قويا لا يكاد ينفصل عنها الى الاغراض الشعرية الاخرى . وكانت المدرسة التقليدية الحديثة قد تأصلت ، وتكامل تكوين شعرائها وحمل كل واحد منهم تجربة طويلة من المعاناة الشعريـة .

على أن ما يميز هذه الفترة من تاريخ تجربتنـا الادبية هو فك الحصار الثقافي والاتصال بالتيارات والاتجاهات الادبية في الشرق والغرب . وقد انفتحت الابواب والنوافذ وامكن للجيل الجديد الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية ، أن يقيم جسوره الاولى للاتصال بالحركة الادبية في البلدان العربية وقد تميزت هذه الفترة بالاقبال الشديد على التكوين الثقافي ، والاستفادة من انتاج اعلام الادباء في المشرق العربي . وقد كان ذلك من العوامل الرئيسية في تكوين النهضة الادبية الحديثة . وكان الشباب أكثر استجابة الى الدعوات التجديدية وانفتح السوق أمام الكتاب العربي الذي كان في الماضي يهرب تهريبا وانتشرت المجلات الادبية التي كانت تحمل الى القارىء ثمرات العقول العربية والاجنبية ، واطلع الشباب على ألوان حديثة من الادب لم يألفها من قبل ، واشتدت صلته بالادب المهجري والاعمال الادبية المترجمة .

وقد برزت الى جانب الشعر في هذه المرحلة المقالة الادبية والاجتماعية والسياسية ، وقد كـان للبعثات العلمية التي عادت مع بداية الاستقلال أثرها الواضح في تفجير الحياة الادبية ومدها بأسباب جديدة للحياة والصراع الفكري . وعرف الوسط الثقافي صراعا بين مختلف الاتجاهات والتيارات وكانت المناقشات حول القضايا الهامة هل الفن للفن ؟ أم الفن للحياة ؟

من المهم أن نلاحظ ونحن ندرس ونستعرض تجربتنا الفكرية أن الذين ساهموا في التمهيد لهذه المرحلة لم تتوفر لهم ظروف العلم ما توفر للاجيال الحديثة الناشئة في هذه السنوات الاخيرة التي توفرت لها كافة الفرص للتكوين الثقافي على أعلى المستويات الثقافية المحلية والخارجية .

وانما كانت فئة مخلصة حملت في نفسها الشوق الى المعرفة والثقافة والرغبة في بناء الشخصية الادبية الليبيا فانصرفت الى اقامة الصلات بالحركات الفكرية في العالم العربي ، وقد وجد بعضهم طريقة مباشرة الى بعض الاداب الاجنبية ، وتمثل بعضهم الاخر بعمق التجارب الادبية المنقولة الى اللغة العربية والتقى هؤلاء الشباب بأعلام القصة والمسرح والفن والشعر من الكتاب العالميين .

وقد وقع هذا الجيل في البداية تحت تأثير الاتجاهات الرومانسية التي أحيتها في وجدانهم قراءاتهم الاولى لمجدولين والفضيلة للمنفلوطي والام فرتـر وروفائيل من ترجمة للزيات ولكنه لم يلبث أن تحرر من ذلك وأحاط بألوان جديدة أخرى من الادب الواقعي الجديد .

كان هذا الجيل كالجائع الذي تهافت على المائدة الشهية فلا يعرف ، ما يختار منها أو ذلك (الخراش) الذي تكاثرت عليه الظبا فلم يعرف ما يصيد .

أما في الشعر وقد انعكس الصراع بين قديمه وحديثه ، التفت الشباب الى الاتجاهات الشعريـة السائدة وكانت السيادة في البداية، كما سبقت الاشارة للتيار التقليدي الذي نلتقي في اطاره بأسماء كثيرة من أبرزها الشارف ورفيق وقنابة والفقيه حسن والهوني وميلاد مبارك .

كان هذا الشعر يبحث عن امثلة في تلك القصائد التي قدمها حافظ وشوقي والرصافي والزهاوي .

وبقدر ما ارتبط هذا الشعر في بعض الاحيان بالمدارس التقليدية الحديثة نجده قد تأثر بالدعوات النقدية التي قامت حولها والتي اوجدت فيما بعد اتجاهات جديدة كان لها صدى في وجدان الجيل التالي مـن الشعراء الذين ارتبطوا بمدرسة ابولو والمهجر ومدارس الواقعية الجديدة .

وتنعكس هذه المرحلة بكل صراعها بين مختلف الاتجاهات ، في انتاج بعض الشعراء الذين بـدأوا تجربتهم الشعرية بالطريقة التقليدية ثم أخذوا يقتفون أثر المدارس الوجدانية فانعطفوا على ذواتهم ووجدانهم ورفعوا أحيانا أشرعتهم ليجوبوا البحار والبقاع التي جابها الملاح التائه .

واطلت علينا التجربة الجديدة ، واختصر بعض الشباب الطريق اليها اختصارا ، فلم يقطعوا الرحلة التي قطعها روادها انطلاقا من القديم . والعصر عصر سرعة ولماذا يمر الشاعر بنفس التجربة التي مر بها البياتي والسياب وعبد الصبور وحجازي ؟

فالشاعر الحديث عندنا يسير في هذه الطريق يفلح حينا في التعبير عن ذاته والقضايا التي تشغل أمته ، ويستوحي في بعض الاحيان بيئات أخرى ويستلهم قراءاته أكثر مما يستلهم تجربته ، ويعيش بعض الاحيان في رمزية أو ميثالوجية مفصولة عن وجداننا ، وكان على النقد أن يذكر بأن هذه التجربة ماتزال في حاجة الى المعاناة العميقة الى التصوف وأن شاعرنا ما يزال في حاجة الى ان يقطع أشواطا طويلة حتى يؤكد ذاته وأصالته ، فلا نريد للشاعر أن يكون صدى مرددا لبعض التجارب العالمية ، ولا نريد لشعره أن يكون انعكاسات لازمات خارجية فان ذلك يزيد في انفصاله عن الجماهير . هو في حاجة الى الاصالة التي تنبع من الشعور القوي بشخصية الامة .

نريد الشاعر الذي يتخذ من تعبيره عن ضمير امته ولونها الخاص وسيلة يعرض بها نفسه على الوجدان الانساني .

وكان على النقد أن ينبه الى أن الشعر الحديث، بمعناه الصحيح ، أصعب من القديم ، وانه اذا استطاع الشاعر القديم أن يستولي على الاسماع بالرنين والتنغيم الموسيقي والبيتية المقفلة والحكمة المركزة وتنوع الاغراض في القصيدة الواحدة ، فان ذلك لا يتأتى للشاعر الحديث الذي ينبغي أن ينفذ الى الوجدان ويخاطبه بتجربة متكاملة حية .

ومع ذلك فهي رحلة تستحق الاهتمام والمتابعة، وان الدراسة لهذه الاعمال الجديدة فرصة كبيرة لتأدية الدور في بناء النهضة الادبية ومن المحقق أننا نعود منها بحصاد واسع .

أما القصة فتاريخها حديث في بلادنا ولكنها رغم هذا العمر القصير قد استطاعت أن تثبت وجودها ، وان تبلغ عند بعض الكتاب درجة من التفوق والابداع تضعها في مستوى الاعمال القصصية الناضجة التي يكتبها اللامعون من كتاب القصة في الوطن العربي .. قرأ كتابها الكثير مما وصل الى ايديهم من انتاج أعلام القصة العربية والعالمية . وقد كان الطابع الذي يغلب على المحاولات الاولى طابعا عاطفيا ذاتيا يقرب بها من الاعتراف والحكاية والسيرة الذاتية ، وتسيطر فيها مشكلة المرأة سيطرة تكاد تكون تامة . ولكن الزوايا لا تلبث أن تتسع ، والاحاطة بالواقع تزداد عمقا ، وتكتسب المعالجة بعدا انسانيا باحتضانها لمختلف النماذج البشرية التي يقدمها المجتمع كملامح مميزة له . تعطي لونه وطابعه على أن ما يميز بعض هذه الاعمال ، تلك النزعة الشعرية التي تسري في أسلوبها وكيانها فتزيد من تعميق صلة القارىء بها . ويبدو أن القصة في بلادنا ستشهد في المستقبل تفوقا وظهورا على كافة الالوان الادبية لاهتمام الكتاب الشباب بها . وانصرافهم اليها بما توفره من امكانيات للتعبير عن القضايا التي تمتلىء بها نفوسهم .

وعندي أن الانتاج القصصي الليبي يوفر مادة صالحة للدراسة النقدية التي لا يتسع لها هذا الغرض ونحن في انتظار أن تطل علينا في المستقبل القصة الطويلة ، من خلال عمل تتوفر له كل عناصر الابداع الفني . وفي واقع هذه البلاد وتاريخها ما يقدم مادة يصوغ منها الفنان صورا نعثر على صورتنا فيها وينقلها عنا الى الناس .

أما البحث والدراسة فقد شهد في الاعوام الاخيرة تطورا ملحوظا واضحا . والخط البارز في مسيرة هذين اللونين هو اكتشاف ليبيا ، في ماضيها وحاضرها ، وتقييم تراث الاباء والاجداد واحياء العناصر الصالحة فيه ، وتحليل ظروف التجربة الثقافية التي مرت ببلادنا ، وربط الصلة بالتيارات الفكرية واعلامها البارزين في العالم ، وتتوفر الان كثير من الامكانيات الطيبة على هذا المجال ، وقد بدأت طلائع الجامعة الليبية تؤدي دورها بما قدمت وتقدم من دراسات وابحاث تساهم في اغناء الواقع الفكري في القديم والحديث .

هذه لمحة خاطفة عن الحركة الادبية في ليبيا وتلك هي أسباب التخلف وبواعث النهضة مقرونة بظروفها والتفسير الخاطف لها .

وفي هذا المناخ من الكفاح والنضال ، وتأكيد الذات والتعبير عن الشخصية الوطنية والطموح الى المشاركة في اغناء الوجدان الذاتي ، ووصل الاسباب بالحضارة القديمة والحديثة ، والعيش في صميم العصر بأزماته ، تحاول تجربتنا الادبية أن تشق طريقها ..

وهي تنطلق من اعادة الثقة في المثل الحضارية

الخالدة المعبرة عن هذه الامة ، من الانفتاح الحر على الحضارة الحديثة والثقافة الانسانية ، والتفاعل معها، دون اقتصار على المصادر الواحدة . من ادراك للواقع الثقافي ، وما يجب من عمل لتجاوزه ، وتحقيق النهضة وتقديم المساهمة الفكرية الوطنية .

من الالتزام بالتعبير عن الشخصية الوطنية والالمام بقضايا الوطن والمواطن من الايمان بأن التراث ما يزال قاعدة صالحة لبناء ثقافة تعبر عن ملامح شخصيتنا الحضارية .

ويقيني أن المتابعة العابرة لتطور الحركة الفكرية في بلدان الشمال الافريقي ستنتهي بالباحث الى انها تتشابه في الظروف ، والملابسات والخصائص والمميزات وقد اشتركت في تكوين هذا الواقع ظروف متشابهة واحدة ويمكن حصرها فيما يلي :

١ ـ العقم الفكري الذي سيطر على هذه المنطقة بانهيار الحضارة الاسلامية ثم انعزالها عن النهضة الحديثة .

٢ ـ الواقع النضالي الذي فرض على هذه المنطقة ، منذ أن بدأت تواجه التحديات الصليبية وتدافع عن وجودها .

٣ ـ الخطط التي رسمها الاستعمار لتطويق تطور الثقافة العربية .

٤ ـ سيطرة نزعة المحافظة والروح التقليدية والخوف السلبي من التيارات الفكرية الوافدة وانعدام نزعة التمرد الخلاق .

قد آمنت تجربتنا الناشئة بأن وسيلة الربط الحضاري والقومي هي اللغة القومية . وانه اذا كنا نتحدث في هذه الايام عن ادب المقاومة فان الدفاع عن اللغة العربية يرقى الى أسمى درجات المقاومة والدفاع عن الكيان الحضاري للامة وقد ادركنا ما تمثله هذه اللغة في كياننا . وعندما تعرض هذا الكيان للضرب كانت الضربة الاولى قد وجهت الى اللغة العربية ، على ان الايمان باللغة العربية والدعوة الى المحافظة عليها ومواجهة التحديات التي تتعرض لها لا يقترن في أذهاننا بالانغلاق ومحاربة اللغات الاخرى التي تعتبر الوسيلة الرئيسية للاتصال بحضارة الانسان الحديث وأزماته ومشاكله ، ولاتخذ هذا الدفاع شكلا حماسيا انفعاليا . ولكنه يجب أن يكون عملا ايجابيا سليما ، والاديب العربي مدعو الى أن يدرك دوره ورسالته في التعبير عن شخصية امته وعبقريتها والعمل على تدعيم عناصر البقاء في هذه اللغة والصمود بها في وجه التيارات المختلفة التي تحاربها وتسعى الى ايجاد القطيعة بينها وبين الاجيال الناشئة ، وهي قطيعة اذا استمرت ستنتهي الى الانفصال الكامل عن الثقافة العربية لدى الاجيال الناشئة ، ان موقفنا من هذه اللغة لا ينبغي أن يكون موقف استغراق جامد ولكنه جاد على تطويرها ليمكنها من التفاعل مع المعطيات الحضارية الجديدة وزيادة الابداع فيها بما يمنحها قدرة على البناء والاستمرار والعطاء .

الزيت والتمر

قصة : عبدالله القويري

أحس بدمه يغلي . جرت في عروقه دفقات حارة . قلبه يدق على صدره . زجاج النافذة مشروخ . قطع من الدخان تتساقط . ما زالت الشمس لم تغب ، رائحة شيء قديم تنبعث من ركن قصي في الغرفة . يئز الصندوق الخشبي المتهالك الذي يجلس عليه . في حذائه ثقب جانبي . لم ينم لحظة واحدة في الليلة الماضية . لم يأكل شيئا منذ الامس . مصارينه تتلوى أصوات داخلية مكتومة تصل الى أذنيه . فكر . ان يكلمه الان . سيترك الامر لتحله الايام ، ولكن ما الحل ؟ لم تبد أمامه أية فكرة . دار في الليلة الماضية بذهنه حول كل شيء فلم يصل الى نتيجة . سيترك كل شيء . ليس من فائدة هناك . الماء يغلي في وعاء تركه في المطبخ . رائحة البصل تملأ يديه . رائحة ثوم يقلى عند الجيران تعبق في الجو . ود لو يصيح ، ينادي ، ولكن أي شيء ينادي . مات أبوه وتركه ، وترك له أشياء أخرى يعانيها أمه تموت أحيانا في لحظات وهو يموت بعدها أياما . الايام طويلة مثل المئذنة ، كان يقارن أحيانا بين طول المئذنة وطول (مدخنة

(معصرة الزيت) ، جفت البئر في « السانية » . لم تعد للبئر فائدة شجرات الزيتون لم تطرح في العام الماضي . النخلات لم يوبرها أحد . بحث كثيرا عمن يقوم بذلك فلم يجد . ذهب الى وبار كان يعرفه ولكنهم قالوا له :

— ذهب الى المدينة .

فسأل :

— ماذا يصنع هناك في المدينة ؟ ليس في المدينة نخل يوبره ؟

أجابوه :

— سيعمل خفيرا .

وتساءل :

— من يوبر النخل بعده ؟

أجابوا :

— لا أحد .

وتذكر الزيتون وتردد قبل أن يسأل ، كأنهم أدركوا ما يدور في ذهنه فقال أحدهم :

— حتى الزيتون لم نجد من يجمعه .

وضحك اخر وقال :

— لم نجد حتى من يجمعه ولو بالنصف .

دخلت ذرات من الغبار الى انفه . كان أحدهم يمسك برقبة حمار . صيحات الاغنام في السوق تملأ الجو ، وفجأة يشمل المكان سكون مفاجيء يقطعه نهيق حمار . وأوراق خضراء تخرج من جيوبهم وتتداولها أيد كثيرة . كان الواقف الى جواره يعاند . ويصر ثم يرفض ما زالت الايدي ممتدة اليه .

صرخ الواقف الى جواره :

— لا أبيعه بهذا الثمن .

والواقف أمامه يقول :

— ثمنه .. والله ثمنه .

اختلطت الكلمات الكثيرة أمام وجهه . لم يعد يتبينها . لم يعرف لم استمر واقفا . لم يدرك كيف أدخلوه في النزاع ، فهز رأسه مرات وابتسم مرة شرد عقله لحظات ولكنه استمر واقفا وبه رغبة في أن يسأل مرة اخرى عن وبار أو رجل يجمع له الزيتون . انها المرة الاولى التي يعرف فيها هذه الاشياء . كان النزاع أمامه حول ثمن كبش . سمع الواقف الى جواره يقول :

— ليس ثمنه ، انظروا اليه اذهب وحاول أن ترفعه عن الارض .. لولا الحاجة ما بعته .

كنت اريده للعيد . اخترته من وسط غنمي كلها . اللحم الضان لا

تجد قطعة منه في السوق .

ويقول الواقف أمامه :

ـ ثمنه .. والله ثمنه .

وتحرك ليرى الكبش .. لكنه أدرك سخف ما سيفعل فماذا يهمه من أمر الكبش . خطواته يحسبها بالخطوة . السوق يبتعد خلف ظهره وصيحات البائع والمشتري تتلاشى بعيدا و ... لم يجد لها في ذهنه بقية .

رائحة التراب اللاهب تحت أشعة الشمس القائظة ترتفع الى قمة رأسه . بيتهم يبدو له من بعيد . أمه ستسأله عن النخل والزيتون . هي حريصة على رزقهم حرص المرحوم والده . سيقول لها بأنه لم يجد وبارا أو غيره . قطعا ستقول كلمات نائحة تنعي والده . وتبدي رغبتها في أن تقوم هي بالعمل . نعم هو يعرف انها تود العمل في «السانية» لن تترك رزقهم وستعيره هو الذي لا يعرف كيف يعمل . ستخرق أذنيه كلمة « رزقهم » . مئات المرات وستتساءل أمه :

ـ سأبحث أنا عمن يخدم « السانية » .

ـ سيجيب هو :

ـ لا ...

ـ كيف ؟. أنترك الرزق ؟

ـ يكفينا راتبي .

ـ والزيت ، والتمر ، ومونة العام ؟

ـ نشتريه من السوق .

ـ وعندنا السانية ؟

ـ ما العمل ؟

ـ ما العمل ؟ لم يقلها والدك ..

سيغضب ويرد في حدة :

ـ كل الناس تشتري من السوق .

حظها ستندب ، وستلعن الايام ، وربما تلعنه . تبكي ، وتنوح ، وتذكر أيام والده .. تذكرها اليوم .. تتذكر أشياء كثيرة عنه .. عن عمله .. سيحتمل .. ويسكت ، لن يقول كلمة .

اصطدمت قدمه بعتبة البيت ، فسمع صوته عاليا ، وصوت أمه مختلطا بالبكاء والنواح . تواجها . أحس بدمه يغلي . وجرت في عروقه دفقات حارة . دق قلبه على عظام صدره .

سأله :

ـ أخي .. ماذا هناك ؟

وتمتم أخوه بعدما هدأ ، ولفت وجهه بعيدا عنه ، وقال في نبرة هادئة :

ـ لا شيء .

ـ لا شيء ؟ كيف ؟ ماذا هناك ؟

ارتفع صوت أخيه قليلا :

ـ قلت لك .. لا شيء .

ـ ارى بعيني .

ـ اعوذ بالله ... قلت لا شيء

ـ سبحان الله ...

وسكت قليلا ، ثم توجه بسؤاله الى امه . كانت دموعها تسيل على خديها في سكون نظراتها متعلقة بوجهه :

ـ امي .. ماذا هناك ؟

لم تقل شيئا . أخذتها شهقة حادة .

رجع الى أخيه يسأله :

ـ ألا تقول ...

مرت فترة حادة اللحظات كالسكين تكاد تقطع عروقه ، زجاج النافذة الصغيرة الوحيدة في الغرفة مشروخ . قطع من دهان الحائط ما زالت تتساقط ، التفت اليه أخوه بغتة ونزل بصوته على رأسه :

قلت لها .. سأبيع حصتي .

عيناه مفتوحتان بلا وميض . لم يأخذ نفسا لفترة طويلة زفر بعدها في حدة :

ـ تبيع حصتك ؟

ـ نعم .

رسم بسمة على شفتيه ، واقترب منه مترددا وقال في صوت خافت :

ـ أرعبتها يا أخي .

فأجابه مسرعا :

ـ أنا أعني ما أقول .

ـ تعني ما تقول . تعنيه .. يعني تعنيه .

ـ قلت سأبيع حصتي .. هذا حقي وتركه لي أبي .

ـ هذا ملكنا .. يا أخي .

ـ سأبيع حصتي .

ما زالت الشمس تحرق الارض في الخارج . رائحة شيء قديم تنبعث من الغرفة فتدخل خياشيمه رطبة باردة . سقطت نظراته على الصندوق الخشبي . قال بعد لحظة :

ـ أتريد أن يضحك منا الناس؟

تساءل أخوه في حدة :

ـ يضحك الناس من أي شيء ؟

ـ مما تود عمله .

ـ عجيبة : أن أبيع حصتي في السانية .. يضحك الناس ؟

نعم .. يجب أن نزيد لا أن نبيع

ـ أما أنا فسأبيع .

في حذائه ثقب جانبي . لم ينم

ـ كنت أفكر . أن أعيد بناء البيت .

ـ فكر كما تريد. أما أنا فسأبيع

ـ لم العجلة ؟

ـ أعطونا ثمنا طيبا .

ـ هل عرضت عليهم ؟

ـ نعم .

ـ اذن .. كنت تفكر في البيع منذ زمن ..

ـ أريد ان أعيش في المدينة .

ـ نعيش كلنا في المدينة ..ولكن لا نبيع ..

ـ أريد النقود .. أريد أن أصير مثل الناس ..

لم يأكل شيئا منذ الامس . مصارينه تتلوى أصوات داخله تصل الى أذنيه .

ـ دعني أفكر .

ـ ماذا يهمني . فكر . أو لاتفكر المدينة تتسع .. الارض لها ثمن .. من كان يظن أن هذه السانية يساومونها بالمتر .

ـ دعني أفكر .

ـ ومن منعك من التفكير ... عجايب ..

وفكر .. لن يكلمه الان .. سيترك الامر لتحله الايام .. ولكن ما الحل ؟ لم تبد أمامه فكرة . ليس في الجو رائحة ثوم ، رائحة البصل لم تعد في يديه ود لو تصيح في وجهه

التقت نظراتهما فجأة وخرج الى أذنيه صوت أخيه :

ـ نريد أن نقسم « السانية » .

والتفت الى أمه ، انها تموت لحظات ، تذكر طول المئذنة التي بناها جارهم للجامع الذي أقامه أبوه . وقارنها بطول مدخنة معصرة الزيت . سمع صوت أخيه هادئا :

ـ لن نختلف فيما بيننا . سيقسم بيننا شيخ الجامع .

جفت البئر في السانية لم تعد للبئر فائدة . شجرات الزيتون لم تطرح في العام الماضي النخلات لم تجد من يوبرها .

ـ التقيت بنسيبنا . طلبت منه الحضور لينوب عن أختنا ساعة القسمة .

الوبار خفير في المدينة ، حتى الزيتون لم يجدوا من « يجمعه » بالمشاركة بالنصف . والكبش ثمنه غال . لكن المشتري يريد شراءه بأي ثمن . وصاحبه يتمنع . ويقسم ويعتز بكبشه . صياح معزة يأتي من داخل البيت . لقد اشتراها لامه منذ شهرين ، فبقيت مع النعجتين الباقيتين منذ مأتم والده. علقت كلمات أخيه برأسه . دار ذهنه حول كل شيء فلم يصل الى نتيجة . هل يترك كل شيء ؟ ليس من فائدة والعجوز قابعة منكسة الرأس ، فانفلت لسانه :

ـ لا أبيعه بهذا الثمن .

وتساءل أخوه :

ـ ما هو ؟

ـ الكبش .

انفتحت عينا أخيه دهشة ، واتسعت شفتاه وملأ الاستغراب المكان .

ـ أي كبش ؟

ـ ألم تقل أنك لن تبيع الكبش بهذا الثمن ؟

نكس رأسه ولم يقل كلمة . قال أخوه :

ـ تعني أنك لن تبيع حصتك ، أنت حر .

لم تسأله أمه عمن سيخدم السانية لم تسأله عن الرزق الذي جمعه والدهم ولكنه هو الذي سأل :

ـ الزيت والتمر ومونة العام ؟

وقهقه أخوه واقترب منه ووضع يده على كتفه واخرج الكلمات بطيئة هادئة رخوة :

ـ كل شيء في السوق . الزيت والتمر والحلوى واللوز .

لم يتساءل مرة أخرى . أمه لم تتساءل عمن في السانية . راتبه يكفيه سكتت أمه ولم تقل كلمة . لم يذكر هو ما كان يتوقعه منها وحنى على أمه بنظراته ، فرفعت رأسها اليه ورأى في عينيها كلمات لا تود قولها فقالها لنفسه « هذا حال الدنيا .. فراق » ارتفع صوته رغما عنه متما ما حدث به نفسه :

ـ اللهم العن الشيطان .

وتمتمت أمه . لم يسمع مما قالته شيئا وتحرك تاركا مكانه وصوت أخيه يتبعه :

ـ نلتقي هنا في المغرب ... سيأتي الشيخ وسيأتي نسيبنا . الشمس لم تغرب . اصطدمت قدمه بأرض الغرفة . لفحته هبة ريح قائظ .. ما زال قدمه يغلي ودقات قلبه في صدره متواترة متتابعة .

التاريخ ينام في خليج العقبة

شعر : عيسى ايوب الباروني

نشرت جريدة الاخاء البغدادية بتاريخ ٣٠ رمضان ١٣٥٣ هـ قصيدة مطولة للشاعر العربي محمود الفلاح تناول فيها مشكلة احتلال خليج العقبة وكذلك الاوضاع في البلاد العربية . وبقدر ما عبر الشاعر في هذه القصيدة عن المرارة والاسى فانه لم ينس ان يستنهض المهمم ، ويحذر العرب من مغبة التقاعس وتوحيد الجهود .

كان ذلك منذ ٤٧ سنة .... فهل تغيرت العقلية العربية وانتبهت الى أخطار الاستعمار والصهيونية التي تتعاظم يوما بعد يوم .؟ . والجواب بالطبع يعرفه كل عربي على طول الساحة العربية ...

وأورد أولا ابياتا قليلة من قصيدة الشاعر محمود الفلاح ، ثم اعقب عليها بأبيات من عندي من نفس القافية والوزن وفي نفس الموضوع تقريبا :

يقول الشاعر

أي عز ظل أو مفخرة ... بقيت بعد انتزاع العقبه

لا يطيب العيش في مملكة ... ادخل العقرب فيها ذنبه

كم انادي القوم من مضجعهم ... وكأني قد انادي خشبه

يا نياما عن مصير العقبه ... سوف تحيون حياة متعبه

أي أمن لقباها والصفا ... بعد درع لهما مغتصبه

خط حيفا أفعوان غادر ... شحنت أم الدواهي أنيبه

سوف تلتف على أعناقنا ... يوم لا يبصر راء منكبه

في فريقين من الناس هوى ... وطن العرب ولاقى كربه

ففريق ميت من ترف ... وفريق ميت بالمسغبه

شقيوا في الدين والدنيا معا ... كل شعب شعب منشعبه

ليس للاوطان من مرتبة ... عند من تاهوا بحب المرتبه

زرعوا الاضغان في تربتها ... واذاقوها صنوف المتربه

فاقمنا حفلة العرس وهل ... تم عرس والحلى منتهبه ؟

كيف حال الكون في يوم به ... تلتقي تينانه والدببه ؟

قلت معقبا

يا أخي محمود لو عشت ترى ... عجبا لكنه ما أعجبه !
سترى العرب شتاتا فرقا ... وجموعا لم تعد مقتربه
ومضت خمسون عاما كلها ... تتوالى في مآس متعبه
علم الاعداء ما زال على ... أرض سينا وخليج العقبة
وعلى القدس على الجولان يعـ ... لوا لواء الذل يا للغلبه !
عجبا خمسون عاما قد مضت ... وبقي العقرب يعلي ذنبه
كل شيء في الدنى منعتق ... ما عدا ارض لنا مغتصبه ..
ان للسادات رأيا خائنا ... فالعدا أضحوا وأمسوا أربه
فهم الاخوان في مذهبه ... بئس من قرر هذا مذهبه ..
فالى اين ترى وجهته ؟ ... والى أين يسوق المركبه ؟
باع دنياه باخراه وفي ... كل عصر مثل من ثعلبه[1]
وغدت مصر به مقهورة ... اصبحت ثكلى به منتحبه
آل صهيون غدوا روادها ... عبثوا في ارضها كالدبيه
(جال اسرائيل في أنحائها) ... في ظلام الليل (يمشي الهيدبه)
جاء بيغن اليها معلنا ... إن مصر اليوم نعم المأدبه
أي سلم أو سلام عندما ... يجثم الاعداء فوق الرقبه ؟
أي سلم يا ترى في بيعه ... للكرامات اباح الحلبه ؟
أي عز أي فخر عندما ... ينحني الظهر لجر العربه ؟
لبني العرب عداء سافرا ... لبني صهيون اهلا مرحبه !
ايه يا ناصر لو عشت ترى ... مصر في ذل وبؤس المتربه
وترى أمجادك البيضا على ... مذبح الغدر عدت منقلبه
فالمروءات بكت من حسرة ... انها تبكي نفوسا خربه
فاسالوا الشاه ومن شاكله ... لوث التاريخ منهم كتبه
فالى اين مصير العملا ؟ ... لم يجد أي عميل مهربه
يا شباب العرب ما بالكم ... قد نسيتم واجبات المقربه
لم تعودوا مثل أجدادكم ... إن ذاك الشبل من كان أبه
فاحملوا السيف وجدوا واجعلوا ... أرضكم في ثورة ملتهبه
لا قيود لا حدود إنما ... من خليج العرب حتى مغربه
ثورة الفاتح هذي حصنكم ... تمحق الضيم وتحمي يعربه
موئل الاحرار كهف الشرفا ... معدن الثوار أرض منجبه

---

(١) قصة ثعلبة معروفة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده رضي الله عنهم .

أمجاد الأمة العربية

شعر : محمد حمدان المصراتي

لأمة يعرب في كل حال ... على أشلائها ألقي سؤالي
يفيض بغيرة الحيران مني ... فأودع في الصحيفة ما بدا لي
فأين اليوم أمجاد تسامت ... وأين اليوم أفذاذ النزال
وأين مفاخر الساحات منا ... وأين الرابضون على التلال
وأين جنودنا في كل ساح ... مقابضهم على حمر النصال
على شفراتها قان يروى ... بما سكبته حبات الرمال
وأين شبابنا المدفوع حبا ... لساح المجد يهتف للنضال
يردد في الترنم - يعربي - ... أبيع النفس في طلب المعالي
وأين نساؤنا زغردن فخراً ... إذا ما ودعت زهو الدلال
وأين فوارس كانت تلبي ... نداء الحق في ساح القتال
وما جدوى الحياة اذا تهاوت ... بنود المجد أهداف الرجال
لقد كانت جنودا لو تراها ... ترى حكم الفناء على الضلال
لقد كانت جنودا لو تراها ... ترى الاخلاص في أسمى مثال
لقد كانت جنودا لو تراها ... بما اكتسبت تتوج بالجلال
لقد كانت جنودا لو تراها ... ترى مجد العروبة في اكتمال
اذا انقضت على الاعداء كانت ... سهاما في المقاتل لا تبالي
بتقوى الله قد دكت حصونا ... وجند الله محمود الخصال
سمت همم الرجال عن الدنايا ... وما انتهجت سبيل الاحتيال
وأذن صادع القرآن فيهم ... ليرشد للمحرم والحلال
فكانوا جنده فتحاً ونشراً ... وكانوا الاهل في حسن الخلال
فإن ذهبوا فقد ذهبت خصال ... لها ذكرى تخلد في المقال

على الأسماع ترنيماً تغني ... على الحانها رقص الغوالي
أضعنا مجد من سبقوا فذقنا ... بديل العز أنواع النكال
وما فخر الجدود لنا بفخر ... اذا عشنا حيارى في الوبال
يفرق جمعنا حب الكراسي ... ليأذن بالنهاية والزوال
وحب الذات نمى الخلف فينا ... وأورثنا الهزائم بالتوالي
زعامات التجزؤ قد أصابت ... أماني أمتي بالاعتلال
وصار العرب أشتاتاً وأمست ... رسوم الحكم ربات الحجال
ولم تبرز عزيمة عود مجد ... سوى حب التسيطر والتعالي

* * *

فها أنا أمتي أبكيك خوفا ... عليك اليوم من سوء المآل
أراك اليوم بالاوضار حبلى ... بما خدعوك من حب الوصال
خضعت اليوم للعشاق ذلا ... وكم قد راودوك بلا منال
عزائمنا الصمودة كيف ولت ... شبيهات الاشم من الجبال
أرى للعاديات قيود ذل ... فهل جبلت على حط الرحال
وما للموريات اليوم قدحا ... وما حك الاصم صدا النعال
وما غارت مغيرات بصبح ... على أوكار ظلم واحتلال
وفي ماضيك كم نقعا أثارت ... تفرق جميع غدر بانفصال
فهل أبكيك أم أبكي زمانا ... أراه اليوم في شبح الخيال
همى الدمع السخي على تراث ... أضاعته الزعامات ـ الموالى ـ
وما طبع البكاء ليعربي ... ولكني بكيت لسوء حالي
وما جدوى الدموع أمام غزو ... أجاز العقر للنهج الحلال

* * *

فما انجبت للأزمان جنداً ... لهم همم الفتوحات الخوالي
سوى من جددوا للعرب عهداً ... أضاء بنوره حلك الليالي
وأيقظ فجرهم في الكون شعبا ... بدا يسمو إلى أوج الكمال
وأشرقت الحقائق باهرات ... بها أفلت أباطيل المحال
نداء الحق دوى في ربانا ... برغم الحقد أو عنف الجدال
ورغم دسائس الاعداء فينا ... فقول الله أسمى من ـ حكى لي ـ
وأسمى مطلب الاسلام عدل ... فلا كسب يقوم على اغتيال
وذا التاريخ يحييها بنودا ... سينهجها من الاجيال تالي
ومن شرف العروبة أن شعبي ... به ولدت صناديد الرجال
فأحييت ما أمات الناس فكراً ... وكم قد غيرت فيه الليالي
فأشرق بعد غربته نصوصا ... كيوم كان في أفق العوالي

ساعة معصوبة العينين

شعر : علي صدقي عبد القادر

وتحلق سمار ، حول القصعة
فلتأكلهم اعواد القصعة ، اشعار (المتنبي)
والجيد المصلوب الدامي ، يشويه طبال القرية
فتغادر احلام الاطفال وسائدهم • من شق الباب
وتسمر وجه الليل • على الاعتاب
فقد الدرب ، الكفين ، وذاكرته

* * *

وقواميس الكلمات الحبلى
تساءل : من يعطي لجنين اسمه ؟؟؟؟
وأظافر سيل وحشي ، اعمى
في جذع النخلة مغروزة
ما الوقت بساعتك المعصوبة عيناها ؟؟؟؟؟
الوقت : توقفت النجمات، بزاوية الشارع
والصبح اضاع اللون • فلم يرسم لوحات نهار آخر
والكلمة اخطأت الافواه ، ولاذت بالاقدام
ويشكك دلال السوق : التفكير حلال ،أو ثلثاه حرام ؟؟؟؟
والبائع يشحذ سكينا ، خبزا ، ولسان غلام

فالصمت هو البئر المهجورة ، والاشجار حروف كلام

* * *

فلنمض لآخر حبة رمل بالارض
نبحث عن طفل ، لون ، حرف ، لم يلحق بشعاع الشمس
عن كلمة حب قالتها الامطار بهمس
كي ينهض من في علبة سردين ، يتحسس نفسه
هل يسكنه انسان القرن العشرين ؟؟؟

* * *

ويخط العراف الرمل
ويقول الرمل : غدا احلامي ، اكبر من كل الاجسام
تضحي الاجسام ، شواظا من ثلج ، من نار
جسدي ثمر ، فليأكله من يعبر صحراء التيه
وكتاب يمشي (لقمان) فيه
والباب المطروق ، المفكوك • بتأذين الفجر
الساري الاول ، يدخل ، يسألني : من اين تجيء الريح ؟؟؟
والثاني شمر كميه كي يجرح عطر الشيح
لكنهما ذهبا ، ذهبا ، للريح •

شروح وهوامش على شعرنا الشعبي

بقلم : صلاح الدين محمد جبريل

يطيب لي قبل الشروع في مقالتي ان أقدم المجال لشعر ألشعب .. للعطاء الذي من أجل استمراره ، من أجل احيائه أكتب أول هذه المقالات أفسح المجال لابيات دونتها من شاعر شعبي .. تحكي عن زمن البندقية والنضال .. وتدعو للوحدة .. أدع الابيات تضطرم .. تتكلم بما فيها من تراث وقيم .. وموقف، وبعد الابيات تأتي ارهاصاتي في تحقيق وشرح ودراسة جوانب من الادب الشعبي ، ثم الشعر الشعبي على وجه الخصوص ، لانه محور دراستي . يقول الشاعر الشعبي(١) :

عظيم شعبنا ناضل سنين عديدة
صد الطغاة وقاس كل هموم
والشعب كله في الجهاد بجيده
وان روح سعيد وان كنه اقتل مرحوم
ثلاثين عام المعركة شديدة
وهي سايرة بينا وبين الروم
وديان جبلنا ع الغابات شهيدة
تراب ليبيا كله اروى بدموم
الواجب علينا نذكروا البعيدة
ويكون صفنا واحد قوي متموم
متوحدين مع قوة ايمان شديدة
على قلب صافي ضد كل خصوم
حريصين ع العز والتوحيدة
الاخلاص والمودة بينا مفهوم

تعريف التراث الشعبي

جاء تعريف كلمة (فولكلور) بالموسوعة العربية الميسرة ، وكان يجب ان يوضع بدل اسم (فولكلور) التسمية العربية المتفق عليها ، وهي : (تراث شعبي) جاء التعريف بالنص الاتي : « بدأ استعمال هذا الاصطلاح في منتصف القرن التاسع عشر في انجلترا ثم شاع استعماله في العالم ، ومعناه الحرفي : حكمة الشعب . ويدل في أوسع معانيه على الروايات الشفوية وفن أي جماعة وخرافتها ويشمل ما يصدر عن الشعب من رقص وأغنيات وحكايات وطب ، وكانت دراسته من أقسام علم الاثار ، ولكن ظهور الرومانسية الاوروبية والروح القومية جعلت الفلكلور دراسة خاصة ، فجمعت الحكايات الشعبية وزادت العناية بأبطالها مثل « أبو زيد » عند العرب « وروبن هود » عند الانجليز و «السيد» عند الاسبان . ويرى علماء الانسان القديم أن الحكايات الشعبية تعبير خيالي لجماعة من الناس عن رغباتها واتجاهاتها وقيمتها الثقافية . ويكاد يوجد بكل أمة اليوم لجنة للمأثورات الشعبية تجمعها وتدرسها . ولمثل هذه الدراسات جمعيات دولية . وتعقد لها مؤتمرات موسمية ، ويزداد الاهتمام بها في البلاد الحديثة الاستقلال كمرحلة من مراحل دراسة التراث وتأكيدها ، وتهتم المنظمات العالمية كاليونسكو بهذا الفرع بشكل خاص . » انتهى تعريف الموسوعة العربية الميسرة .

تعريف الشعر الشعبي

الشعر الشعبي جزء من التراث الشعبي ، أو لون

الادب الشعبي ، لكن بما أن الشعر الشعبي أكثر فنون التراث تداولا وانشاءا ورواية وتأليفا ، فقد أطلق على الجزء – وهو الشعر الشعبي – اسم الكل ، فأصبح الاسم الشائع هو الادب الشعبي ، وفي الدراسة المنهجية أطلق عليه اسم : (التراث الشعبي) ويمكن تحديد مفهوم الشعر الشعبي بالمقولة التي توضح أغراضه ، وتبين اتجاهه وهي (أنه أي – الشعر الشعبي – الادب الذي يعبر عن مشاعر الشعب في آماله ، في آلامه ، في ثورته على الظلم ، في أفراحه بالانتصار ، كما يمثل جوانب تفكير الشعب واتجاهاته السياسية والاجتماعية ، وتذوق الشعراء الشعبيين للجمال كما يرونه ، ويتصور لهم في طبيعة الارض ، وفي المرأة ، وفي عواطف الاسرة وبراءة الاطفال ، والتقاء ذوي الارحام وأنفاس النساء المحبات ، وحب الاهل والوطن ومعانقة منجزات الثورة والفاتح ، والحب الصوفي ، بل والحب المطلق) .

نشأة الشعر الشعبي

كيف نشأ الشعر الشعبي ؟ وكيف تطور حتى وصل الينا بألوانه المعروفة ، وبالشكل الذي نتداوله به الآن ؟ هنالك رأي يقول : أن الشعر الشعبي نشأ مع اللغة الفصحى ، وكان يطاوع ألسنة أفراد الشعب كمادة شعر تعبر عن وجدانهم ، ولان عامة الناس والاميين تحاشوا النظم بالخاص الذي يعتمد على الاعراب والبلاغة ، ولكن هذا الاتجاه قد ظهر في العصور التالية للفتح الاسلامي ، وهناك رأي يقول : بأن نشوء الشعر جاء بالاختلاط العربي مع الاعاجم ،وكما نلاحظ اليوم نشوء لغات ، أو كما يعرفونها (لهجات) خالفت لغة السلف حتى أصبح في كل بلد لهجة تتحدث بها . ولكن هذا الرأي لا أراه ينطبق على القبائل الليبية التي تعيش في بوادي الجماهيرية بعيدة عن السواحل وعن الاعاجم والاجانب ، ومع ذلك ففيها شعراء شعبيون لهم قصائد كثيرة . وكان الاختلاف في اللهجات يؤدي الى صعوبة تدوين التراث الشعبي وحفظه ، فالادب الشعبي ينطق في مصر بأسلوب يختلف عما ينطق به في ليبيا أو في تونس ، وان كانت الاختلافات طفيفة ، ومع ذلك زالت أكثرها ، وانفتحت الشعوب بعضها على بعض وتواصلت ثقافيا ، وأصبحت اللهجات العربية مفهومة لدى جميع شعوبها الا بعضا من المفردات القديمة أو الخاصة بقبائل معينة . وقد تحاشى المؤرخون القدماء البحث في الادب الشعبي وتدوينه بسبب مشقة البحث وصعوبات التدوين .

وقد ذكر المستشرق (دلاندنبرغ) في رسالة له بعنوان : « العربية ولهجاتها » أن هناك علاقة بين اللغة العربية الفصحى والعامية ، ولكن الشيخ ابراهيم اليازجي كتب في مجلة (البيان) سنة ١٨٩٨م مانصه : « أما القول بأن عرب الجاهلية كانت لهم لغتان فصيحة وعامية ، فمما لم يرد به نقل ولا دليل عليه ... » الى ان يقول : « ان اللغة العامية قد بدأت بعد الاسلام بسنين قلائل أي منذ عهد الفتح » ونجد أن الكاتب الفرنسي (ويل) قال في هذا الموضوع « لا يجوز القول أنه في عصور العرب المتطاولة لم تكن أغان شعبية ، ولا كانت قصائد منظومة في لغة العامة . ولقد تغنى المسلمون في العام الخامس للهجرة وهم يحتفرون خندقا حول المدينة بأغنية ليست على الاعراب » . ويظهر أن (ويل) يلمح هنا الى الرجز الذي أورده المقريزي في « امتاع الاسماع » وهو :

بسم الله وبيه بدينا
ولو عبدنا غيره شقينا

حبذا ربا وحبذا دينا

والرجز من قول عبد الله بن رواحة الانصاري حسبما ورد في الصحاح . ولكني لا أوافق المستشرقين على أن هذا الاستشهاد يدل على وجود العامية بجانب الفصحى في زمن الصحابة ، واذا وجدت فهي شذرات، وليست بالقدر الكبير الذي يسمح بالاهتمام بها وانشادها في أسواق الشعر والخطابة مثل عكاظ ومجنة في الحجاز ، ثم المربد في العراق . ويرى بعض أدباء العرب أن الشعر الشعبي أقدم من العهد الاسلامي ، ومنهم (سليمان البستاني) صاحب الالياذة (معربها) ان أردنا الدقة ، وهو يعتقد أن الشعر العامي كان معاصرا للشعر الجاهلي .

وأذكر في هذا المجال كمثال على التقارب والانسجام بين اللغة العربية وبين لهجاتها الابيات الخمسة الاتية لشاعر شعبي عراقي اسمه (محسن الهزاني) الابيات من نوع يسمونه في العراق (السامري) لان الناس يغنونه في مجالس السمر على آلة (الرباب) والابيات منقولة من كتاب (الشعر عند البدو) للاستاذ شفيق الكمالي صفحة ٩٧ :

أشتكي لك من هوى نجل العيون
يوسفيات المها حمر الشفاة
سالبا للملا تلع الرقاب
خردات بالبيوت مخفرات

قاصرات الطرف عنهن البدور
لو تبين جنح ليل كاشفات
عنبريات الروايح بالكمال
في جمال قائمات قاعدات
عذبني بالمماطل والوعود
كاذبات ماهرات باطلات

وبغض النظر عن مفهوم الابيات ومضمونها الغزلي فانها تحقق صلة التقارب ، وتجمع بين رشاقة اللغة الام – وبين سهولة اللهجة .

وعندما نتتبع قيمة الشعر الشعبي وأولويته نرى (ابن خلدون) يقول : انه كلام جيد ، ولكن هذا الحكم لا يخرج عن مجرد التقدير ، ولا يرتكز على الاسناد . اما من حيث النشأة الاولى فيعتقد بعض الباحثين أن الشعر الشعبي نشأ بنشوء الزجل بعد شيوع فن الموشحات في الاندلس ، ثم شاع الزجل في المغرب ، وكان أشهر الزجالين فيه (أبو الحسن سهل بن مالك) وكان في غرناطة ثم الوزير (لسان الدين بن الخطيب) .

وكانت الطريقة الزجلية في الاندلس في زمن (لسان الدين) شعرا شعبيا يتناوله العامة بلهجتهم الخاصة ، ينظمون به في البحور الستة عشر (بحور الخليل) ويسمونه الشعر الزجلي . والزجل في اللغة هو : اللعب والتطريب ، ونوع من كلام منظوم على غير اللغة الفصحى ، كما أنه ضرب من أوزان الشعر والجمع أزجال . لكن الزجل في المنزلة والجودة يعتبر دون الشعر الشعبي الابداعي والقصائد البدوية الشعبية ذات القيم والمعاناة والمعاني والمفاهيم البعيدة والرؤى والخيال القوي .

وقيل ان الزجل ظهر في الاندلس في القرن العاشر الميلادي . وقال ابن رشد في تلخيص كتاب (أرسطو) في الشعر : « ان الزجل من استنباط أهل الاندلس » وقال ما نصه : « النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل الجزيرة » . ويعني بها الجزيرة الخضراء وهي الاندلس .

ونلاحظ أن ابن رشد لم يفرق بين الموشحات وبين الازجال ، لان الازجال وجه آخر من وجوه اللغة المنبثقة من اللهجة ، وتعتمد على أسلوبها ، بينما الموشحات تؤلف بلغة فصحى وعلى قواعد النحو والاعراب .

وربما سبق ظهور الزجل (الموشح) وعرفه الناس في بلاد العرب قبل الموشح ، وتغنوا به قبل أن يتغنوا بالموشحات ، وأوضح دليل على ما أقول هم الشعراء الشعبيون في ليبيا والنا طقون بالشعر الشعبي ذي الرؤى والهدف البعيد ، وبالزجل المطرب أيضا وهم في الوقت نفسه لا يعرفون الموشحات ولا يسمعون بها قط ... وهي التي تعتمد في أسلوبها على اللغة الفصحى .

وهناك جماعة من المؤلفين والكتاب وعلى رأسهم (ابن خلدون) و (ابن الاثير) يقولون : ان الموشح قد تحدر من الشعراء باختيار معين ، وهناك جماعة منهم المستشرق « نيكلسن » يقولون : ان الموشح قوام الزجل ، ولد معه في مهد واحد ، وأعتقد ان هذا الرأي لا ينطبق الا على ظهور الزجل في الاندلس حيث ظهر الموشح .

وقال « المحبي » في (خلاصة الاثر) : « ان أول من اخترع الزجل رجل اسمه راشد ، وقيل هو أبو بكر بن قزمان » ويقول « المقري » في (نفح الطيب) : « وكان أهل الاندلس يقولون « ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء » وان أول زجل عمل في الدنيا – كما يقول أبو علي البستي – في (نفح الطيب) هو :

بالله يا طير امدلل
مربى وسط القفار
اياك اتجدد عادة
ترمى حجيرة في داري

وهذا الزجل يجري نظمه على اتساق النغم الموسيقي الذي يغني به ، وليس على الوزن الشعري ، وكذلك الحال في كلمات الاغاني المكتوبة والمؤلفة باللهجات العربية والتي تقدم من خلال الاذاعات . ونلاحظ أن المستشرق (سكيابارتللي) يجمع الزجل على أزجال كما في القاموس . أما المستشرق الاسباني الاسباني (باردودي ألكلا) فيجمعه على أزجل . ويقول المستشرق (ويل : أن الزجل لم يشتهر ولم يعرف له اسم بذلك ، ولم ينتشر في البلاد العربية ومعه الموشح الا منذ القرن الثالث للهجرة . ويقال للذي يصنع الزجل في الجماهيرية (قوال) وكذلك يسمونه في جبل لبنان . والقوال في معجم اللغة يفسر بأنه المغني ، والتسمية تأتي من طبيعة الموضوع فقد كان الزجل العربي في فترات مضت – وخاصة الزجل القديم – تعبيرا عن الغزل وحكايا العشاق وما هو في سبيل منه . يقول الشاعر الشعبي اللبناني كمثل

على الزجل القديم في ديوانه (ديوان رشيد نخلة) طبع ببيروت (لبنان) هذا البيت في مقدمته :

ياكحلة العينين تعي حدي اقعدي
ع كل رفة جفن بدبحلك جدي!

وقال زجال لبناني آخر :

يا اسمر كويت القلب في نار الغرام
خليت جسمي جلد من فوق العظام

وفي لبنان يسمون أغاني الحب والغزل باسم (المعنى) ، وتعني في اللغة المتعب المضنى ، وهو اسم يدل على قائله لما يجده من تباريح الشوق وعناء الصبر على هجر الحبيب وكتمان الهوى . ويقول (سليمان البستاني) معرب الياذة هوميروس نظما : ان الموشح الاندلسي قد اخترعه « مقدم بن معافر » شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث للهجرة . كما يقول في مقدمة الالياذة أن (المواليا) لون من ألوان الزجل ، وفيه أقوال أشهرها أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة بأن لا يرثيهم أحد بشعر لكن احدى جواريهم رثت جعفرا بشعر غير معرب حتى لا يعد شعرا ، وجعلت تقول بعد كل شطر « يا مواليا » ويمكن بالاستناد الى هذه الرواية التاريخية أن أقول بأن اللون الشعبي العربي الذي يسمونه (الموال) انبثق من لفظة (مواليا) . والقارىء لتاريخ الزجل يرى أنه تطور ، فمثلا أهل المغرب استحدثوا فنا شعريا سموه (عروض البلد) وجعلوا هذا الفن يسير على قواعد الاعراب ، ولكنهم بعد فترة أخرجوه من الاعراب لحاجتهم الى طرائق مفصلة في التعبير عن فنون شعبية ، ثم انتشر عروض البلد بعد خروجه عن النحو والاعراب من المغرب ، وساح في شمال افريقيا حتى وصل الى ليبيا ثم مصر ، فالعراق ، فكانت بداية لانتشار الادب الشعبي العربي كما انبثقت من الموشح الاندلسي فروع عديدة مثل عروض البلد المذكورة والمزدوج والدوبيت والموال والمألوف وغيرها من الفنون .

الشعر الشعبي ثورة على الرتابة والقوالب المصبوبة

الشعر الشعبي في الجماهيرية بالذات هو ثورة على رتابة الحياة في كثير من جوانبها وفي تحولات المجتمع .. هو ثورة على نواح من الحياة ، ظل يعيشها الناس في حدود محددة .. ويعبرون عنها بأسلوب أعد سلفا في قوالب متفق عليها .. في نمط رتيب .. وربما لم يتيسر لشعر العربية الفصحى في بعض الاحيان أن يتمثل جميع هذه الحركات الشعبية بكل الدقائق والتفاصيل . والشعر الشعبي يغذي مشاعر المجموعات الامية ويعايش جميع شرائح الشعب ، وهو أكثر التصاقا بمشكلات الشعب اليومية ، وتقبل عليه طبقات من الشعب خاصة تلك التي لا تمكنها ظروفها من الاطلاع على الشعر العربي الفصيح والمعاصر .

والشعراء الشعبيون يحكون الاغراض الشعرية في قصائدهم بلهجة دارجة ومفهومة لدى الاغلبية ومتمرسة على مواجهة أبناء الشعب بالمضمون المطرب ... والتعبير المبتدع والمعبر عن عقلية ابن الشعب وعاطفته الواضحة ، وكثير من القصائد الشعبية تقترب في ألفاظها من الشعر الفصيح ، وتكون تمازجا وتماوجا بين شعر الفصحى والعامية ، وتحمل كثيرا من مفردات اللغة العربية الجزلة والقديمة والبليغة ، وتحافظ عليها خاصة القصائد ذات الصبغة البدوية والصحراوية وهذه مقولة طرحتها لتفهم منها مسار الشعر الشعبي واتجاهه .

الابتذال والترخص في بعض ألوان الشعر الشعبي

على أننا نلاحظ تعرض ألوان وأنواع كثيرة من الشعر الشعبي العربي وخاصة كلمات الاغاني للابتذال في تأليفها والتهافت والتكرار في ألفاظها ومعانيها ، بحيث أصبح كثير من الالوان الغنائية مملولا وسطحيا للسبب الذي أشرت اليه ، وأصبح كثير من الاغاني خاويا من المضامين الجيدة بحيث أصبح لزاما على مؤلفي كلمات الاغاني الشعبية أن يبحثوا عن عوالم ووسائط جديدة يستقون منها ألفاظهم وكلماتهم الجديدة ، ويجب أن يتجهوا الى الاقتباس والاستفادة من قصائد التراث الشعبي .. والملاحم الشعبية وأغاني الجهاد .. والقصائد النابعة من القبائل البدوية حتى يضفوا على أغانيهم جدة وقوة وجزالة وطرافة . ومن أسرار نجاح القصائد الشعبية انبثاقها من الوجدان الشعبي .. ومن معاناة الشاعر الصادقة في بيئته وفي تذوقه للحياة .. وانصهاره في الشعور الانساني العميق ، ومراعاته للاصالة في التعبير .. ولو كان ذلك على حساب الكم في الانتاج .

احياء التراث الشعبي لانه من روح الشعب

ومن وجوه العرفان أن نقول : أن المنزلة الرفيعة للغة الفصحى لاتمنع من الاهتمام بالادب الشعبي
للغة الفصحى لا تمنع من الاهتمام بالادب الشعبي
وتذوقه وتقديمه والاستفادة من نصوصه ، ومن شواهده الشعرية ، ودراسة وثائقه الدالة على نمو وحياة المجتمع العربي والبدوي بوجه خاص والتاريخ النضالي . كما أننا يجب الا نثق في دراسات جميع المستشرقين ثقة تامة عمياء لان بعضا من هذه الدراسات كان عرضة للخطأ والتشويه والتضليل أيضا . ولا ريب أن لكل شعب عربي أدبا وزجلا ومنطوق لفظ يتصف به دون غيره ، ويرجع ذلك الى اختلاف بسيط في ظروف المعيشة ومزايا الاقليم والبيئة الاجتماعية والتكوين القبلي والحضارة . الا أن ذلك لا يشكل حاجزا أو عاملا من عوامل الفرقة أو عدم التفاهم بين ابناء الشعب العربي . ومن الملاحظ جهل كثير من أدباء العرب لانواع التراث في البلاد العربية وعدم اعترافهم بقيمته وعطائه ، فقد قرأت منذ سنين للاديب (سعيد عقل) حديثا له عن الزجل اللبناني قال فيه : « يصعب كثيرا – أيها السادة – أن تجدوا زجلا في غير لبنان من أقطار الشرق » لقد تجاهل الاستاذ سعيد عقل فطيرة الشعب العربي وغريزته الشعرية منذ زمن الانبياء ، بل وما قبلهم ، فلا تصل بالشعب العربي الفطرة الى نهاية يقف عندها عناؤه وعطاؤه الشعري . وقد جاء في حديث مسلم من حديث رافع بن خديج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » .

« لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » .
فالشاعر الشعبي ينشد شعره في بوادي العروبة ، فكما ينشد الشعر في بادية الخليج العربي ينشده في بادية الشام ، وينشده في بادية الاردن ، كما يترنم به في بوادي الجماهيرية ... خاصة في روابي الجبل الاخضر وفي صحراء سرت وعلى أديم صعيد مصر وعبر ريفها ، وفي جبال الجزائر .. والمغرب .. حتى يحتوي أجزاء الوطن العربي .

ولهذا فقد أخطأ سعيد عقل في رأيه ، وتعصب للبنان ، وكان يجب عليه أن يستطلع آداب الشعب العربي الشعبية وفنونها في غير لبنان قبل أن يصدر حكمه
العربي الشعبية وفنونها في غير لبنان قبل أن يصدر

استدراك مكانة اللغة الفصحى

قبل أن أستمر في الحديث عن قيمة التراث الشعبي وفروعه لا أحب أن أتهم من انصار اللغة الفصحى وحدها بأنني أحبذ الابداع الادبي باللهجة العربية وحدها ، وان كانت كثيرا ما تعبر بتفصيل عن مشاعر الشعب – فليس ما أريده تفضيل اللهجة على الفصحى . ان أدب اللغة الفصحى له شأنه ومنزلته الرفيعة بين جميع لغات العالم ، ويكفي اللغة العربية تشريفا وقدرا انها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، ولكن كما ذكرت في احياء التراث أن منزلة الفصحى لاتمنع الاهتمام بالادب الشعبي وفعاليته واحلاله من ادبنا وتراثنا منزلة الاعتزاز ، لانه جزء من كياننا الوطني والقومي .

تصنيف التراث الشعبي

(١) النثر : ويشتمل على كثير من الانواع من حيث هو لغة ، مع ملاحظة الفنون الحركية كالرقصات الشعبية والوطنية المعبرة عن تطلعات الشعب وانتصاره وثورته ، والفنون المادية كالملابس الوطنية وأدوات الزينة وأنواع الادوية ، والادوات الاثرية ، فالنثر يشتمل على الفنون الاتية :

١ – الفنون النثرية :

● القصص والحكايات الشعبية مثل سيرة أبى زيد الهلالي والزير سالم ورأس الغول ، وقصص الحروب ، وقصص القبائل مثل تجريدة(١) حبيب ، وبعض الاساطير والقصص الخيالية مثل ألف ليلة وليلة .

● الامثال الشعبية والاقوال المأثورة .

● الالغاز والاحاجي والرقى والاسجاع يداوي بها المرضى من تعب أعصاب ، أو سحر عمل لهم . والسحر عمل يجوز كما جاء في سورة البقرة الاية :

« واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ... » (الخ الاية) .

● المعتقدات الشعبية في كرامة أولياء الله الصالحين ، وفي الاستعانة بالارواح الصالحة ، من الجن في دفع الشر والمرض المسلط من الساحر مثل (كتاب الدمياطي) وعزائم (ابن الحاج التلمساني) ..

● الحكمة الشعبية وأقصد بها الطب الشعبي كطرق التمريس والمداواة بالفأل وتعليق الخرزات والتداوي بالاعشاب الطبية التي يقال لها : (أفواه الغابة) .

● الفكاهات والنوادر مثل قصص جحا وقصص (أبو العبر) ونوادر الحيوان .

● ما يروى عن العادات الاجتماعية مثل : عادات العرس وفنونه من أهازيج وقيم وغزل ثم الزار كما يسمى في مصر بهذا الاسم ، وفي ليبيا كان يسمى (البوري) أو (الدنقة) وحفل ختان الاطفال ، وما يقال في زيارة الاضرحة والتماس البركة من ساكنيها وغير ذلك كثير .

٢ ـ الفنون الشعرية :

● ويشتمل على الفنون الاتية :

● الملاحم الشعرية القديمة مثل قصائد الهلالية، وقصائد المعارك بين المجاهدين والطليان ، ومعارك البطولة والتصدي للاستعمار الايطالي وتحطيمه على السواحل الليبية تحطيما كاملا في كثير من المعارك التي سجلها الشعر الشعبي ، وغيرها من القصائد الطوال ، وهي تشمل جميع أغراض الشعر . وهذه القصائد الشعرية تصف بطولة الانسان الليبي ، وثورة الشعب الليبي ، ورفضه هيمنة الاستعمار الايطالي .

● القصائد التراثية التي تصف بعض المواقف الانسانية ونطق الشيوخ بالحكمة وبطولة الفرسان وكرم العرب وشجاعتهم ووفاءهم رغم طول الاجل وعزة النفس واباء الضيم وسائر المكارم الاخلاقية المتأصلة في الشعب الليبي . ويحدد شيوخ العرب في بادية ليبيا جودة الشعر الشعبي ، ويعد دون أغراضه بقولهم (يربط الشعر بأربعة : الاجواد ، والخيل ، والابل ، والنساء) وصنعوا لذلك رجزا يقول :

الابل والعنس والخيل ونوم السيل
بلاهن نوم العين قليل

والمتأمل في هذه المأثورة يتضح له صدقها ، فان الاغراض الاربعة المذكورة كانت في الماضي تعتبر لكثير من القصائد الشعبية والبدوية يستهل بها الشعراء شعرهم .

● أغاني الرعاة : ذات الصبغة البدوية ، والمعروفة بأغاني علم البادية ، وصوب خليل ، وما يتبعها من معان كالعجازة والقذارة والخدعة والحض وخلافه . وهناك من الاغاني البدوية (العلم) ما يمتلىء بالعواطف الطيبة والتعبير الصادق عن مجتمع البادية وارتباطاته في وقت مضى ويصف كثيرا من العادات والتقاليدالتي ضاع كثير منها بتحول البادية الى مناطق ريفية متحضرة ، وبعضها الى مدن صغيرة ، بالاضافة الى الهجرة من الريف والبادية الى المدن .

---

(١) الشاعر الشعبي : هو الزبير بفداد جبريل من مدينةدرنة بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية . عاصر العهد الايطالي ولا يزال حيا وقد تقدمت به السن . له قصائدعديدة عن الثورة وفي الغزل والنسائيات وفي الوصف ، وعنالبادية، ونقد المجتمع وأبياته المشار اليها اخترتها من قصيدة له .

(١) انظر كتاب تجريدة حبيب مع كتاب خليل للمؤلف صاحب المقالة .

دراسة نقدية لأدب الفقيه

بقلم : يوسف القويري

« بالنسبة للاثر الادبي لاتمثل المجاملة شيئا مفيدا على الاطلاق ، بل هي تطمسه ، وتلحق الضرر بالفنان الذي ابتكره . »

كان السؤال الاول الذي واجهني وأنا أفحص مجموعة يوسف الشريف[1] هو : أين الاديب في هذه المجموعة ؟ بمعنى : الى أي حد استطاع الكاتب أن يتغلب على خشونة اللغة وبرودتها وتراكيبها الشائعة المتداولة وان يصنع – بالتالي – نثرا تتوفر فيه الحساسية ، والحرارة ، والروح ، والابتكار .

وهذه – فيما أظن – نقطة بالغة الاهمية ، بل هي الفاصل الحقيقي بين الفن الادبي ، والكتابة العادية .

والمثال على ذلك ان اللغة قد تكون طيعة ، سهلة الاستدعاء عند كاتب عادي لايمتلك موهبة الخلق والابداع وليكن هذا الكاتب باحثا اجتماعيا أو اقتصاديا يستطيع أن ينجز عشرات الصفحات العميقة ، الرصينة ، المفيدة .. قد تكون اللغة عند هذا الكاتب متدفقة تتوارد كلماتها في ذهنه بلا عناء ، ومع ذلك فان هذه اللغة تظل مفتقرة الى العنصر الغامض ، المؤثر ، الذي يميز نثر الاديب .

ولو افترضنا أن هذا الباحث الاجتماعي أو الاقتصادي ينطوي في داخله على استعداد الفنان وروحه ومزاجه ، أي على ملكة التعبير الادبي ، لرأينا أن النثر بين يديه يكتسب خواصا جديدة ويصبح قادرا – حينئذ – على أن يحركنا ، ويثير عواطفنا المختلفة رغم أن المادة التي يعالجها الباحث تقاوم بطبيعتها هذه النزعة الوجدانية .

وبذلك يكون النثر مقياسا دقيقا يساعدنا على معرفة ما اذا كان هناك أديب وراء الكلمات ، أم لا .

والحقيقة انني استعمل لفظة (النثر) موسعا حدود معناها الى درجة قد لاتحتملها طبيعة الكلمة ، فأنا أعني بها القدرة على نقل الانفعال بواسطة الكلمات وهي أدوات عصية لابد أن يعاركها الكاتب طويلا حتى يخضعها لاحساسه ، وأعني بها أيضا طريقة الاداء أو النسج أو العرض ، وكيفية بناء الجمل والمواقف .

فكيف (ينثر) يوسف الشريف مادته القصصية ؟ هاهي ثلاث فقرات ، من ثلاث قصص مختلفة ..

الفقرة الاولى :

« أن تحدث قصة حب في شارعنا فهذا شيء طبيعي ومألوف .. بل ويمكن القول انه ضروري ، وان يحب منصور فهذا أيضا ليس بجريمة يمكن أن يعاقب عليها ، ولكن اذا عرفنا من يحب منصور فسنجد ان الامر ليس طبيعيا » . (حكاية عن الحب – ص ١٣) .

الفقرة الثانية :

« غريب ذلك الحادث الذي وقع في شارعنا منذ اسبوع وسيظل لايام وشهور ، بل لسنوات مقبلة ، قصة تروى بشغف في مجالس السمار » . الرحيل – ص ٣١ .

الفقرة الثالثة :

لم يعتقد أحد أن ما حدث في الشارع يمكن أن يحدث .. فالمعروف عنه شدة محافظته على التقاليد .. هذا رغم وجوده قرب المدينة .. فالاسر العريقة

وقفت سدا منيعا أمام بعض المحاولات التي كادت تغير فيه الحياة .. مثال ذلك عندما دخلت فاطمة مهنة التمريض فلاحقتها الالسن بما لايمكن كتابته ، حتى أدى بها الامر الى هجر الشارع،ولم يعرف أحدمصيرها حتى الان » . حكاية قديمة – ص ٤٧ .

وجميع هذه الفقرات هي استهلال أو بداية للقصص الثلاث ، والمهم أن هذا الاستهلال أو هذه البداية شائعة بالنسبة لمعظم قصص المجموعة ، وقد اخترتها فقط كمثال لتوضيح الشكل الفني الذي يميل اليه الكاتب ويعشقه . وأعني به : السرد .

والسرد جزء من العمل الادبي ، فثمة مواقف وأحداث تتطلب من الاديب أن يختصرها ويضغطها ولا يقدمها للقارىء في حالة (حضورها) ، وحالة الحضور هي أن ترى الشخص في القصة (متحركا) أمامك يشم ، ويتذوق ، ويتكلم ، ويرفض ، ويرقد ، ويهز رأسه أو قدميه ، وبعبارة أخرى ، فان لحظة الحضور هي غياب الكاتب عن التدخل في النص الادبي تدخلا مباشرا .

ولكن الحاح السرد ، أو ضرورته ، تكون أكثر بروزا في العمل الروائي ، فهو – أي العمل الروائي – الا انه يعالج حياة كاملة لشخص أو أشخاص بكل ماتحتويه هذه الحياة من ملايين اللحظات الهامة مضطر – لاسباب تكنيكية وجمالية – أن ينأى عن التصوير والتشريح واعطاء الحركة الكاملة للمشهد أو اللحظة ، ولهذا يلجأ الى ضغط واختصار اللحظات الاقل أهمية ، والى الاعتماد على السرد من خلال ذاكرة الشخصية التي يعرضها ، واحيانا يلجأ الى السرد المباشر دون أن يخل ذلك بسياق روايته أو يضعفه طالما كان ماهرا في فهم هذه النقطة الهامة : كيف يسرد ، ومتى يتوقف عن السرد ؟!

الا ان السرد ، بالنسبة للقصة القصيرة بالذات لايبدو عنصرا ملحا بأي حال . فالقصة القصيرة لاتواجه مسؤولية حياة كاملة ، بل هي تواجه مسؤولية لحظة واحدة أو عدة لحظات متلاحقة في حياة شخص أو أشخاص ، والمطلوب منها أن تجسد هذه اللحظة أو اللحظات المتلاحقة بأكبر قدر من التركيز ، والتوتر ، والقدرة على جعل الحدث في حضور وحركة .

وهذا لاينفي – بالطبع – أن السرد يفرض نفسه في بعض الاحايين على القصة القصيرة كمطلب ضروري، الا أن هذه « الاحايين » قليلة جدا ، بل نادرة .

وقد ارتكزت القصة العربية في مطلع نهضتها على السرد ، وكان ذلك لسببين : أولا ، لاختلاط معنى الحكاية بها . وثانيا ، لحداثة أو جدة القصة القصيرة – كفن – على الادب العربي .

واستهلال يوسف الشريف ليس في حقيقة الامر – منحصرا في كونه بداية لقصصه،بل ان استهلاله السردي هذا يسري على (جسم) معظم قصص المجموعة أي انه ليس استهلالا بل شكلا عاما للمعالجة الادبية .

ولكن ينبغي أن أستدرك مشيرا الى أن هذا الشكل العام يزاحمه شكل آخر أنضج – وسوف أشير اليه – الا أنه شكل مخنوق ، يتنفس بصعوبة ، لان الشريف لا يمنحه كثيرا من اهتمامه وجهده ، ولعل هذا يرجع الى أن مجموعة (الجدار) لاتمثل تمثيلا كافيا المستوى الراهن لمؤلفها ، فهو – مثلا – في قصص أخرى لم تنشر ضمن هذا الكتاب يلوح وكأنه قد أعطى لذلك الشكل المخنوق اهتماما أكبر .

وعلى أي حال ، وحتى لاننسى ، فأنا أعني بهذا الشكل المخنوق : التصوير الفني ، التجسيد ، حالة الحضور .. وكلها دلالات مترادفة ومتقاربة .
والآن لماذا اختار يوسف الشريف هذا الشكل وهو يعرف مزالقه أو مصاعبه .

يقولون ان الشباب ملتهب الطموح، وهذا صحيح، وكان من البديهي – والامر كذلك – أن يلجأ يوسف الشريف الى الاشكال الفنية الحديثة الصعبة ، وأن يطرقها ، وأن يحاولها ، على الاقل – ان لم يكن بدافع الوعي بها – فبدافع الرفض التقليدي الذي يتخذه الشباب بصدد الاشكال القديمة ، سواء كان ذلك في الفن أو في المجتمع !!

فلماذا لم يفعل ذلك ؟!

ان الاجابة على هذا السؤال هي التي وضعت يدي على الاجابة الاخرى لاول سؤال طرحته : أين هو الاديب في هذه المجموعة ؟

فمؤلف (الجدار) يسرد ، ويجد نفسه مسوقا لان يسرد لان ملكة التعبير عنده تتخذ مجرى معينا ، وهو الحكاية .

ولست أقصد بـ (الحكاية) أنه يكتب حكايات – وهذا معنى يتبادر الى الذهن على الفور – ولكني أقصد أن ملكة التعبير لديه هي – بالضبط – الرغبة في أن يحكي .. صار .. وصار .. وصار وكذا .. وكذا ..

وكذا .. ورأيت .. وسمعت .. وحدث .. ولم يحدث والمعروف أن الذي يحكي يتملكه نوع من الايقاع الخفي، وأنه يكون مذهولا عن نفسه ، وعن الوعي الكامل بالناس الذين يصغون له ، فحكايته تأسره وتسيطر عليه . والقصاص ، أو فلنقل الاديب هو – على وجه العموم مع مراعاة الاستثناء – رجل لايجيد الحديث العادي اجادة تامة ، هو رجل لايعرف كيف يحكي للاخرين بتلك النشوة المألوفة ، وان كان يعرف كيف يناقش جيدا ، ولهذا فان الكلمات تشكل – بالنسبة له – الجسر الوحيد الذي يربطه عميقا بالاخرين وبالعالم ، الا أن الاديب يطور هذه الرغبة الاولية – أي رغبته في أن يحكي للاخرين ما شاهده وما أحسه الى مستويات جديدة ، عميقة ، باقية .

ذلك اذن هو السبب في أن يوسف الشريف انصاع الى الشكل السردي وذلك اذن هو الاديب في المجموعة. فخلف النثر ايقاع لايكاد يسمع ، وخلف النثر رغبة مكبوتة في ان يحكي الانسان ، ويشارك ، ويقول .

بيد أن هذا الميل الخاص للكاتب في أن يحكي – على مستوى اللغة المكتوبة – بنفس الايقاع الاجتماعي المعتاد – أي ايقاع (الهدرزة)(٢) – اصطدم داخل نفسه بالتكوين الفني أو الوعي الفني الذي استمده من مطالعة الاعمال القصصية في الشرق والغرب .

ولهذا فهو بقدر ما يقترب من السرد كطريقة أداء تتجاوب معها روحه ، بقدر ما يبتعد عنها باعتبارها نقصا فنيا خطيرا ، والمجموعة تعكس هذا التأرجح والصراع ..

فالقصة عنده تسترسل على مستوى واحد هو السرد ، وأحيانا نجد أنه يلجأ فجأة الى التصوير ، وأحيانا أخرى نجد أن التصوير وتململ الشكل الناضج المخنوق ، يتضح من هذه الفقرة :

« انتهى الشيخ بلعيد من ركعاته الاربع في سرعة.. وليس حذاءه .. ولف جسمه الضئيل في حوليه الابيض الرقيق .. وبدأت أصابع يديه البيضاء تطارد حبات المسبحة .. في حركة ليست طبيعية .. بينما شفتيه « ! » تنطقان مع كل حبة بأشياء لا يعرفها الا هو . » الشيء الخفي – ص ٥٥ .

وفقرة أخرى :

« تحرك عطية في جلسته ثم أخرج علبة البافرة وعمل لنفسه سيجارة وعندما شعر بدخانها يصل الى رئتيه أراح جسمه على الحائط ثم عبر عن ارتياحه فقال من خلال انفه : ياسلام .. » الغريب – ص٧٩.

والتصوير في الفقرتين السابقتين لايصل الى مداه ، ولكنه في الفقرة القادمة – وهي الفقرة الوحيدة في كل المجموعة التي استوقفتني طويلا – يبلغ التصوير مداه الحقيقي لانه يصهر اللقطة الفوتوغرافية للشخصية مع أعماقها صهرا فنيا مؤثراً ، ولعل مرد ذلك الى أن القصة التي اقتطعت منها هذه الفقرة هي مخزون نفسي قديم وعميق في وجدان الكاتب ، مخزون استطاع أن ينقل المؤلف نقلة مفاجئة بعيدا عن الروح السائدة في مجموعته .

الفقرة :

« .. وسألتني في صوت متردد خافت ، مفتاح.. مساء الخير .. بوك مريض ؟ وأجبتها بايماءة من رأسي .. وتمنيت لو أقف معها طويلا احكي لها عن الخواطر الخرساء التي كانت تأكل اعصابي .. واندفعت أشق ظلمة الليل وقدماي تطاردان الطريق الذي كان يخيل إلي أنه لن ينتهي ابداً » . سويلمه – ص ١٢٦ .

وبعد ذلك ، فقد أدى الالتزام بالسرد – الذي جاء بسبب الميل الخاص لملكة التعبير – الى ازدحام القصص بتفاصيل كثيرة ، زائدة ، لا تخدم نمو الاحداث ، ولا تعبىء القارىء وتشحنه في اتجاه محدد وواضح ..

كما أن السرد دفع بالمؤلف الى اقتحام السياق الدرامي للقصص اقتحاما عنيفا ، وقد سبق أن قيلت هذه الملاحظة حول المجموعة ، وأنا اضيف مثالا واحداً هو :

« كانت حياتي وما تزال أشبه بمسرحية تراجيدية » . ص ١٢٨ .

غير ان المجموعة ، مع ذلك ، وهذا هو المهم ، وهذا هو ايضاً ما لم أقم بدراسته هنا فقد اقتصرت على ابداء ملاحظات حول الشكل تقريباً ، كانت انشغالا صادقا بمشاكل الناس وهمومهم ، وكانت تعبيرا عن نبضات أديب جاد نأمل منه لوطننا ، ولثقافتنا ، كل خير ، وعطاء وجهد ، واستمرار فوق أرض هذه الطريق الطويلة ، الشاقة .. طريق الابداع الادبي التي يتلمس الآن بداياتها .

يوسف القويري

١٩٦٦

مذكرات أحمد زارم

بقلم : امين مازن

حين نسلم بأهمية المذكرات الشخصية في تكوين مصادر التاريخ الوطني ، يصبح مجيء هذه المذكرات التاريخ وأحداثه من المكاسب التي تحققها حركة احياء من قبل أولئك الذين لعبوا دورا فعالا في مسيرة هذا مصادر التاريخ . أما اذا كان هذا الدور شريفا وفي اتجاه تبني المطالب الوطنية العادلة ، وقضايا الوطن الكبيرة، والنضال في سبيلها وتحمل المشاق والالام بسببها ، فان المكسب يوكن أكثر روعة ، وشمولا ، بلا جدال .. ان المذكرات — والحالة هذه ـ تشكل وثيقة من أهم الوثائق وأوعاها ، وأقدرها على سد النقص واماطة اللثام عن العديد من المواقف الغامضة والاسرار الخفية.

ولان الاستاذ الكبير أحمد زارم « مد الله في عمره» من القلة القليلة التي عاصرت حركة النضال الوطني ، وأبلت فيها البلاء الحسن ، وذلك بما تحقق له من شرف الانتماء السياسي وفضيله الثبات على ذلك الانتماء ، حتى أفلت شمس العهد المباد ، فان مذكراته التي صدرت أخيرا عن الدار العربيه للكتاب لتعتبر بلا ريب مكسبا ثقافيا غزير الفائده ، واضافه مرجعيه خطيره بالنسبه للتاريخ الوطني ، الامر الذي ما كان له أن يتحقق لولا ثوره الفاتح العظيمه ، وما هيأته من فرص الكشف عن أسرار تلك الفتره ، والتي ظل كثير من الذين شاركوا في أحداثها مكرهين على الصمت في فتره ما قبل سبتمبر .

وليس خافيا أن الاستاذ زارم كان وجها بارزا في الحركة الوطنية التي بلغت أوجها عقب الحرب العالمية الثانية عندما طرح المصير الليبي في المحافل الدولية ، وظهرت مجموعة من المشروعات الرامية الى ربط عجلة البلاد بالقوى الاستعمارية ، كمشروعات الوصاية والانتداب ، ونظام الحكم الفدرالي . وبالمقابل كانت هناك شعارات وطنية ، تمثلت في الوحدة الشاملة ، والاستقلال التام ، والانضمام الى الجامعه العربيه وهي شعارات عبر عنها كثير من الوطنيين ، عبر جريدة « الشعلة » التي أسسها واضطلع بالجزء الاكبر من تحريرها الاستاذ أحمد زارم ، الى أن أكره على مغادرة البلاد سنة ٥٢ ، ولم يسمح له بالرجوع الى أن داهمته الشيخوخه ، عندما عاد في الستينات وظل يعيش في عزلة تامه بالرغم من وجود الكثير من المجالس التي اتسعت لمن لا يساوي شيئا امامه ، ذلك لان العهد كان عهد ضغينة ومكر وضيق افق ، حتى مع من لم يعد قادرا على فعل أي شيء ، وما زلت اذكر كيف اضطر الى تشغيل ابنه(١) الطالب في الثانوية ليعمل بالاجر اليومي ، وكان مبرر تعيينه أنه يتكلم الفرنسية.

وقد أتاحت لي فرصة قراءة هذه المذكرات فرصة المراجعة للكثير من القضايا التي سمعت عنها ، وبعثت في نفسي مشاعر جمة وأحاسيس غاية في الشفافية ، وعادت بي الى تلك الفترة المبكرة من العمر عندما كانت جريدة « الشعلة » تصل الينا في تلك البقاع البعيدة عن المدينة ، لتشعل حماسنا ، وتلهب مشاعرنا فنمتلىء غضبا على دعاة (الفدرالي) ونتابع أخبار ثلج الغربان ، واحداث ثالوث ، ومصراته(٢) .

وما كان يستشهد به الاستاذ زارم من أشعار قديمه ، وما يوجهه من نقد لاذع لانصار التقسيم ، وكلنا يتمنى أن لو يقدم للمدينة ويرى احمد زارم ، الى أن كان ذلك اليوم الكريه الى النفس عندما تم ابعاد أحمد زارم ، والشاعر الليبي يتكلم ساخرا من الانجليز « أحمد زارم » « ليزوتوه » ظالم ليش يدافع عنا » .

على أنني لا اريد أن استرسل في حديث الذكريات بالرغم من أن هذه الذكريات انما انبعثت وتكونت عن رجل خدم هذا الوطن ، وتحمل في سبيله الكثير ، وظل

على العهد الصادق ، ولندخل اذن الى عالم المذكرات ، الى القضايا التاريخية التي تثيرها الفترات التي تتحدث عنها ؟

ومن الواضح أن الكاتب لم يكن غافلا عن المكملات التي تضيف عادة الى المذكرات ما تضيف ، وترفع من شأنها ما ترفع ، وأعني بها الوثائق ، وقد أوضح الاستاذ زارم الظروف التي حالت دون توفر هذه الوثائق ، وهي وثائق أتلفت عندما حلت ظروف معينة ، فاضطر أصحابه الى اتلافها بتونس (٣) ، وذلك عندما لاحقته ايطاليا الفاشيه في مهجره ، ثم عندما طاردته قوات الاستعمار البريطاني، وهي ظروف تؤكدها العيشة الصعبة التي عاشها أحمد زارم طوال الفترة التي عاشها في صميم الاحداث ، والتي تمتد الى ثلاث واربعين سنه (٤) .

على أن المذكرات تبدأ ببداية أول غارة ايطالية ، انها بداية معانقة الاستاذ زارم للمذاكرة ، فهي اذن ملحمة تبدأ من اول غارة ايطالية ، وحياة أحمد زارم في الحقيقة حياة جميع الناس في الجبل الاشم ، حيث تعيش قبيلة الرحيبات المجاهدة ، وحيث مسقط رأس هذا الرجل ، وموطن نشأته المبكرة ، هناك في فصل ربيعي جميل تكاثرت فيه الاغنام وعم فيه الخير ، جاءت جحافل الايطاليين غازية شواطىء ليبيا ، فما كان من القرى والارياف الا ان هبت هبة رجل واحد ، وهي تسمع دقات الطبول لتلبي دعوة الجهاد ، في هذه الظروف بدأت رحلة الاستاذ التي جاءت بها مذكراته، كان الرجل في طفولته الاولى عند بدء الغزو الايطالي .. كان يعيش عيشة كل أبناء القرية يقرأ القرآن الكريم ، ويتعلم مبادىء الشريعة واللغة العربية ، غير أن وعيه بالاحداث على ما يبدو كان أكثر من غيره ، ولهذا كانت استجابته للظروف الجديدة قوية للغاية ، لقد اختزن الرجل هذه الفترة اختزانا عميقا ، وكتب عنها في مذكراته فصلا جمع بين المشاعر الشخصية والوقائع التي تكونت بعد ان اشتد عوده ، وهو في هذا على ما يبدو قد استفاد من الشعر الجاهلي ، الذي كان فحوله يربطون بين ذكريات الاطلال والقضايا التي يريدون الحديث عنها ، ولو تحدث الاستاذ زارم عن فتاة الحي مثلا لاستطاع أن يضيف الينا الكثير ، مما نحن في حاجة الى معرفته عن حياة هذا الشيخ الكبير (٥) .

وقد شاء الاستاذ زارم أن يقف أمام تلك الفتره التي سبقت هجرته الى البلاد التونسيه ، ويتناول الاحداث الجسام التي مرت بالبلاد أثناء معارك الجهاد الاولى ، وما شاع يومئذ من القوم ، ومن تشتت واختلاف في الرأي ، نتج عنه تباين في المواقف وصراع وصل الى حد استعمال السلاح . ويلوح من حديثه أنه يريد أن يتصدى لتلك الاحكام المتسرعة التي انساق اليها بعض المؤرخين ، والقائلة بأن المعارك المهمة قد انتهت في فترة مبكرة ، فيستعرض مجموعة من المعارك التي بلغت أوجها في السنوات ٢٦-٢٧-٢٨ كما لا يغفل تلك الظروف الصعبة التي أدت بالكثيرين الى الهجرة ، ابتداء بتخلي تركيا ، وانتهاء باختلاف القيادات الليبية ، ناهيك بالظروف الدولية الصعبة ، غير أن الاستاذ زارم لا يقول عن المرحلة أية كلمة فاصلة ولكنه يتخذ موقف الراوي المتشكك ، وهذا الموقف يحرم المصادر التاريخية من شهادة كان عليه أن يدلي بها وهو مؤهل لها كل التأهيل (٦) .

والمشاركة الفعلية لهذا الرجل في الاحداث تبدأ في الحقيقة سنة ١٩٢٦ عندما استقر في (حلق الوادي بتونس) وأخذ يتلمس طريقه عبر الأحداث الكبيره ، وينحاز الى القضية الوطنية ، ولعل أخطر ما نتبينه عن تلك الحقبة ومن واقع المذكرات بالطبع ، أن أحمد زارم الذي عرفه معظم الناس عبر جريدة الشعلة ، وعبر المؤتمر الوطني ، وظهور بشير السعداوي على رأس ذلك التكتل ، أن احمد زارم هذا كانت له خلفية نضالية قبل تلك الفترة ، ولم يكن تابعا من اتباع السعداوي ، ولكنه كان نتاج حركة وطنية بدأت بواكيرها الاولى بتونس ، وأسهم فيها أكثر من اسم . انها حركة عملت احيانا في العلانية واضطرت أحيانا أخرى الى السر ، وان الاتصال بالسعداوي كان من واقع الرغبة في توحيد الصفوف وتجميع الجهود ، والانصهار في تجمع واحد تكون له الفعالية ، وتتحقق له أسباب المناعة والاستمرارية . وتلك روح هيأت للاستاذ زارم أن يرتفع عن الانسياق أمام الطموح الشخصي وتكوين تكتل خاص به ، على الرغم من انه كان يستطيع لو شاء أن يحقق مثل هذا التكتل ، وهو الذي كان سليل الجبل الغربي الذي يضم الالاف من الناس . بل انها الروح التي جعلت الاستعمار البريطاني يبادر بابعاد احمد زارم عشية اعلان الاستقلال الصوري ، وذلك لان الرجل كان شديد المراس قوي الشكيمة مثالا للتشبث بالمبدأ . لقد كان واضحا أن أحمد زارم لا يمكن أن يقبل بالاخطار التي ارتكبت فيما بعد ، وان الالتفاف الشعبي حوله كان كافيا لان يجعل منه الرجل الذي يقول « لا » في وجه من كان يخطط لاستلام شؤون البلاد بالاتفاق مع الاستعمار .

والواقع ، أن أحمد زارم على مايبدو كان قد درس من قبل القوى المعادية من البداية ، كان مرصودا من قبل القوى الاستعماريه ، شانه شان الكثير من الاسماء اللامعة ، التي وضع لكل منها مصير

انتهت اليه على نحو ما رأينا مع الكثير من العناصر لقد سعت القوى الدوليه الى معرفه الحركه الوطنيه التي أخذت تتحرك في المهجر ، وكلما حاولت القوى الوطنيه ان تستفيد من جهه دوليه كلما حاولت القوى الدولية أن تستفيد ، غير أن ميزان القوى لم يكن متساويا بلا شك ، والدراية بالامور ليست متساوية أيضا ، والمذكرات تشير الى كثير من الحوادث التي تمت ، وذلك دون أي افتخار من قبل كاتبها .

نعم ، ان الاستاذ أحمد زارم يؤكد أنه قد نوقش من قبل الامريكان عن المصير الذي تراه الحركة الوطنية للبلاد الليبية بعد اندحار قوات المحور(٧) وان الحكومة الفرنسية سعت منذ البداية الى معرفة هوية الحركة الوطنية(٨) بل أن أحمد زارم أوشك أن يقع ضحية لمؤامرة حيكت ضده (٩) وان الانجليز أيضا كانت لهم اتصالاتهم واستفساراتهم (١٠) .. ذلك يعني أن كل الاطراف استطاعت أن تكون فكرة عما يجري ، وتحدد بالتالي لمصالحها خطة ، وجوارا نافعا لتحقيق هذه الخطة ، وقد تأكد للجميع أن أحمد زارم لم يكن جوارا في تلك المرحلة ، اللهم الا القوى الوطنية ، والتي لم تكن مؤهلة لتحقيق شيء يذكر .

على ان اكبارنا لجلال الدور الذي لعبه الاستاذ أحمد زارم في حركة الكفاح الوطني واعتزازنا بتلك الروح الشريفة التي طبعت جميع تصرفاته وحكمت جميع مواقفه ، والتي كان ثمنها على حساب راحته ، ان اكبارنا هذا لا يمنعنا من القول بأن هذه المذكرات على أهميتها لم تستطع أن تجيب عن الكثير من الاسئلة ولم تتضمن اراء نقدية للعديد من الوقائع والشخصيات ان الاستاذ زارم وهو ما هو عليه من سامق المكانه وسعة الاطلاع ، وقوه الشخصيه لمؤهل دون غيره ان يقول الكلمة الفاصلة حول أحداث كثيره جرت في تلك الفتره القلقة .

وبشيء من التفصيل ، كم كنا نتوق الى سماع كلمة عن دور عبد الرحمن عزام في تلك الاحداث وعن بعض الطموحات التي قيل أنها قد خالجت نفسه ؟ لكم وددنا أن نعرف شيئا عن الظروف التي عاشها بعد هجرته الثانية ، وعن العلاقة بينه وبين السعداوي بعد أن هاجر الاثنان ؟ وعن أولئك الوطنيين الذين كانوا يتنقلون من المشرق الى المغرب ، من كان يغطي نفقاتهم ؟ هل جهود فردية أو أن هناك دعما يقدم من هذا الجانب أو ذاك ؟

صحيح أن الاستاذ زارم قد تحدث عن ظروف معيشته وعن أنماط النشاطات التي مارسها لكي يكسب قوت يومه فعمل سائقا ، وعمل في المبيعات ، وحاول أن يزاول التجارة ، ولكن كل ذلك قبل الخمسينات ، أما بعد أن أصبح الرجل مرموقا فقد طوى عن كل الصفحات ، حقا انها قد تكون صفحات مريرة ومؤلمة وقد يكون مدفوعا لطيها بعامل وفائه وتجاوزه ، وهذه مكرمه من المكارم ، ولكن ، ماذا عن التاريخ ؟

ان التاريخ يحتاج الى كلمة منه حول تلك الفترة وحول تلك الحركة ، وبالذات تلك التي ازدهرت في المشرق . ان الذين اكرهوا على الخروج من مصر وطلب تسليمهم من قبل القوات المصرية (١١) لا بد أن تكون جهات أخرى قد اتصلت بهم ، وسألتهم مثلما سألت الاستاذ أحمد زارم ، بل ومثلما بدأت تسأل جميع الناس أينما استطاعت أن تصل قوات الجيش الانجليزي في مطلع الاربعينات (١٢) .

وعسى أن تكون هذه السطور مساهمه في مناقشه الاستاذ زارم ، وعسى أن تكون تعبيرا صادقا عما أكنه له من مشاعر التقدير والاعتزاز ، ولعل ما طرحناه من أسئلة وتعليقات يكون بداية حوار حول هذه المذكرات المهمة .

---

١ ـ الدكتور صلاح أحمد زارم عمل بالاجر اليومي سنة ٦٣ بمصلحة العلاقات العامة بوزارة الانباء والارشاد .

٢ ـ ثلج غريان عبارة عن فيضانات عمت مدينة غريان وأحداث تالوت ومصراته مظاهرت عمت المدينتين .

٣ ـ ص ٨ .

٤ ـ تبتدىء هذه الفترة سنة ٢٦ وتنتهي بقيام الثورة سنة ٦٩ .

٥ ـ راجع ص ١١ وما بعدها من المذكرات ولاحظ كيف أفلح زارم في وصف تلك الايام .

٦ ـ الملاحظ أن الاستاذ زارم يتكلم عن فترة لم تكن سنة لتسمح له بادراكها .

٧ ـ راجع التفاصيل ص ٣٢١ .

٨ ـ بدأت الاتصالات من سنة ١٩٣٧ التفاصيل ص ١٦ .

٩ ـ التفاصيل عن هذه المؤامرة ص ١٦٧ .

١٠ ـ انظر صفحة ٢٨٣ وما بعدها .

١١ ـ ص ٩٥ .

١٢ ـ عند دخول الجيش الثامن لمنطقة الجفرة سنة ٤٣ أجرى البروفسور « ملون » استاذ الاثار بجامعة لندن والذي كان مجندا برتبة « عقيد » أجرى استطلاعا للراي العام وحاول أن يفهم ميول الناس .

نماذج «كانت في الظل»

بقلم : كامل الهادي عراب

كما في الكلمات المدونة على ظهر الغلاف فان هذا الكتاب (فيه نماذج جديرة بالاهتمام والاعتزاز ، هي أن لبنات المجتمع التي أعطت وبذلت ولم يكتب عنها أحد ، كاد أن يطويها النسيان والاهمال فجاء الاستاذ الكاتب المؤلف يزيح عنها الستار ويسلط الاضواء على جوانب من حياتها الادبية والفنية والوطنية) .

وفي هذا الكتاب (نماذج في الظل) يكشف الاستاذ المصراتي عن مقدرة فنية متميزة في رسم الشخصيات رسما متعمقا قادراً على ابراز كل النزعات الاجتماعية والثقافية والنفسية ، ويسجل بحس الفنان المبدع كل هذه الجوانب بحذق يطاوعه في صناعة صورة متكاملة الملامح والقسمات أسلوب نثري على جانب من الجمال والتأثير . ربما لم يكن الاستاذ المصراتي يستخدمه كثيراً في أعماله الاخرى العديدة ولعل السبب هو ان تلك الاعمال تغلب عليها سمة البحث العلمي أو التحقيق أو التأريخ للاحداث والاعلام أو مباحث التراث ، وربما لم يستخدم أيضا في ذلك العمل الذي سماه بالقصص القصيرة (مجموعة مرسال) وحاول فيها أن يلتزم بمقاييس القصة وشروطها الادبية فجاء ذلك تكلفا ، وفقدت المجموعة كنماذج أهم خصائصها وهو الصدق والتدفق والحيوية بسبب القوالب الجاهزة التي ارتكبها . ولان الاستاذ المصراتي ليس قصاصا فلم يوفق فيما يحاول أن يلتزم به - افتعالا - وهو شروط القصة القصيرة ومقاييسها وخصائصها الفنية ، وذلك لان ثمة حقيقة جوهرية لا بد أن يعرفها كل كاتب يشتغل بهذا اللون من الادب وهي أنه فضلا عن موهبة القصاص فان الالمام بفن كتابة القصة القصيرة وأصولها مسألة لا توضع كل مرة على ورقة مستقلة ، ثم يأخذ الكاتب في رسم شخصياته ونماذجه على ضوء تلك الورقة الى أن ينتهي من عمله وانما المعروف أن الالمام بتلك الاصول وفهمها واستيعابها استيعابا دقيقا شيء يسري في دم القصاص وفي (لاوعيه) وتأتي أعماله دائما ملتزمة بتلقائية كاملة بخصائص القصة دون أن ينتبه ، ودون أن يفكر بشكل مزدوج أثناء عملية الابداع ونقل الانفعالات وتدوين التجربة .

ولعل ذلك كله غاب عن الاستاذ المصراتي في (مرسال) فخسر نماذجه بهذه المراهنة على هذا اللون من الادب ، وظلت محاولته تلك مجرد محاولة ولم تخرج عن هذه الحدود .

أما في هذا العمل فان الاستاذ المصراتي تحرر من هذا الاتجاه الذي لا معنى له فانطلق قلمه يحلق في آفاق تربة خصبة ، وقدم أثرا باقيا متميزا بالجمال والعذوبة والومضات الوجدانية الصافية ...

ليست هناك شخصية تدور في محيط الانسان الكاتب الا ولها جانب من الجوانب يستطيع أن يراه رؤية خاصة ، ويستطيع أن يلتقط منه ما يستحق التسجيل والتأمل ، فما بالك اذا كانت هذه الشخصيات من النوع الذي كان له أثر بشكل ما في الحياة العامة ، حتى ولو كان هذا الاثر صغيرا ، محدودا بزمانه ومكانه وظروفه ...

ولان المصراتي عاش حياة عامة عريضة في ميدان العمل الوطني وفي ميدان الادب والصحافة والاذاعة ، فلقد اختلط أكثر من غيره بنماذج متعددة من الناس لم تكن حياتهم مسطحة ولكن شخصياتهم كان فيها ما يذكر وكانت غنية بصفات النموذج الذي يصلح للدراسة .

ولقد مرت هذه الشخصيات نفسها في حياة غيره من الكتاب والادباء والمثقفين الذين تزاملوا معه بحسه واهتماماته الانسانية استطاع أن يلتقط هذه النماذج وأن يضعها تحت المجهر في معمله الخاص ، دسها بين مقتنياته الكثيرة التي تشكل ذخيرة لاعماله الكتابية وعندما استوت ونضجت في ذهنه دفع بها الى عالم النور فأعطاها صفة البقاء بهذا العمل ، وحررها من الخمول في الاذهان وخطر الاندثار في طيات النسيان .

ونحن جميعا الذين اقتربنا من الوسط الادبي والثقافي بشكل من الاشكال نعرف بعض هذه النماذج وربما تربط البعض منا بها علاقات ووشائج وذكريات ولكن ثمة ابعاد لم نكن نعرفها في حياة هؤلاء ، وثمة جوانب انسانية ربما كنا نعرفها ولكننا لم نكن نهتم باعطائها هذا البعد الدافىء وهذا التركيب الجميل الذي جعله الكاتب يرتسم في ذاكرة القارىء ولا يزول بعد أن يطوي صفحات الكتاب .

نحن نعرف حمدي الرياضي الفنان .. ونحن نعرف بشير الجواب الشاعر البائس ، ونحن نعرف شيخ المطربين مختار شاكر المرابط ونعرف أو نسمع عن شيخ القراء الفقيه الفاضل مختار حورية ونعرف الكثير من هذه النماذج التي في الظل ولكننا كنا نعرفهم من الخارج ، نعرفهم من خلال ما يظهرون به أمام الناس من سلوك ومواقف ، أي أننا نعرفهم كما اختاروا هم ان يقدموا أنفسهم للحياة العامة والمجتمع ولم نحاول أو لم يكن من الممكن أن نعرفهم من الداخل .

وأنا أعترف شخصيا بأنني على كثرة ما التقيت بالفنان المرحوم حمدي وجلست معه وبادلته الحديث والتقيت ببشير الجواب في المناسبات المختلفة والشيخ مختار شاكر المرابط وغيرهم فقد أحسست وأنا أقرأ لكتاب كما لو أنني اكتشفتهم لاول مرة .

شخصيات غنية بالومضات الانسانية وغنية بالمواقف والتجارب والصراع مع الزمن والتطلعات والحلم بتقديم شيء ذي بال لبلادهم ، أما في مجال الفن أو في مجال الادب أو في مجال العمل الوطني . وقد كانت البلاد على أيامهم تتلمس طريق الخلاص وتبحث عن سبيل الحرية .

هذه الغربة التي عاناها حمدي وهو مهاجر الى مصر ، وهذا الاحساس الدافق بالوطن الذي عاش معه في القلب ، وهو يعاني ما يعاني من الجوع والفاقة والتشرد والاغتراب ، ويتنقل من عمل الى عمل ، باحثا عن لقمة العيش الشريف ، محتفظا حتى في محنته بشموخ الانف ، ومحتفظا بالامل والاشراق ، (مقرقر الصوت يضحك هادرا أو مزلزلا ويطوح برأسه كأنه يريد أن يتحاشى تفاقد الوزن في الضحك .. من بعيد تسمعها وتميزها فلها ملامح ونبرات مميزة ، ضحكة أولاد البلد ، لعله اكتسبها من الاحياء الشعبية بالاسكندرية التي عاش بها ردحا وأن أتى اليها على كبر ، مثقلا بالهموم باحثا عن لقمة العيش) .

ونعرف من خلال الكتاب أن حمدي حاول أن يكون شيئا يذكر فمارس فن التمثيل وعالج الوان (الكوميديا) وتنقل من المسرح الى مربعات الملاكمة ، من الفن الى الرياضة الى المهن والاعمال الاخرى فلا الفن ولا الرياضة يمكن أن (تسد فراغا أو تسد معدة) وهاجر من ليبيا الى مصر وهاجر معه حبه للفن والتمثيل وهاجر معه حنينه الى الوطن ، وهو نموذج من النماذج التي طحنها الاستعمار والتحولات التي جلبها الايطاليون أيام الاحتلال ، وهو نموذج على بساطته لم ينحن للعاصفة، وحافظ على شرفه الوطني وعلى أصالته . وعندما يتنقل الكاتب مع حمدي يرسم لنا في براعة وصدق أجواء الاسكندرية الشعبية واحياءها القديمة ، وصور الحياة الاجتماعية فيها فيحيط هذا النموذج بكل الاجواء والمؤتمرات رسما لا يقدر عليه الا فنان متمكن .

ويقدم لنا بشير الجواب شخصية انسانية بكل ما فيها من تمزق واضطراب ومصادمات . عرف الجواب كيف ينظم الشعر ، فكان الشعر بالنسبة اليه ترفا ومجونا . وأسبغ الله عليه نعمة الثراء فبدد الثروة وانفقها على ملذاته وصبواته وبعثرها في وجوه عدة (مباذل وبوهيمية ومجون) حتى اذا ذهب ربيع العمر وافاق من هذا العالم الوردي الساحر لم يجد أمامه الا الذكريات والوحدة والضياع .. (شاعر أضاع ثروة فتبددت كماء سال من بين اصابع طفل على شاطىء الهادرات ! يا رياح قد غدا الشاعر كومة من الذكريات .

ينثرها لديه غالية قطرة قطرة بمقدار ...

ثم ينثرها مبعثرة في حفنات أكداسا رخيصة ثم لا سامع لها ولا مقدر لقيمتها أو أثمانها ..

واذا كان الانسان لا يمكن ان يكون ملاكا معصوما فهو لا يمكن أن يتحول الى شيطان رجيم ، وثمة بين الحافتين دائما خيوط وومضات وجوانب ، تظل باقية وسطا في كلا الحالتين .. يقول الاستاذ المصراتي عن الجواب :

- خصلتان من معدنه الاصيل لا ينكرهما عليه انسان عرفه من بعد أو قرب :

- كرامة واعتزاز .. يأنف من الشكوى .
- وطنية صادقة لا تشوبها شائبة .

ويدرس الاستاذ المصراتي من خلال هذا النموذج (حالة انسانية معينة) بكل نسيجها وبكل خيوطها ، ويقدم بشير الجواب في مختلف الاوضاع وانماط السلوك والمواقف والتصرفات التي تستحق التأمل والوقوف عندها طويلا ..

ولا يتخذ الاستاذ المصراتي من نفسه موقف الواعظ من خلال هذه الشخصية النادرة الا في بعض فلتات قلم يسيرة وانما يقدمها بكل القسمات النموذجية ، ويترك تقدير الدرس والعبرة والموعظة التي يمكن أن يرمي اليها هذا العمل . على أن الشيء المهم حقا في رسمه لهذه الشخصية كما في رسمه لبقية الشخصيات، هو أن يحفرها حفرا في ذاكرته وتحس أنه يصنعها بالازميل لا بالقلم .

وهذا النموذج العجيب الغريب الذي هبط على الحياة في طرابلس من عالم مجهول .. (سلاماتو) .. من هي ومن اين جاءت ؟

(لا أحد يعرف ، حتى كهول وشيوخ الحي الا مجرد ما اشتهرت به من اسم ولقب وتدليل .. سلاماتو .. سلاماتو .. سلاماتو !!) . ويقدمها المؤلف على هذا النحو : (عجوز فيها ملامح افريقية الداكنة تقبع وحيدة في دار منزوية في ركن قصي عند مدخل الفندق تحت السلم عند البئر) ويقول عنها : (اجتماعية مشروحة الصدر مبسوطة النفس متفائلة الطبع لبقة الحديث تسأل عن الغائب وتعود المريض بل أحيانا وعلى قد الحال قد تقرض المحتاج والمعوز) .

انها راعية الفندق .. سلاماتو عساسة الفندق تكد وتكدح وتعمل ليل نهار في تنظيف الفندق وترتيب الحجرات ، وتأكل لقمة عيشها بعرق جبينها . أمينة مؤتمنة على البضائع والمتاع وأمينة حتى على أسرار الناس . ليس لها الا ابنة وحيدة تعيش في مكان بعيد لا تزورها الا لماما وتأبى البقاء عندها ما دامت قادرة على العمل :

(سأكون محبوبة عندهم اياما ثم يرونني ظلا ثقيلا وكرامة الضيف ثلاثة أيام وبعد ثلاثة أيام لا تريد ان تشعر بثقلها) ..

ولماذا لا يعمل الانسان ما دام قادرا ، ويتحرر من ذل الاتكال والاستكانة ؟.

والعمل شرف ، وهي تلقى كل الاحترام وتقدير الناس ممن يعيشون في تلك الاحياء الشعبية المجاورة (للفنيدقة) المعروفة ، من نماذج كوشة الصفار ، وحوة علجية ، وحومة البلدية وحومة غريان وزنقة زعطوط وزنقة الفرنسيس وباب البحر وزنقة البوليك والاكواش وغيرها من أزقة واحياء المدينة القديمة .

وهي عجوز طيبة تتغاضى عن الاخطاء الطفيفة - وهي الحارس على الفندق - وبعض التصرفات من هذا الخليط العجيب الذي يتخذ من حجرات (الفنيدقة) مكانا للسهر أو مكانا للاقامة وتدعو بالستر والتوبة وتعرف من يسكر ومن يدندن ومن يعود اخر الليل تتقاذفه الحوائط بعد سهرة أو غطسة مشبوهة .. تزوم وتحوقل وتنشر النصائح والمواعظ التي يبتلعها جوف الليل ...

ولكن سلاماتو تتحول الى نمرة الى لبؤة شرسة اذا تجاوز سلوك السكان هذا الحد وهذه الاخطاء البسيطة . فعندما جاء أحد العزاب ذات ليلة (بصيدة) وحاول أن يهربها الى الداخل فوجيء بسلاماتو ينشق عنها الظلام وتنتصب كالوحش وبيدها مكنسة ومفتاح الفندق الحديدي الغليظ :

(خطوة واحدة والمفتاح فوق راسك وراسها يا ولد الحرام ، يا منسرفة عقاب الليل طيح سعدك وسعدها ..) .

وعبثا حاول أن يشتري صمتها بالمال :

(امشي يا معفن يا خالج أنا نمد ايدي لفلوس الحيلق ؟) ..

وانصرف الرجل وانصرفت المرأة تحت جنح الظلام خارج الفندق .. ويلمع بين يدي الاستاذ المصراتي هذا الوميض الحي للشرف حتى لدى هؤلاء الناس المطمونين والمستعبدين للقمة العيش ..

وسلاماتو فيها وهج حياة غنية بالعدد والجوانب العميقة وهي الى ذلك كله متحمسة لقضية الوطن .. تمشي في المظاهرات وتستمع الى كلام الخطباء وتصفق لهم . وعندما يؤخذ الاستاذ المصراتي بجريرة مواقفه الوطنية ويقاد الى السجن تكون سلاماتو هي الوحيدة التي تزوره وفي يدها سلة حوائج .. وكانت تلك لمسة انسانية في ظروف صعبة عصبية يؤثر فيها حتى الرجال الصمت والابتعاد . انه يقدم لنا من خلال سلاماتو نمطا من الحياة في أجواء المدينة القديمة وأزقتها الضيقة وفنادق عزابها ويقدم ذكريات جميلة وشخصية تعيش وسط الدنيا مبرقشة بالنقاء والوطنية والشرف .

ونحن نعرف الشيخ مختار حورية ..

كان علما في حياة مدينة طرابلس ، وكان (كتاب) حورية الذائع الشهرة مدرسة تخرج منها الكثيرون ، وكان من اهم القلاع التي حافظت على أصول اللغة العربية والدين الاسلامي أيام استهدف المستعمر لغتنا وثقافتنا وديننا الحنيف ..

ولقد كتب الكثيرون عن الشيخ حورية ..

ولكنهم كتبوا من خلال قوالب الرثاء التقليدية ، وان كان الاستاذ علي الغودي فيما اذكر – واعتقد أنه صهر الشيخ أي انه قريب من ينابيع المعلومات عنه – قد حاول محاولة مختلفة فكتب مجموعة من المقالات ولكنها كانت مقالات أحادية البعد فطويت مع الزمن خاصة وان صاحبها لم يهتم بجمعها في كتاب اذا كان يرى أنها تصلح لذلك .

أما الاستاذ المصراتي فيقدم شيخ المقرئين نموذجا يظل يلازمك ولا يفر من شريط ذكرياتك ..

انه يقدم في اناء بلوري شفاف .. فهو كمقري .

(في صولاته وجولاته وتحليقاته ، يتهدر ، ويتهدج وينهمر وينحدر ويقترب ويبتعد كأنما أنت طفل تهدهدك أم رؤوف بحنان رؤوم ويد معطافة حنون .. لكن هي هدهدة لا تبعث راحة الاغماض بل اليقظة التي تخاطب النفس بلا حواجز ، ليس تحذيرا انما هو انعاش وخطاب روح لروح) .

● وهو كرجل مواقف ..

وقف لحظة اختيار دقيقة مع النفس بعد ان انصرف الى عالم التجارة وعالم البيع والشراء ف(راجع الشيخ حساباته مع نفسه وآثر أن يعود الى تعليم أبناء المسلمين بكتاب الله فباع محله التجاري بسوق الرباع وودع الربع وسدنته ودلاليه) .

● وهو لم يكن شيخ كتاب تقليدي فلقد :

(أسس مدرسة لمحو الامية بطرابلس عام ١٩٤٢ وتعد من بواكير الخدمات الاجتماعية والتطوع لتثقيف فئات الشعب .. وهو من أصحاب الاسلوب السهل في التعليم والتربية ، ولذا أحبه الناس وأقبل عليه الطلاب من مختلف مراحلهم ، من العجينة اللينة في مراحل الطفولة والتلعثم في النطق والتعثر في الخطو ، الى أصحاب فك الخط وبارمي الشنبات أو عاقصي الشوارب أو عافي اللحي وأصحاب النقاب المحمودي وأصحاب اللكمات والقبضات كل هؤلاء في ساحته يهدأون وينصتون . هو معلم من معلمي الشعب في تواضع وأصالة ، وكان بيته ندوة علمية وصالون اجتماعي – أظنها صالونا اجتماعيا – والاستاذ المصراتي أدرى بالطبع – ما من شخصية علمية أو وطنية تفد الى طرابلس او تمر بها الا استضافها الشيخ صاحب الذوق والحس العلمي ، ويدور لسمر وأنواع المحاورات الادبية على تلك المائدة التي تفننت في صنعها اياد ماهرة كريمة) .

وعلى هذا النسق المنسق العميق يمضي الاستاذ المصراتي فيقدم لنا عشرين شخصية من الشخصيات التي عرفتها الحياة العامة ، وكاد يطويها النسيان في نحو أربعمائة صفحة نابضة بالصور والاحاسيس والمواقف الانسانية المثالية . يربط بينها جميعا هذا الرباط المقدس الا وهو المواقف الوطنية والشموخ في ساحة الشرف والكرامة والرجولة .

ويقتحم الكتاب ميدانا بكرا لم يطرقه أحد من قبل هو حياة الشخصيات الوطنية التي هاجرت فرارا بوطنيتها واستقرت بمصر والشرق . وهي حياة غزيرة ولا شك فيها كثير مما يقال ويؤرخ وفيها نماذج يستحق أن تمتد لها يد وطنية كيد الاستاذ المصراتي لتنفض عنها غبار النسيان وظلال الجحود .

فحياة هؤلاء الناس كانت متفجرة بالحنين الى الوطن والاعمال الوطنية وكانت مكتظة بالذكريات والمواقف ، وكانت تتفق على السير في خط خاص هو أن يعلموا أبناءهم أن لهم وطنا وان هذا الوطن مغتصب ويحتاج الى سواعد الرجال ، وان هذه الغربة شي مؤقت وعليهم أن يحتفظوا بالحلم الجميل ، حلم العودة والخلاص .

يستوي في هذا الموقف الفقير وميسور الحال ، ويستوي الجاهل والمتعلم ، الكبير والصغير الرجل والمرأة ، كما يجسد ذلك المؤلف في نموذج (عيشة الزنتانية) التي قطعت رحلتها سيرا على الاقدام من الزنتات حتى الاسكندرية وأصبحت اشهر اسم بين المهاجرين في الاسكندرية (وكانت من الوثائق المشافهة تعرف معارك الجهاد بالتفاصيل وتعرف الفرسان والابطال وهي تفتخر بأنها كانت تزغرد في ساحة القتال) .

خليط من المثقفين وطلاب الازهر والصحفيين المناضلين بالقلم ، والمجاهدين واعلام الحركة الوطنية الذين لم تبتلعهم الغربة .

أحمد الشعافي وعلي الجابرية وعبد الرحمن الزقلعي وعيسى الفاخري ومحمد علي الحداد وعبد الوهاب عبد الصمد وطارق الافريقي وغيرهم وغيرهم .

ونحن لن نعرف هذه الشخصيات وهذه المواقف وهذه الحياة النموذجية الا اذا قرأنا هذا الكتاب القيم الثمين ، كتاب (نماذج في لظل) للاستاذ علي مصطفى المصراتي .

لقد تأثرت بكل صفحة من صفحات هذا الكتاب فهو كما يقول ظهر الغلاف الاخير :

(فيه طرافة الفن ورشاقة الاسلوب وجدية الموضوع) ..

ولم يبق الا ان نختتم هذا الحديث عن كتاب (نماذج في الظل) بدعوة مبعثها معزة صادقة للاستاذ المصراتي بأن يتخلص من عقدة سوء الظن بالناس ، أو ببعض الناس ، وأن يبتعد وهو الشيخ المجرب العارف بطبائع النفوس وما تنطوي عليه من النوايا عن افتراض أن من يتصدى لتقييم عمل من أعماله انما يفعل ذلك لمجرد أن يحفر له حفرة أو يصنع له فخا أو ليغمط حقه أو ليغمز من حقه كرائد من رواد الكلمة والموقف. فهو بعد هذا العمر الطويل من العطاء والابداع قد استحق محبة الناس واعجابهم ، محبة واعجاب حتى أولئك الذين يختلفون معه في بعض الاراء والافكار والاحكام . فسوء الظن بالناس وافتراض وجود نوايا مبيتة لا وجود لها جعل البعض يحجمون عن تناول أعماله — وأي تناول لتلك الاعمال لا يغيرها — على الرغم من جديتهم وموضوعيتهم اتقاء لتأويلاته التي لا مبرر لها واجتنابا للغمز واللمز الذي يجب أن يربأ بنفسه عن مواطئه .

وهذه النزعة لدى الاستاذ المصراتي تكشف عن نفسها بوضوح في هذا الكتاب عندما يقول في المقدمة :

(... ونسأل قبل أن يأتي حلس من احلاس ادعياء الادب ومن المتصدين لاخطاء الناس من ادعياء الفن عن تربص وتقصد ومنخور النوايا ودفائن الطوايا سائلين سؤال استنكار واستهجان أو سؤال استخفاف بعمل الناس وأين هذا ، وما دور هذا ، وماذا وما هذا وباذا وآذا وطاذا ولكن وكاكان ووو وما أكثر وأوآتهم ولكناتهم ألكنهم الله !!) الخ ..

ودعوة أو امنية أخرى لعل الاستاذ المصراتي لا يضيق بها ، وهي تجنب الحديث المتكرر عن النفس. فحديثه عن نفسه ومواقفه جاء في بعض مواضع الكتاب حديثا مفتعلا وخارجا عن سياق سرد ودراسة حياة الشخصيات وتقديمها في اطارها الخاص .

وليترك الاستاذ مثل هذه الاحاديث لسيرة ذاتية مستقلة ننتظرها منه ولا شك ، أو ليتركها لمذكراته فعندما ينشر مذكراته سيكون مجال الحديث عن النفس ، ومن خلالها فيه فسحة ومتسع ، أو ليترك هذه المهمة للاخرين .

كامل الهادي عراب

دراسة نقدية لشعر علي الرقيعي

شاعر يضع قدميه على الأرض

بقلم : بشير الهاشمي

ظهر منذ فترة يسيرة الديوان الثاني للشاعر علي الرقيعي ، واعتقد انه من المفيد لاستيعاب الخطوط العامة لتكوين هذا الشاعر . ان نبدأ معه من ديوانه الاول .. فلا بأس اذن من مرحلة قصيرة ننطلق فيها بين (حنينه الظامىء واشواقه الصغيرة) .. آملا ألا تثقل فيها مسالك الدراسة ومتطلباتها على بهجة الشعر ومتعته ..

(١)

مع يقظة الانسان في بلادي وتزايد صراعه من أجل اثباته لوجوده وحقه في الحياة انكشفت اكذوبة استعمارية بغيضة تصم هذا الشعب بالتخلف والشعوذة والغباء والهمجية ، وكان نظام الفاشيست الغاشم يغذيها بدعاياته المسمومة ليضلل بها العالم موحيا بانه جاء ليلقن (مبادىء التمدن لهذا القطيع من الوحوش) وليحيل الصحراء البدائية الى مدينة جديدة يشيدها على رؤوس الحراب .. وجنة تجري فيها انهار من الدم يصممهم بها التاريخ .. انكشفت الاكذوبة .. وسلبت الحقيقة رداء الاستعمار المزيف ووضعته في مكانه الذي لا بد ان ينتهي اليه ، ليواجه حتفه المصيري ولتنتصر الحياة في بلادي لقيمها الشريفة ولحقها المشروع في الحرية والحياة ، ولتنبت أرضنا العشب الاخضر والزهر المتفتح ، وتصنع الامل الباسم المتجدد في سعادة الانسان ورفاهيته ..

ومن اخضرار العشب وتفتح الزهر وأمل الانسان انبثقت روح الشاعر الجديد .. شاعر لم تعهده ارض بلادي من قبل .. شاعر لا تفاخر به قبيلته كما كان يحدث في عهود مضت ، لانه يهجو القبائل الاخرى ويردد الفاظ الفخر والحماس لها ويطنب عبارات الوصف لمكارمها وامجادها ويرثي موتاها ويمجد شيوخها واعيانها .. شاعر جديد لا تنحني جبهته عند الاعتاب وعلى ابواب الاغنياء ، ولا يتصنع الفاظا في ربط المعاني ورصف الكلمات لتأتي منظومة مترادفة المعنى والتعبير ولا يسير عبر تلك المسالك التقليدية المعروفة في الشعر .. انه شاعر جديد يستمد رؤياه من الحياة ، ويترسم معالمها من اضطرامها بين جوانحه ويجسد معانيها من تعاطفه ومعايشتة ومعاناته .. شاعر ينادي بكل ما في قلبه من شجن واسى وضياع من مؤثرات عهود سابقة ومخلفات بالية ، وبكل ما في نفسه من حرقة وحنين لمعاني الخير والحق والجمال والتقدم ، وبكل ما اكتسبه من وعي وادراك لقيم الانسان الشريفة ورغبة في تأكيدها والتعبير عنها .

نعم .. لقد أنبتت بلادي الشاعر الجديد وعرفته في أسماء كثيرة منها :

علي صدقي عبد القادر ، وعلي الرقيعي ، ورجب الماجري ، وحسن صالح ، وعبد الحميد المجراب .. وغيرهم .. وكل منهم له أبعاده وقدراته وارتباطاته الفكرية والاجتماعية ، وكل منهم ساهم بامكانياته الفنية الخاصة للتعبير عن جوانب الحياة في بلادي .

ومن بين هذه الاسماء وغيرها في شعرنا الليبي المعاصر نجد شاعرا هو دائما اكثر شمولا في رؤياه الشعرية وفي وضوح المعالم عنده وفي القدرة على امتلاك

الاداة الفنية لاستنباط المعاني التي يقصدها بحدسية صادقة وهو دوما أشد تناسقا في القياس الفكري الذي يلتزم به . انه الشاعر علي الرقيعي الذي كان شعره كما قال عنه الاستاذ خليفة التليسي : «ظاهرة جديدة في تاريخنا الشعري وظاهرة تستحق أن نشجعها وتستحق ان ننتظر منها الكثير لانها خروج بالشعر عن مألوفه في هذه البلاد » ..

انها كلمة حق للشاعر الجديد المتمثل في علي الرقيعي الذي يبدأ انطلاقه الناهض معانقا المعاني الكبيرة ، وهو يقدم لنا محاولته الاولى في ديوان شعري يحمل اسمه دلالة عميقة للتشاحن المعتمل في قلب هذا الشاعر .. انه (الحنين الظامىء) الديوان الاول للرقيعي والذي صدر سنة ١٩٥٧ م .

حنين ظامىء غير محدد ، فهو ليس للحب وحده رغم انه يستحوذ على جانب هام منه ، وهو ليس لامرأة بعينها لان امتلاك اداة الوعي عند الشاعر واتساع مفهومه كان يحتضن به قضية المرأة بصفة عامة ، وهو ليس لعواطف خاصة رغم أنه يأسو الشجن والغربة واجترار الالم لانه ليس وحده الذي يبكي ويأسو ويتألم وليس للقضايا الوطنية التحررية وحدها ، وليس للناس الذين يحرقهم اللهيب في جوانب الحياة المظلمة .. الحقيقة .. انه حنين ظامىء ملتهب لكل ما في الحياة ، لكل ما في قلب الانسان من رغبة وطموح والم وأمل .. حنين انسان يفتح عينية للدنيا برغبة عميقة للفهم والتعرف رغم ظلامات المرارة والشجن .. حنين شاعر يلقي بنظرته الاولى على الاشياء من حوله ، ويحاول بكل قوته ان يحدد معانيها بشعره ، وان يستلهم صورتها من حرقته ومن معاناته ، ومن خلالها يحاول ان يبعث الوميض الى كل ما هو رائع في الحياة ..

ولكن هذه الاشياء الرائعة ليس من السهل أن تكون في متناول اليد وأن تمتلكها ببساطة . فقبل الوصول اليها ثمة رحلة لا مندوحة من عبورها واستخلاصها رحلة يبدأها الشاعر من نفسه ويتطلع للاخرين من خلال ذاته وتكون بداية الطريق لوعيه بالاشياء من حوله . والشاعر الاصيل كالزهرة تنشر أريجها حولها قبل ان تعطيه للاخرين ، فهو يبدأ بنفسه فيتعمق في أغوار ذاته باحثا عن كنه أشياء بعيدة قد تكون مؤثراتها واضحة في حياته وقد تتلاشى مع مكنوناته الدفينة .

وعلي الرقيعي مثل أي شاعر أصيل كان لا بد له من هذه الرحلة وهو في بداية طريقه .. لا بد له من غربة يبحث فيها عن أعماق ذاته ..

اني غريب سادر عبر المجاهل في الظلام ..
أمشي بأقدامي الكليلة فوق مرذول الرجام ..
متعثرا أخشى السقوط من الوراء الى الامام ..
وهل الغريب البائس المنهوك يحفل بالمدام ..

وعلى أي حال ، فرغم انه منهوك القوى ويخشى السقوط في هذا الظلام ، فالرائع حقا انه يمشي بأقدامه وحتى ولو كانت كليلة . وطالما هو يمشي فلا بد ان يكون هناك أمل ، رغم هذه المجاهل التي يأسوها شاعرنا ويزدري الحياة معها .. وكيف .. كيف يعيشها ؟ ..

أأعيش في هذي الحياة صدى حزينا كابيا ..
لا شيء الا الذكريات الباكيات لحاليا ..

انه لا يمكن ان يعايش مثل هذه الحياة .. ولا شيء يغرينا فيها بالبقاء .. وطالما انه :

لا شيء يغري بالبقاء ، فكم أحن الى الرحيل ..
للغيهب المسدود ، للغز المحير ، للافول ..
للتيه ، للوادي الملفح بالدجنة والذبول ..
بل للفناء ، القبر ياتعس النهاية والمحول ..

فلا بأس من الرحيل .. ولكن كلا ، لا تصدقوه هنا .. انه فعلا يأسو حياته هذه التي يعيشها بكل ما فيها من رتابة وضياع وخمول الى حد يدعو فيه للفناء والقبر الا ان مأساته هنا (ان صح هذا التعبير) تتمثل في انه لا يعرف اين يجد نفسه ، فيعتريه الغضب ويزمجر هادرا صارخا حتى بالنهاية والمحول . وهو يمضي مع رحلة يتيه فيها الى عالم آخر ، ويعبر من خلاله عالم (ايليا ابو ماضي) . انه هنا في (أصداء بعيدة) - فيلسوف بائس تعبق كلماته بالتشاؤم ، فيلسوف يائس من حياة يعيشها ويختلق صورا من عوالم أخرى ، الا انها في حقيقتها ترتكز على اعماق ذاته نفسه . هو الغريب الذي يأس من الحياة ، لانه لم يمتلك بعد أداة الوضوح الصحيحة ..

وتحمله رحلته الى أجواء بعيدة يتساءل فيها عن لغز الحياة والموت وما بعد الفناء :

هل ترى اني اذا مت وقد ..
هوم الليل بأستار الغيوم ..
أين أمضي ؟ هل الى دود الثرى
هل الى أغوار مهواة السهوم ؟

ويعذبه القلق مع (اصدائه البعيدة) ويحزنه

الاسى من ضمور حياته فيصرخ فيها ويعطيها (بتضخيم رومانتيكي) كل ماعنده :

هاكه جرحا يؤز النار في روحي وحسي ..
هاكها اجهاشة محزون تعيش أي تعس .. ؟
هاكه قلبا حزينا مضه ارهاق نفس ..

ولا يجد في رحلته ما يؤوب عليه سوى ذاته .. وروعة (ذات الشاعر) تكون دائما من هناك ، من قلبه المعنى ، من (هينمات النفس) تجد منطلقها . وفي الشعر خاصة تجد وسيلتها ووراءها اذن لتعيد اليه هذه الهينمات ، فما احراها ان تعيد البهجة الى قلبه :

هينمات الشوق والبهجة والاحلام عودي ..
واعيدي ذكريات الامس للقلب الشرود ..
بالسناء الماتع العذب ، بعذري النشيد ..
ترجع البهجة للروح وأصحو من جمودي ..

وعبر بهجة الشوق والذكريات يعطي الشعر كل أشجان قلبه ويمنحه كل مكبوتات نفسه فينطلق من خلال ذاته الى مدى أبعد ليحدثنا عن (حياة قاحلة) ولننتبه الى تقدم خطواته من عذابه القلق واصدائه البعيدة مع لغز الفناء والموت الى محاولة الغوص في حياته القاحلة ، رغم انه يعانقها من زاويته الخاصة يرتكز فيها نفسه وهو الذي لم يكن (أحمق) ولا (جهولا) :

هذي حياة الاحمق المأفون مفناج لعوب ..
هذي ابتسامات الجهول على مدى الثغر الطروب
الا حياتي شقوة وتمزق عاتي الهبوب ..
الا انا في خاطر الايام تلفحني الخطوب ..
الا انا من عنوة الاسقام محزون كئيب ..

وهكذا ننظر كيف أحال من (حياة الاحمق) و (ابتسامات الجهول) اضافة دراماتيكية لتأكيد ذاته واعطائها الشكل المميز في جو معبق بالرومانتيكية تظلله أجنحة جبران خليل جبران والشابي . والتمييز الذاتي هنا يشير لنا بلمحة حادة الى وجود صراع داخلي مع ذاته نفسها فيقول مواصلا حديثه عن حياته القاحلة :

ضجت جراحي في الجوارح ، في الجوانح باللهيب
وقست على ذاتي الشقية بالعنا الفظ الغضوب..
فتململ القلب المعنى بالمواجع والكروب ..
يرنو الى الامل المكفن في توابيت الغروب .

وهذا الصراع الداخلي سوف لا يكون عبثا ، بل هو الذي يصل به الى طريق الفهم والوضوح ويدفع به الى ابعد من ذاته الشقية .. وقلبه المعنى ..

(٢)

حقا ليس أثقل على شاعر من حياة قاحلة كل ما فيها جذب وجفاف .. فالمرأة مقيدة ومسجونة وراء الابواب والاسوار ، والمجتمع منغلق حول نفسه تتحكم فيه عادات وتقاليد وموروثات قديمة وتتنازعه اشجان الكبت والحرمان والضياع تملأ النفس وتثير الاصداء وتصنع الالم والعذاب .. وقلب الشاعر (ولا ننس اننا في صبغة رومانتيكية) صفحة بيضاء تتفتح على الدنيا وتستلهمها وتبدأ في رسم خطوطها عليه .

وشاعرنا الرقيعي عندما فتح عينيه في عالم الشعر بعواطفه المجنحة بكل احلامه واشجانه .. سارع باعتلاء أول مركب صادفه ناشرا لشراعه،ومضى هائما به متغنيا بجراحه ولعله كان يحاول ان يجد فيه عوضا لحرمانه ومأمنا من حياته القاحلة .. كان هذا المركب هو شعر جبران وأبي ماضي والشابي وبعد ذلك فدوى طوقان ونازك الملائكة .

ويسير المركب تتيه به الامواج وتحتويه ظلال وردية تهفو اليها نفس الشاعر وتنغمس في اريجها مستعذبة مذاقها فيغني للحب وليالي الوصال والقمر والجمال . ثم يعكس الرؤية فيغني للهجر والبعد والسقام والليل الشاحب .. ومن خلال كل هذه المعاني والمعايير كان الشاعر يصب مرارة حياته وتجربته الخاصة في اكثر الاحيان في قوالبه الشعرية وهويتيه مع مركب الاوهام :

في مركب الاوهام ، في ركب الهواجس والضنى..
أمل تلاشى في مفازات الكآبة والعنا ..
دامي الجوانح ، ذاوي الاشلاء ، مصدوع المنى ..
يهوي الى الجوف السحيق ، فلا ضياء ولا سنا..

ومع مرارة حياته القاحلة لا يلبث ذلك الصراع الداخلي أن يخز جنبيه وينبهه وهو في تيهانه مع (مركب الاوهام) فيصرخ في نبرة رومانتيكية مفتشا عن الصباح .. عن طريق الوضوح :

يا خليلي ، هذي الدرب دربي ، فاتركاني معصبا بجراحي ..

خلياني اهيم ، اغشى ظلام الليل وحدي مفتشا عن صباحي ...

لست اخشى الغيوم ، لا عتمة ، لا ظلام ، لا الليل ، لا غضوب الرياح ..

حقا انه لن يظل كذلك .. سينطلق من مركب الاوهام الى شاطىء الحقيقة ويلتقي بالصباح ويقدم

للناس نضج قلبه وروحه وعقله .. وهناك سيلتقي بأروع ما يتغنى به شاعر لان ..

وراء الضباب يكمن نور الفجر ، يرنو لقلبي الملتاح

اذن من خلال الشعر المهجري وابو القاسم الشابي وفدوى طوقان ونازك الملائكة استمد علي الرقيعي نسيج خيوطه الشعرية في بداية تفتحه ، باحثا عن منبع يروي به حنينه الظامىء ، ووجد هذا النبع الذي أغرقه حتى الثمالة ولكن ليشعره بعطش اشد قسوة وضورا ، وليعمق في نفسه الاحساس بالمرارة الى حد البكاء والتوجع ..

وبما عرف عن الشعر المهجري وشعر الشابي المتأثر به من ظلال رومانسية مغرقة ، ومن اصداء كئيبة تغلف النفس بالحزن والاسى ، ومن ضبابات فكرية تجنح للخيال والتفلسف تعمقت النظرة المأساوية عند الرقيعي في مرحلة تكوينه الاولى وزادت حساسيتها معاناة الشاعر الخاصة وتجربته الاولى مع الحب والمرأة والى افتقاده لعطف امه وحنانها حيث توفيت قبل أن يدركها الشاعر ، فالهبت في نفسه مواطن التوجع والسقام الذي ينضح به شعره في هذا الديوان ..

والحقيقة التي لا بد من تأكيدها ان علي الرقيعي، بهذه الظلال الرومانتيكية المغرقة وفي انسياقه وراء الشابي والتيار المهجري لم يفقد اصالته ولم يكن يتكلف الشعر بمحض المحاكاة كما يحدث عند بعض الشعراء المقلدين . « وأعني هنا بالخصوص تلك التفسيرات الخاطئة التي أثبتها الاستاذ محمد صادق عفيفي في كتابه (الشعر والشعراء في ليبيا) تجاه الانتاج المبكر لهذا الشاعر واحكامه عليه ، وهذا الكتاب في العموم مليء بالكثير من المغالطات تجاه تقييم الشعر في بلادنا » ..

كما لم يكن تأثر علي الرقيعي بالشعر المهجري والشابي من باب التقليد ، بل هو مرحلة عبرها الشاعر الى آفاق أوسع وأكثر وعيا وتفهما لقضية الشعر . ونستطيع ان نتبين هذه المعاني في بعض قصائده في هذا الديوان نفسه ، وفي شعره الذي نشره بعد سنة ١٩٥٧ م على وجه التقريب والذي جمع بعضا منه في ديوانه الثاني .

وهذه الاصالة كانت في اعتقادي الحصن الامين الذي حمى علي الرقيعي من الانغلاق والتمزق الفكري ، ثم دفعه بعد ذلك الى طريق التفتح خاصة عندما استوعب النماذج الشعرية الجيدة لعمالقة الشعر الحديث مثل عبد الوهاب البياتي والسياب وعبد الصبور فوجد اداته المعبرة التي يسبر بها اغوار الحياة من حوله ، بل يمكننا القول ان اكتمال اداة الوضوح عنده وانصياع الملكة الفنية وصدق تلقيها وارتباط مضمونها بالتجربة المعاشة ، تتفوق على الكثير من الشعراء المعروفين مثل السياب وعيسى الناعوري وجماعة مجلة (شعر) وغيرهم وسنلتقي بتوضيح أكثر في هذا الخصوص عند متابعة ديوانه الجديد ..

وثمة ملاحظة هامة أشار اليها الاستاذ خليفة التليسي في كلمته التي استهل بها هذا الديوان وهي ان الرقيعي .. « لم يتأثر بشيء كما تأثر بالمدرسة الشعرية الحديثة ولعله لم يدرس شعرا قديما او شاعرا قديما دراسته للشعراء المحدثين ، وذلك واضح في انك لا تستطيع ان تلمح في قصائده أي اثر لشاعر قديم ، لا في الصياغة ولا في المضمون » .. وهذه الملاحظة تعطينا دلالة ثابتة لاستيعاب الشاعر المبكر لاداته الفنية وفهمه العميق لروح الشعر المعاصر وقضيته ..

والشاعر من خلال تجربته الخاصة ومن تفسيره الخاص لاحداث الحياة وصياغته لها كان يجمع خطوط نماذجه الشعرية والمرأة والحب هما ابرز هذه الخطوط في هذا الديوان واكثرها مرارة وعمقا والتصاقا بمعالم تطوره . ويمكنك في تتبع بسيط مع هذا الخيط الرفيع المنغرس في اعماق الشاعر ، ان تتبين انطلاق خطواته وبداية استيعابه لطريقه الجديد ..

وفي البداية يمكنك أن تقول : « ان عذاب هذا الشاعر وسقمه ومرارته هما : امرأة .. وحب .. والدنيا في عينيه قاسية وجائرة وموحشة اذا لم تمنحه امرأة تفرش طريقه بالحب والحنان .

والمرأة تستطيع ان تحدد ملامحها عنده كأم يلهب حنانها المفقود وامومتها التي ضنت بها الايام عليه فبقيت حسرة ملتاعة في خاطره .. وأمرأة كحبيبة فجرت في اعماقه كل مكبوتات الحرمان واللوعة وايقظت فيه حرقة الشوق للحب .. لكل العواطف المتأججة .. وبكل شحناته الرومانتيكية يعكس هذه المعاني ويصوغها في شعره ، ولكنه يجد ان ما يناله هنا ليس الا مزيدا من الحرمان وتأكيدا لحياته القاحلة وتعميقا لشجنه وأساه ..

وتغرقه شحنة الرومانتيكية في دوامة يدور فيها حول نفسه ويعكس (مأساة) ذاته في بعدها المحدود :

آه ما اقسى اللظى المشبوب يطغي في كياني ..
آه ما أدهى الاسى يهتاج في عمق جناني ..

أنا – في ليل عذابي – موجع الخفقة عاني ..
منشد آهاتي الحرى على سمع الزمان ..
عازف للحب ترتيل هوى قلبي الكئيب ..

ويتبلور احساس الحرمان وحرقة الشجن ومرارة الحياة عنده الى قوة قلقة تلهب صراعه الداخلي وتثير فيه نوازع الانتباه وتباشير اليقظة .

وفي البداية تتخذ المعاني عنده نبرات الغضب والصراخ والهدير المنعكس من معاناته الخاصة رغم محاولة دلالتها الواسعة ..

كبلوها ..
حجبوها ..
لفعوها ..
واحرصوا .. لا تكشفوها ..
وامنعوا النسمة ان تسطو عليها ..
لا تزيحوا سترها عن ناظريها ..
فهي من ظلمة كهف واليها ..

ويواصل مديره الغاضب في (لعنة الغباء) محاولا ان يلامس به جانبا من معاناة المرأة في بلادي :

لا تقولوا كيف لم يولع بها اي خطيب ..
فهي للغل وللكهف الرهيب ..
عانس تدنو الى شط الغروب ..
رهن احلام عطاش .. نهب هجي وندوب ..

ولا يلبث أن يتخذ غضبه شكل التحديد المعين ، فيبدأ بها (هي) وهو يواجه معها معركة (مصير) :

غدا .. ويح قلبك اذ تندمين ..
واذا انت يا حيرة سادرة ..
بكهف السكون ..
تجولين لهفة ضارعة ..
تقاسين لسع الالم والندم ..

وهو في غمرة غضبه ورصد انفعالاته ما كان – كما يقول الاستاذ كامل المقهور في مقدمته القيمة – ليكتشف الكابوس الذي يؤخر علاقاتنا الاجتماعية في هذه المرحلة من مراحل تقدمنا .. وينطلق من مرحلته الهادرة هذه الى انفتاح اكثر اتساعا ووعيا بحقيقة القضية فلم تعد عنده في جوانب معينة مشكلة امرأة بذاتها بل تتحول الى قضية المرأة بكاملها وهي تعيش في مجتمع يخنقها بثقالة من تقاليده وعاداته ، ويصنع منها بضاعة يبيعها بالذهب ويحرمها من أبعادها الانسانية التي يجب ان تتمثل بها في المجتمع ..

وتتجدد الرؤية عند الرقيعي وتتعمق نظرته للمرأة والحب ، فلم تعد عنده شيئا رومانسيا منفصلا بذاته ومرتبطا باحلامه وامانيه المحروقة اللظى بوهج الحرمان واللوعة بل الى قضية اساسية تتحدد خطوطها من صميم المجتمع ومن واقع علاقاته العامة ومواضع تكوينه ..

ويمسك الرقيعي بالمعالم الاولى للقضية عندما ابتدأ – كما يقول الاستاذ كامل المقهور – : « يرجع بكل فعاليته الى الواقع والى طبيعته » ويتخذ منهجا يعمق به اتصاله بأرضه وشعبه وتفاعله الحي بكل ما حوله ولا تلبث احساساته الصادقة ان تنطلق في طريق وعيها الى أبعد من ذاته الشقية وقلبه المعنى :

يا حبيبي سكن الآن تباريج هوانا ..
لا تلمني قد تصباني نوح الحزانى ..
والايامى ..
واليتامى ..
في بلادي ..
أنا ما زلت اغنيك ، ولكن في بلادي ..
في تعاريج المدينة ..
يبصق البؤس الضراعات الحزينة ..
في حنايا أنفس لهثي صوادي ..
تأكل الجوع .. وتستاف العفونة ..
في سراديب الدروب ..

ويلتقي بالفلاح في ارضه ، ويتكلم باسمه في قصيدة من (أجل حقي) ويواسي المحرومين الذين تعذبهم شقوة الحياة ، وينتبه الى ماضي بلاده البطولي في الكفاح ضد الاستعمار الدخيل فيستلهم منه قصيدة (امسنا الثائر) يغني فيها لنضال اجدادنا البواسل ، ويصم فظائع العدو الذي جاء ليصنع من ابناء الشعب عبيدا :

(ثار العبيد) فسلطوا الجلاد يخنق صوتنا ..
وتخيروا عمق السجون لكي تقوض عزمنا ..
وضعوا القيود ثقيلة ، وضعوا الجديد لقتلنا ..
لكن غدا لا بد ان تبدو براعم فجرنا ..

ويردد انشودة العائدين في أرض الميعاد السليب ويعانق (فتاة يافا) الحزينة ويهلل لموكب الفداء الزاحف في أرض فلسطين العربية ، وتلتهب كلماته بنيران الصراع المصيري ضد الاستعمار ومن اجل الحرية في المغرب وتونس والجزائر وفي كل مكان يناضل فيه الانسان من اجل حقه وكرامته ..

وهكذا يصل مضمون الرقيعي – كما يقول الاستاذ المقهور : « الى الواقعية الجديدة التي طغت كثقافة تعم العالم الانساني هذه النظرة التي تمجد الانسان وتكافح في سبيله » ..

السّبب

قصة : كامل المقهور

كان آخر المطاف يوم أخذوا البقرة ..

من يومها والحقد يأكل قلبه .. وعلى ملامحه العريقة .. فوق ثنايا خدوده .. ظهرت خطوط سوداء قاحلة .. لا يرويها الا العرق .. عرق الحقد . وعندما سال الدم الاحمر .. ونحرت البقرة .. وتأوهت (وصكت) .. وخرج لسانها من بين اسنانها .. وفوقها الجزار الضخم .. احس (علي) ان حياته قد تعكرت .. وان السلام الذي يرفرف في قلبه قد اصطبغ بالدم .

كان الشهر من اوله اسود كقلب يهودي جائع حاقد .. يوم ان صحا من نومه على صوت (البارازان) .. وتحركات عنيفة في السانية ، وأوامر ولهجات ترطن .. واحذية ضخمة ثقيلة تفسد جداول البرسيم والفول والفجل .. وخيم تنصب امام عينيه وسارية كبيرة عليها العلم الايطالي المثلث الالوان .. وبغال شديدة مربوطة الى اشجار النخل .. واعراف اشجار الزيتون يكسرها الجنود .. وطوابير منهم تقف في انتظام .. واوامر .. وكل شيء في ذلك اليوم يقلبه الى لون السواد .. تماما كقلب يهودي جائع حقود ..

وكان يقف أمام بيته مشدوها يدعك عينيه من آثار النوم ويقول (للتنينتي) في خضوع دون ان يفهم شيئا ..

— طيب ياسنيور .. لكن علاش سانيتي أنا ؟

وحاول أن يفهمه الكثير .. وحاول الاخر ان يسكته .. وحاولت امرأته (الزينة) أن تشده من يده عله يفيق .. ولكنه ظل يتكلم ودماغه يفور ..

— لكن ما عنديش غير هالسانية .. يا سنيور غير افهمني .. اننا نأكل منها .. نسكن فيها ما فيش مكان آخر نعيش فيه .. نو سنيور .. مافيش غيرها .

وكان (اللتنينتي) يفتح فمه مرة وأخرى يحاول أن يجد فرصة للكلام .. ولكن (علي) كان لا يفهم شيئا .. الا ان حقله الصغير قد اصابه التلف .. كان لا يرى الا الخيم والبغال .. والجنود .. وجداول البرسيم والفول وقد تحولت الى .. خراب ..

— علاش ياسنيور ..

وكان يشد شعر رأسه والزبد الطفيف الابيض يتناثر من بين شفتيه وعيناه تملأها الدهشة وبقايا النـوم ..

فلا بد ان يكون هناك سبب لاختياره هو بالذات .. لا بد من وجود سبب لهذه الكارثة التي تسقط على رأسه .. لا بد من سبب .. وفتح فمه آخر مرة في اعياء فلم يجد ما يقول غير ..

— علاش .. علاش .. علا ..

وقبل أن يكمل كلمته امتدت يد (التنينتي) الى أحد صدغيه بصفعة قوية اعقبها سكون موحش جامد يقف بينه وبين ضاربه ..

من أول يوم سكن في سماء (السانية) غراب أسود موحش وظله الغريب يمتد من فوق العلم ويظلل خيم الجنود .

وتعود (علي) الكثير .. عرف الجنود فأرسل زوجته الى أهلها في (البر) ، تعود ان لا يسأل عن سبب .. فهم هناك في السانية .. بأمر .. بأمر من ؟ لا أحد يدري .. ثم لماذا هم هناك ؟ بأمر .. بأمر

من ؟ لا أحد أيضا يدري .. المهم انهم هناك وليس هناك داع لسبب .

ولكن أشياء كانت تمتد من قلبه العريق الحي النابض . أشياء كالسم تسري الى جسده كله ولا تظهر الا على وجهه ، وعلى ثنايا خدوده ، خطوطا سوداء من العرق .. عرق الحقد حتى قتلوا البقرة فكانت نهاية المطاف .

وامتد الحقد في عنف من قلبه الى يديه .. كان يحس بالالم وهو يحش تحت ضوء القمر آخر جدولة برسيم بقيت له ليقدمها لبغال الجنود ، ومن بعيد كانت أصوات الجنود .. وارتطام الاحذية بالارض - تكسر حبات الزرع .. و (البارازان) كصوت الغراب يملأ السماء .. وصراع حاد عميق يأكل قلبه .. ويديه .. ووصله صوت أقدام (التنينتي) وهو يتجه اليه .. وهم أن يقول له أشياء جديدة .. ويقنعه .. ولكن الاخر قال :

- أراباتشو .. اراباتشو .. فييني كوا ..

وعندما وصله .. كان ظلهما يمتد بين سيقان البرسيم .. أسود بلون الحقد .. وكانت (المحشة) تترك بين السيقان ظلها المدور المرتعش .. وابتسم (علي) .. وقال :

- سي سنيور ..

ولمعت في خاطره أشياء كثيرة .. و (التنينتي) يكشر عن أنيابه ويرطن بالايطالية .

- لكن علاش نادينتي .. شن فيه ؟

فضحك الآخر في خيلاء .. وعندما كشر (علي) ولمعت جبهته ببريق حبات العرق وهي تتفصد من جبينه امتدت يد الضابط في قوة ثم هوت على صدغه.

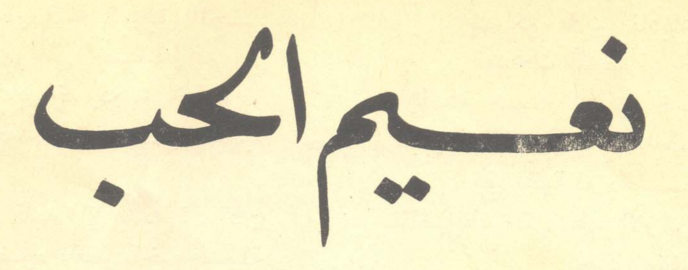
وفي ثانية لم يحسب لها (علي) أي حساب كان الضابط ملقى على الارض وفي عنقه المحشة .. وعلى الارض الطيبة مجرى صغير من الدم الاحمر .. وتأوه الضابط .. و (صك) وامتد لسانه ليخرج من بين أسنانه ثم .. خمد الى الابد ..

وعندما كان (علي) يجذب (المحشة) عن عنقه ابتسم في انتصار . وخطوط العرق تمتد على جبهته الملتهبة وهو يقول :

- كل حاجة لها سبب .. لما الحكومة تبعت وراي العسكر .. لما نخش الحبس .. والا حتى نموت .. نكون عرفت علاش ؟

وكانت الاصوات تمتد على السانية .. و (علي) يجري في سكون الليل يقطع السواني بعيدا عن الجثة .. وظل الغراب الاسود يمتد من فوق العلم ليعم البلاد الا قلوب الرجال حيث كان (علي) يبحث عن مخبأ .

* * *



شعر : خالد زغبية

والتقينا ، لم يعد للحزن معنى
لم يعد قلبي خفاقا معنى
لم تعد أحلامنا العذراء ، وهما
وتباريح ، وأنات ، وحزنا
لم تعد آمالنا الابكار طيفا
نحن صيرنا الهوى لحنا مرنا
نحن صيرنا الهوى في راحتينا
ألف دنيا .. ألف رؤيا .. ألف معنى
فالذي قد كان بالامس ضراما
من جحيم الحب ، صار اليوم أمنا
والذي قد كان بالامس نحيبا
من صميم القلب صار اليوم ، لحنا
يا حبيبي قد كفانا ما لقينا
من تباريح الهوى ، انا ثملنا

يا حبيبي ، قد كفانا ما لقينا
من عذابات الهوى .. هجرا وغبنا
قد كفانا أننا أمضينا عمرا تتشهى .. تترجى .. تتمنى
أن يجود الدهر يوما بلقانا
قد كفانا أننا اليوم انتصرنا
قد مضى عهد النوى لا كان هجر
مذ صبا قلبانا ، عدنا ، فاعتنقنا
فاذا الدنيا حوالينا رياض
واذا نحن طيور تتغنى
فارتشفنا من رضاب الحب عذبا
ونهلنا من سلاف القلب دنا
والتقينا لم يعد للحزن معنى
فانثنينا ، وانتشينا ، وطربنا

الأرض والسماء

شعر : محمد علي الرقيعي

عندما ينبض تاريخ بلادي
بك يا أنشودة الارض الابية
ألف احساس من النشوة يزهو
في فؤادي
ألف اشراق من الوجد المعنى
يتغنى
لك يا سرب العصافير الطليقة
في حديقـة
من بساتين بلادي المخصبة
ورباها الطيبة
حيث يورق
مشتل النعناع في ضفة ربوه
يهرق العطر بوجدان الهنيهات الانيقة
وعليها تغسل الفرحة وجه السنبلة
والحقول المثقلة
باللآلىء
وعليها حارس الكرم .. عليها يتحرق
شفه الدفء الشعاعي وناداه الحنين
غنوة تزهر في أعقاب غنوه

فاحمليـنـي
يا أناشيد انتصارات بلادي
للهضيبات الوضيئات الوريفه
وعليهن انثريني
تائها حملني الشوق بما لست أطيقه
وتغنيت له طول حياتي
ودعيني للروابي الخضر أشدو
وأنادي
آه يا سرب الصبايا في بلادي
ان لي في دربك الدافي حبيبا
هل رأيته ؟
أسمرا كالحنطة السمراء في أيام يوليو
عينه السهدية النعساء حلوه
ووديعه
ذات يوم دفئت روحي وقالت لي تعال
وانتظرنـي
وغدا .. لا بد أن تنهمر الارض السخية
بعطاهـا
غدا لا بد أن يأتي حبيبي .

من حرب البسوس

الى دون كيشوت

شعر : علي الغزالي

وتفاقم الطغيان ، جندل كل أطلال القرى ــ حتى
الخيول
نفقت مرابضها ، كما الطاعون يعبث بالطفولة كالسيول
نفر الثرى من بذرة ضمت غدا • ان الجحيم
يرمي شواظا من ردى : فجراحنا ملء الجسوم
أبكي على الوطن الكسيح •
ولو استطعت ، جلبت كل النادبات من النجوع
لكنه : موت تفجر من عروق الكادحين على الرصيف
والتائهين بلا غد • الاسراب الكاذبات من الوعود
هذي اذن : أحقاد مومسة تعود
في الغرب ، بعد دم يسيل من الشمال الى الجنوب •
هذا اذن : وجه العميل
يأتي من افريقيا • ــ ماذا أقول ، ولا أقول ؟!
لم يبق للقوم الاباة ، سوى القصاص من الذيول •
وسوى النضال بأن تكون ، لكي تكون •

* * *

يا ثورة الفقراء : اني قد افقت من الذهول •
وعرفت أن هناك قارعة تجول •

أنّا هنا نبني غدا • أنا نعيد
قدر العروبة للوغى • فلم الجمود ؟
أنظر هنا ، في كل قطر ، مثلما تفنى ثمود
يتزاحم الاجراء ــ أيد خاويات ، لا تعود
الا ربما تركت كلاب المستفيد من الجهود •
ماذا سوى : وطن سليب ••
وسقوط جدران البيوت على البيوت
ومن المحيط الى الخليج
ومن الخليج الى المحيط
دنيا من العبث المدثر بالندوب
ماذا سوى : « ميمي شكيب »
تعطي وسام العري في القبو المريب ؟
ماذا سوى : « نجوى فؤاد »
رقصت وما بليت عظامك يا « رياض » ؟•
وتفتح الامس القريب عن المخاض
في الخيمة السوداء • تبا ــ من مخاض !!
ومن المحيط الى الخليج
ومن الخليج الى المحيط
وطن يباع نخاسة • وطني الحبيب •

« كيشوت » : يلعب بالمصير .
أرأيت « كيشوت » الحقير ؟.
ومن المحيط الى الخليج
صمت يغلف كل أمواج الاثير على الهوان ، ولامجيب
ويح العروبة شدها سحر « السلام » الى الوراء من
الثقوب .
وخيوط أحفاد العناكب ينسجون
ثوب المذلة . « من كل فج يمرقون » [1]
آه من باعة أشلاء الحروف الداعرات ، ومن أباطرة
القـــرون !!
آه من مستعبد باسمي ، وباسم الاخرين .
يلقي علي ــ وما أتيت ــ ضياع جيل القادمين مـــن
الغيوب .
وكأنما غرق الشراع ، فيما يبين
الا الذي أعطى لهم . ــ أعطى تراب اللاجئين ــ .
فرعون يعطي ، ثم يعطي ، أنت حقا .. ما تكون ؟
لكأن ابنك لم يمت قبل الفطام ، بلا لحاف في الخيام!!
وكأن أطفال البحيرة ، لعبة للمترفين !!
آه على وطني الشهيد ،
رمما غدا ــ ولعاب غيد ،
يمتصه غاز ، ويعبث بالقضية من يريد ، ولا يريد .
أبكي على وطن قعيد .
أبكي ، وأكتب بالدماء على القبور ، من الوريد .
آلت عاهرة المعز الى اليهود من اليهود .
يا ليتها خسفت ، كما خسفت « سدوم » ، ولاجحود!
يا ليتها ــ هزمت على خشب الصليب ، ولن نعيش .
ماذا هناك على المنابر والوصيد من النقوش ؟
ماذا هناك على الشواهد في العريش ؟
سفاح أمتك القديم ــ ألا تفيق ــ ؟
يمشي اللقيط مع اللقيط ، على رفاتك يا شهيد
يتصافحان كما الاليف مع الاليف ويخطوان علـــى
اللحــــود .
أوليس ما سفك العتاة من « الفهود »
دمك الذي أمسى الى أبد المدى زلقا صعيد ؟.
يا ويلتا ضلوا : وقد صرع المنون
عملاقا ورث التمرد واستفاق على لهاث الخائنين
صوتا يجلجل في سمائك ، كالقنابل ، كالرعود
عادت (مرة) في صدى الوقع المدمدم من جديد .
عادت (خزاعة) في (تميم) ،
جمعا تدك به الجبال ، وينتهي المد الغشوم
وكأن أطفال البحيرة ، لعبة للمترفين !!
لكن (يهوذا) ، فيهمو أبدا مقيم .
لا زال يقتحم الظلام الى الركوع على المذل من التخوم
حتى هوت كل الحصون ، من الثغور على الهشيم .
ومن المحيط الى الخليج
ومن الخليج الى المحيط
سيظل يومك يرقب اليوم العظيم
سيجيء كالطوفان ، كالريح السموم
ويهد أسوار العمالة والحدود .

---
١ ــ من قصيدة « الطوفان آت » مع اختلاف الوزن .

الادب الليبي المعاصر

عبد الله القويري

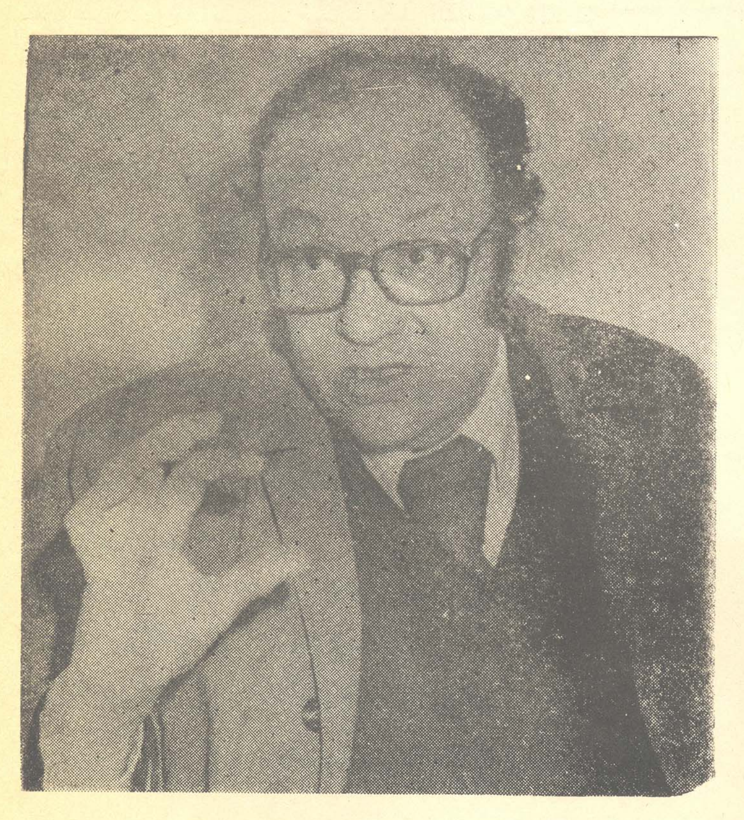
بقلم : نجم الدين الكيب

- ١ -

أرغمت ظروف الاحتلال الايطالي لبلادنا عددا غير قليل من المواطنين على الهجرة والعيش في كنف وطن غير وطنهم الاصلي وان يعيشوا في منفاهم طيلة حكم ايطاليا الذي دام اكثر من ثلاثين عاما وبالتالي فان عددا غير قليل من ابناء ليبيا قد ولدوا في المهجر ورأوا النور في الاوطان التي اختارها آباؤهم كملجأ لهم .

ورغم الظروف القاسية التي عاشها المهاجرون في منفاهم الا ان نفرا منهم استطاع ان يحصل لابنائه فرصا للتحصيل العلمي ، وبهذا تمكن بعضهم من الحصول على الشهادات العليا ومن اولئك الذين ولدوا ونشأوا في الاغتراب من آنسوا في انفسهم القدرة على الممارسة الادبية بأشكالها المتعددة وقد عبروا عنها في البيئات التي عاشوا فيها وكانت لهم مشاركات ومساهمات أصبحت منطلقا أدبيا لهم بعد ان عادوا الى الوطن الام وانضموا الى الحركة الادبية الناشئة واكتفى بالاشارة هنا الى الاستاذ عبد الله القويري الذي اخترته ليكون موضوعا لدراستي هذه .

عندما عاد عبد الله القويري من مصر في اوائل الستينات كان الادب في ليبيا يحاول أن ينطلق من نقطة البداية معتمدا على نخبة من الشباب التي اخذت تسهم في انتاج ادب طموح في شتى مجالاته ، ولعل الشعر والقصة القصيرة كانا في مقدمة الاجناس الادبية التي باشرتها الاقلام الشابة بجدية وحميمية واضحة . وكان القويري في بداية مشواره عندما انضم لحركتنا الادبية الناشئة فقد شغل نفسه بكتابة



القصة القصيرة المتميزة بانتماءاتها الى البيئة المصرية – والريف المصري على وجه الخصوص – ونشر وهو في مصر تجاربه الاولى في الصحف والمجلات المصرية وقد اطلعنا على ما كتبه في هذه الفترة المتقدمة على عودته الى ليبيا على بعض مما كتبه من نماذج قصصية ضمن مجموعاته القصصية التي نشرها تباعا وكانت مجموعته الاولى تعبر عن التحامه بالقضايا

المطروحة في مصر في أوائل الستينات وفيها وهج الثورة المحمومة التي تدق طبولها وتجدد شبابها عبر السنوات المتوالية على ثورة ٢٣ يوليو أفضل نماذجه القصصية المرتبطة بهذه المرحلة هي تلك التي نشرها بعنوان (مونة العيال)و (النار) وغيرها وهي نماذج – كما قلت – لصيقة بقضايا الفلاح المصري وهي تكشف عن همومه التي كابدها قبل الثورة وتصور لنا الظلم الفادح الذي كان يلقاه في كنف مجتمع اقطاعي ممعن في الجور ولا جدال في أن – قصاصنا قد وجد نفسه بعد عام (١٩٥٦ م) مدعوا بداعي المواطنة – كمهاجر في مصر – أن يسبح مع المد السياسي السائد هناك ، وأن يسهم بنصيبه في دفع القوى الثورية وتنشيطها باستحضار ذلك الماضي البغيض الذي جعل من الفلاح المصري مجرد اداة انتاج وخادم مطيع للارض حتى اذا ماغلت غلالها وأعطت محاصيلها عندئذ تخرج من ايديهم لتؤول الى أيدي قلة من الكسالى المترفين .

وبالمقياس الزمني وبحساب المرحلة التي كتب فيها القويري قصصه الاولى وانهاتعد منانضج القصص التي لا ابالغ اذ أقول بأنها تقف جنبا الى جنب الى جانب أجود القصص التي يباشر كتابتها قصاصون متمرسون بكتابة القصة ففيها – بالاضافة الى خطها الملتزم بقضايا الجماهير الكادحة – ما يستلفت النظر لبراعة كاتبها في تطويع الشكل لخدمة المضمون في تلقائية وعفوية ملحوظة مما جعلها تبدو وكأنها قطعة حية من الحياة نفسها كما ظهر القصاص براعة واضحة في تسخير الحوار بلغه أهل الصعيد بواقعية وبساطة يحس معها القارىء بأن الكاتب قد استحضر الريف المصري بجوه العبقبرائحة الطين الممتزج بحبات العرق الادمى ..

ويمكن للمرء ان يقول اعتمادا على تلك النصوص القصصية التي كتبها في هذه الفترة ان القويري قد تشكلت موهبته في اطارها وانتماءاتها للبيئة التي نشأ فيها بكل ما تضج بها من قضايا ومشاكل في فترة التحول التي كانت تعيشها مصر في الستينات .

عاد عبد الله القويري ليقيم في بلاده اقامة دائمة وترك وراءه الوطن الذي مشى فيه طفلا وترعرع فيه شابا ورجلا وفوق ذلك فقد كانت صلاته به ككاتب قد توثقت وانه بدأ – بالفعل – يضرب بخطواته الاولى في مجالات الادب والقصة على الخصوص ومن هنا تبدو لنا مقدار تلك المعاناة التي بذلها وهو يحاول أن يتكيف مع البيئة الليبية الجديدة وهذا ما جعله يقول في كتابه (معنى الكيان) ص ١١ « ان عودة المهاجرين وارتباطهم من جديد بالوطن هو بذاته يمثل مشكلة جديدة وذلك انهم ارتبطوا بواقع آخر وتمثلت نفسياتهم الحياة فيه .. فعودتهم لم تعد تحمل لوطنهم شيئا فكما نما اخوتهم في الداخل بعيدا عن النشاط الحضاري الذي مثله الايطاليون نمواهم بعيدا عنهم ولكن في بيئة أخرى واخذوا مجالا مترابطا بتلك البيئة وانعكاساتها » أجل فقد أحس القويري بأنه عاد الى وطنه ولكنه (في حالته هو) لم يكن يحمل له سوى ذكريات باهته سمعها من اسرته عندما تلتقي على (كانون) الشاهي ليدور الحديث بلهجة لا هي بالمصرية ولا هي بالليبية انها لهجة وسط هي أقرب الى لهجة أولاد على ولاشك ان الكاتب الذي يريد ان يبدع في أي مجال من مجالات الادب لابد له من العودة الى مخزون الذاكرة والى تلك التجارب التي مرت به في حياته طفلا أو شابا أو رجلا وبدون ذلك يبدو من الصعب على أي أديب أن يعطي ادبا ابداعيا له قيمته في بيئة لايكاد يعرف عنها الا الشيء القليل ومن هنا فانني اتصور حجم تلك المعاناة التي تكبدها قصاصنا (القويري) من أجل ان يكون كاتبا منتميا للبيئة الوافد عليها حديثا ويزيد من صعوبة الامر أن كاتبنا يحمل قلما خلوقا وملتزما لايلجأ الى التمويه على القارىء من اجل اثبات وجوده الادبي بقدر مايريد أن يؤكد حقيقة واقعه ويحكي لنا الكاتب ما أحس به من احراج عندما وجد نفسه مطالبا بأن يستأنف مهمته ككاتب معترفا في شجاعة (لا ليس سهلا أن آخذ ما أراه الان في الشارع وأسمعه في مقهى أو أسأل عنه شخصيا لا صنع منه قصة سردية ذات جو فصيح ولا جعل بها عنوانا ثم اضع تحت العنوان كلمتين هما (قصة قصيرة) لم أتعود أن آخذ الامور بهذه السهولة حتى ولو كان الامر قصة صغيرة طلبت بقصد او بدون قصد) (١)

ومع ذلك فان القويري الذي اقام في بنغازي بعيد عودته من مصر مباشرة قد طرق الكثير من الموضوعات التي اتخذ منها مادة لقصصه وان التحامه بالواقع الجديد ليس مشكلة مادامت هنالك الحوافز التي تلح عليه في كل لحظة بأن ينتمي فالكاتب الحق هو ذلك الذي يستعيض عن احداث قديمة بواقع حي ويؤكد نفسه في كل شيء تقع عليه عيناه ولنتركه يحدثنا مرة اخرى عن تجاربه القصصية التي انطلقت من ذلك الواقع الخارجي الذي بدأ يعرض عليه نفسه !؟

(كانت شوارع بنغازي تعيش آثار الحرب . كل ركن مهدم ، كل شارع فيه ما يدل على اثار القنابل والانفجارات المباني نصفها قائم والنصف الاخر خراب،

عمارات رمم بعضها وترك البعض الاخر ويستطرد الكاتب فيقول (والصفار حملوا العبء من اجل لقمة الخبز وكان النشاط في أي مكان وبأية واسطة وسيلة للحياة فمثلها الحياة صعبة وقاسية اثناء الحرب بل اشد قسوة وصعوبة ان الجروح والنفوس تتيقظ والرغبات تتصارع والمعاني تبنى من جديد والتقاليد تستعيد سيطرتها فكان اتجاهي للصفار اذ كنت أرى حركتهم في الطرقات وامام المقاهي بداية لحركة في وطني واخذا للمسئولية باكرا كانت قصة (سلم راجلها) هي أول قصة ليبية كتبتها فكانت بداية جديدة لعناء الانسان لايمل يبدأ كل مرة من جديد .

- ٢ -

وقد تحول الاستاذ عبد الله القويري بداية من قصة (سلم راجلها) الى كتابة العديد من القصص التي تستلهم البيئة الليبية التي اخذ يتفحصها بعينين ذكيتين في الشارع والمقهى وفي وجوه الناس الذين يلتقي بهم ولكن ظلت هذه القصص تحوم حول المجتمع الليبي دون أن تغوص فيه او تستجلى واقعا مطمورا تحت قشرته ولم يكن هذا شأنه مع جميع القصص التي كتبها ففي البعض منها ينجح القويري في النفاذ الى ماتحت القشرة ويكسر الحاجز الفاصل بينه وبين مجتمع يقيم الفواصل بين المرأة والرجل وتسيطر عليه تقاليد راسخة وقصته (سلم راجلها) تعبر بحق عن (عناء انسان لايمل أن يبدأ كل مرة من جديد) وهي نقطة تحول في اسهاماته الواعية بعشرات من القصص التي كتبها بعد ذلك وليس من شك في أن هذه النقلة التي ارتحل فيها بوجدانه من البيئة المصرية التي نشأ فيها الى البيئة الليبية التي بدأ يخالطها وقد وضعت علاماتها المميزة في أدبه القصصي ولابد للمرء أن يعترف بأن القصاص قد بذل جهدا كبيرا وهو يحاول ان يفلت من ذلك المسار الذي مشى عليه في بداية أمره واستطاع أن يلمس جوانبا في المجتمع الليبي والوصول الى نماذج من الناس تعتبر شرائح حقيقية له فبالرغم من أن محيطه الاجتماعي مايزال محدودا باطار الشارع والمقهى الا ان قدراته الممتازة كقصاص قد غطت على نواحي الضعف في مضامينها وانها استطاعت أن تقنعنا بأنها قصصا لم ينشئها صاحبها من فراغ او ينطلق بها من لاشيء بل كان هناك امامه الواقع الحي الذي يعرض عليه نفسه ومنه استلهم موضوعاته واخذ نماذجه القصصية ، فقصة (سلم راجلها) على سبيل المثال هي من ناحية المضمون تعنى مجتمعنا الليبي الذي كان يمارس على المرأة عبودية مطلقة تجعلها مخلوق هامشي يدور في فلك الرجل والذي يطالبها دائما أن تسلم قيادها له وأن تكون تابعة كما يتبع العبد سيده ..

ولعل القصاص اراد بهذه القصة ان تكون اسهاما منه في معالجة قضية المرأة التي كانت مطروحة بعنف في الخمسينات والستينات على مختلف الاصعدة والمستويات وكان ان وجد الكاتب نفسه مدعوا ليدلى بدلوه في هذا المجال بعمل ابداعي يتحسس فن هذه القضية ، ويحاول أن يضع لها تصورا اجتماعيا بأسوب القاص ولعل هناك من بين كتابنا من سبقه في هذا المجال ، وان هناك قصصا - كتلك التي كتبها الاستاذ - عبد القادر ابو هروس ، ومحمد فريد سيالة - حاول فيها الكاتبان أن يتحسسا قضية المرأة ، ولكن - يبدو لي - بالمقارنة معها انها تتقدم عنها من الناحية الفنية فقصص القويري كانت قد اكتسبت سيماتها الفنية من البيئة المصرية الادبية دون شك قد ترسخت فيها القصة القصيرة ونضجت شكلا ومضمونا .

لم يرض القويري - كقصاص - أن تكون اعماله القصصية أسيرة الشارع والمقهى أو يظل أسيرا لما يراه أو ما يسمع به دون أن تكون له خلفية اجتماعية ينطلق منها ، فعبر السنوات المتوالية زادت تجاربه واتسعت مداركه وكثر احتكاكه بالناس وبالبيئة والمجتمع وزاد كذلك من تمرسه بما يقرأه من مناقشات في الصحف المحلية وكانت هذه قد بلغت شأوا بعيدا في النشاط الادبي الذي تلى عام ١٩٥٦ م .

وبدون شك فان هذه الامور جميعها كانت عوامل مساعدة في ترسيخ انتمائية القويري في البيئة الادبية الليبية فكتب قصصا تعد بالمقارنة الى ما كتبه قصاصون آخرون ذات مستوى جيد سواء في انتمائياتها أو في اسلوبها الفني المتقدم .

- ٣ -

يعتبر الاستاذ عبد الله القويري غزير الانتاج بحيث اصدر في خلال عقد من السنين مايزيد عن خمس مجموعات قصصية كانت الاولى بعنوان (حياتهم) يناير ١٩٦٠ م وهي تضم خمس عشرة قصة . اما المجموعة الثانية فهي تشتمل على خمس عشرة قصة نشرها تحت عنوان (العيد في الارض) ١٩٦٣ م ، ومجموعة ثالثة تحمل اسم (قطعة من الخبز) نوفمبر ١٩٦٥ م ، والمجموعة الرابعة اسماها (الفرصة

والقناص) نوفبر ١٩٦٥ م ، وله مجموعة خامسة بعنوان (الزيت والتمر) نشرها ما بين عام ٧٢ و ١٩٧٣ م .

هذا جانب من نشاط القويري في مجال القصة ولكن كاتبنا كان متنوع العطاء بحيث لم يوقف به الاسهام في مجال القصة فحسب بل غطت اسهاماته الاخرى العديد من النشاطات الادبية وبدت بصماته اكثر وضوحا وبروزا فيما انتجه في مجال المقالة الصحفية ذات الاغراض المتنوعة وقد أثمرت هذه الكتابات التي تغلب عليها النزعة الذاتية والوطنية والاجتماعية والنقدية احيانا العديد من الكتب التي صنفها بحسب اهتماماتها ولكن تظل كراستاه – معنى الكيان – وكلمات الى وطني – من أكثر الموضوعات التي طرقها اثارة للجدل والكراستان تتحسسان – وفي وقت مبكر – المفهوم الوطني والاجتماعي ولعل اهم ما في الكراسة الثانية ذلك الجزء الذي يتصدى فيه الكاتت الى تلك الفترة التي سبقت الاستقلال والتي كانت فيها البلاد تبحث عن هويتها الكيانية وتحاول عن طريق تلك التكتلات الشعبية التي انتظمت في شكل احزاب أن تعبر عن طموحاتها في الغد المرتقب ولاهمية هاتين الكراستين سنعود للحديث عنهما في الاجزاء التالية من هذه الدراسة ..

مامن شك في أن القويري هو الابن الحقيقي للصحافة فمن خلالها أطل علينا بانتاجه لانه قبل أن يكون كاتبا وأديبا كانت الصحافة هي المصدر الرئيسي الذي يتعيش منه ولكن القويري صحفي من ذلك الطراز الذي لايهدر جهده في القضايا اليومية والوقتية بل نراه يزاوج بين الادب والصحافة ومن يسلك هذا الاتجاه لابد له الخوض في قضايا الادب بالاسلوب الصحفي وتظهر استجابته لهذا النوع من الكتابة في مقالات اثار فيها قضايا تتراوح بين التناول السريع العاجل وبين الرصين الوقور المتأجج بالمعاناة الشخصية .

وقد جمع القويري مقالاته في كتب أذكر منها على سبيل المثال : (عندما تضج الاعماق) ١٩٧٢ م و (طاحونة الشيء المعتاد) ١٩٧٣ م ، واذا عدنا لنتفحص هذين الكتابين فاننا نقف على مقدار تلك المعاناة القاسية التي يكابدها الكاتب في معالجته لما ينبري اليه من موضوعات فأنت تشعر للوهلة الاولى بأنه يقتطع الكلمات من لحمه ويسلخها من جلده ويعطيها من دمه ويبعث فيها الحياة بعد أن تصبح ذات بريق وهاج – انها كما يصفها هو – قطرات دم سواء تشكلت في قصة او في مقالة أو في خاطرة او مسرحية فالكلمات عنده لم تكن مرتبطة بظروف طارئة أو حالات خاصة أو فرصة يمكن الاستفادة منها وعلى هذا النسق جاء كتابه (طاحونة الشيء المعتاد) فهو أيضا حصيلة تجارب نفسية مريرة مع الادب كمهنة ، وفيه نطالع المعاناة التي يتجشمها صناع الحرف ، وما يجدونه من متاعب في سبيل ان يقولوا كلمتهم الى الناس ، ويخصص المؤلف جزءا كبيرا من هذا الكتاب لفنيات الكتابة كمهنة حتى ليحولنا بالكامل على همومها ، ويعطينا رؤاه الخاصة في شكل نظرات عميقة في المجتمع والفن والحياة .

ان طاحونة الشيء المعتاد هو كتاب على درجة من الاهمية ولعله يتفرد من بين كل ما كتبه عبد الله القويري بهذه الخصوصية التي لانجد لها نظيرا في تجارب غيره من الكتاب الليبيين .

ويبرز من بين كتابات القويري تلك الكتابات التي يبثنا فيها شكواه ، ويحدثنا حديث الاعتراف عما يدور بداخله ، ومن هذا المنطلق يصل بنا الى رؤاه العامة في الادب والمجتمع والحياة ، واذا كان عبد الله القويري ينطلق في معظم ما يكتب من منطلق ذاتي ، الا أن الذاتية عنده تصبح أمرا مكرسا تماما في كتابه (عندما تضج الاعماق) ففي كل فصل من فصوله هناك (الانا) ولعل هذا المنطلق يعد حسنة من حسنات الكاتب ، ذلك ان الادب الحقيقي – وهذا في رأيي – على الاقل – يجب أن يصدر عن معاناة وهموم وتجارب عاشها الاديب هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان ادباؤنا كثيرا ما يتجاوزون (اناهم) الى القضايا رأسا – ولايكادون يحفلون بشيء يحكي عن تجاربهم الالماما ، والقويري له رأي في اسلوب التناول الذي يحوم حول (أناه) والذي يتخذ من معاناته الخاصة محورا اساسيا في بعض ما يتطرق اليه من موضوعات لنستمع اليه يقول : (صحيح انني اتحدث عن نفسي احيانا ، ولكن لا امدحها ، وكما نعلم فان الفرد ابن مجتمعة ، ويتأثر بالظروف المحيطة به ، وليس حديثي عن نفسي الا من باب ضرب المثل وأظنك معي في ضرورة أن الجأ الى الحاضر . فما زال مجتمعنا لايملك أقيسة موضوعية للامور فعندما تضرب المثل بأحد تضع نفسك في دوامة القيل والقال ، وربما اعتبروك تتمسح به اذا ما استحسنت موقفاً له أو فعلا أتاه واذا مانقضت

ما صدر عنه فمعنى ذلك انك تكرهه وبينك وبينه عداوة (١)

اذن فالقويري عندما يلجأ الى دخيلته مستيعنا بها في الوصول الى غايته في تجديد افكاره وعرض آرائه فأنه يفعل هذا من منطلق ضرب المثل الحي لدعم حججه ، واقامة براهينه على ما يريد أن يقوله ، وهنا يتاح للقارىء أن يقف - بالصدفة - على الكثير من ما يعن له من الجوانب الخفية في شخصية القويري ، وفي مناحي تفكيره . فاذا اراد ان يعثر على مفتاح يستعين به على فهم انتاجه فانه لاشك واجده بوفرة من خلال حديثه عن نفسه ، والحق فان المرء لايجهد نفسه كثيرا لكي يعرف من هو عبد الله القويري ذلك الكاتب الانسان الذي يقف بقلبه وبفكره ، واعصابه وراء هذا النشاط المكثف من الانتاج الادبي الذي يشمل القصة والمسرحية والمقالة ، ولا يعني هذا اننا لانحتاج الى الجهد الخاص لفهم انتاجه وانما نرى في احاديثه عاملا مساعدا على رفع بعض الغموض الذي يصادفنا في انتاجه ، وخاصة ما يتعلق منه بنواحيه الابداعية .

ومادمت بصدد الحديث عن كتاباته التي كان يظهر بها علينا من خلال الصحف اليومية فانه لابد لنا أن نقوم هذه الكتابات من خلال سؤال يطرح نفسه من شقيه : هل كانت هذه الكتابات صحفية للاستهلاك اليومي ؟ وما هو الاسلوب الذي درج عليه في تناوله للموضوعات التي يعالجها ؟

في الحقيقة فان كتابات القويري - وان أتت بها الوسائل الاعلامية اليومية - الا انها مع ذلك ليست كتابات انسيابية صاغها قلم عجول للاستهلاك الآني السريع ، وانما هي كتابات صادرة عن معاناة وقلق ، يصل الى حد التوتر احيانا . وان المرء ليحس بذلك في كل ما خطه قلمه ، وأظنه كان على حق عندما قال :

(لم تكن الكلمة عندي مجرد « افاري » ولم تكن موضوع « بزنس » ولكنها كانت قطرات دم - سواء تشكلت في قصة او مقالة او خاطرة او مسرحية ، لم تكن الكلمة مرتبطة بظروف طارئة أو حالات خاصة ، أو فرصة يمكن الاستفادة منها) (٢)

أجل لم يكن عبد الله القويري كاتبا عجولا لا يلهث وراء المادة التي كان من السهل جمعها لمجرد العثور على ذلك الذي يدفع اكثر ، أجل لم يكن هذا من أهدافه ، فقد كتب القويري مئات الصفحات للجرائد اليومية ومع ذلك لم يثر ولم يفتن ، وانما ظل ذلك الانسان المحب للحقيقة والذي يعاني في سبيل ابرازها والتعبير عنها بكل الوسائل المتاحة له .

اما الشق الثاني من السؤال فان الجواب عليه يكمن في كتاباته نفسها والظروف التي احاطت بها ، ومع ذلك فاننا اذا اردنا أن نقيم رأيا في الاسلوب الذي ينتهجه في كتاباته فلا بد من الاخذ بعين الاعتبار بملاحظات سمعتها شخصيا من العديد من القراء .

فكثيرا ما لوحظ عنه عدم الوضوح فيما يكتب والوقوع في التعقيد فيما يريد الافصاح عنه من آراء وافكار وانني لاجد ما ابرز به اسلوبه هذا سوى إنه اديب مطبوع يعتمد على منهج رصين في الكتابة لاينحدر بنفسه الى مهاوي الابتذال او يسوقه التبسيط الى تعلق العامة وانصاف المثقفين . ومن الحري أن القويري قد ادرك صعوبة هذه العلاقة بينه وبين القارىء ، وقد تصدى للرد والتوضيح معللا ذلك بقوله :

(كان رفض هذا سببا رئيسيا في عدم تناولي للامور تناولا مباشرا دفعني في أكثر الاحيان الى استعمال الرمز ، والى الايغال فيه في بعض الاحيان ، فالرمز هو الجوهر الذي تفصح عنه الكلمة بعد عناء من القارىء يقترب من عناء الكاتب عندما يقرر أن هذا الرمز أساس لايدرك في أول الامر أنه غائر في باطن الارض بعيدا فنحسب أن الارض لايوجد فيها ما يمكن أن يعتمد عليه فاذا بذلت جهدا وجدته هناك قائما يحمل تراب الارض وما فوق الارض) (٣) .

ومن قراءتنا للفقرة السابقة ندرك ان القويري يلجأ الى هذا الاسلوب المغلف بالرمز والمغلق أحيانا على الفهم لا لكي يضع القارىء في مطبات الاحاجى وحفر الالغاز وانما لمقتضيات فنية يعتنقها الكاتب ، وهو يطلب من القارىء - وهذا مالا أراه ممكنا مع جميع القراء - أن يحاول الاقتراب من عنائه هو لكي يفهمه ، ولكن بناء مثل هذه العلاقة لايمكن دائما توقعه مع كل القراء ولهذا فان القويري مطالب بأن يخصص جانبا من معاناته لتطويع اسلوبه للفكرة التي يريد أن يطرحها وخاصة اذا ماكانت هذه الفكرة مطروحة للتناول في مقال صحفي أي في غير مجالات المعاناة الابداعية الاخرى .

اذا كنت من الذين يعرفون القويري عن كثب فلا شك أنك تدرك ذلك الجانب الذي يتعلق بهدوئه المتزن في معالجة القضايا التي يتصدى لها فهو - يقول كلمته ويمشي - دون أن تستوقفه كثيرا تلك

الانتقادات التي لا يسلم منها احد وهو يؤمن بأن سلوك الاديب وتعامله وتفاعله مع زملائه يجب أن يكون نابعا من الاحترام والفهم المتبادل وينطلق من الموضوعية التي تصدر عن المحبة في كل شيء يتعلق بالنقد وهو يؤكد على ان موقفه هذا ليس مبنيا على الدعوة التي تبارك نقيصة الزملاء (ولكن بناءا على فكرة واعية تحاول أن تتجاوز العلاقات الشخصية وردود الفعل السريعة والحركات الطائشة) (٤) .

فبالرغم من ان حركتنا الادبية المعاصرة قد نمت في تلك الاونة التي امتلأت بالمشاحنات والمعارك الادبية ، فكان المجال واسعا لكثير من الاقلام ، التي خاضت فيها ، وللحق فقد كان لهذه المشاحنات وتلك المعارك جانبها المنشط للحركة الادبية ولكن بعضها الاخر كان ثغاء او حركات طائشة تدنت الى مستوى الاسفاف ، ولكني لا أعرف أن القويري قد جدف في هذا التيار او دخل في مسار هذه المتاهات التي ينطلق بعدها من (نقطة) الخلافات الشخصية البحتة فهو على الرغم من تقييمه الواعي لهذه المشاحنات والمعارك على اساس انها علامة تعطى الدليل الحي على (وجود مناخ ديمقراطي حضاري ثقافي) الا انه لايقر وجودها على اساس الافتعال بل يريدها أن تكون جادا وبحثا في جذور المشاكل والمعاناة الحقيقية لمشاكلها والعمل على فهمها وليس هناك عنده ما يقتل ارادة التفكير عند الافراد في مجتمع ما مثل وجود المهاترات اذ تجعل كل انسان صادق يبعد عن مجاراتها ويخاف منها ، وهذا ما حدث بالضبط - بالنسبة للقويري - فقد رفض أن يزج بنفسه في مثل تلك الخصومات المفتعلة التي كثيرا ما يدفعها الشطط بعيدا عن الجو المنهجي العلمي أو العلمية المنهجية التي تصير مجرد مهاترات لافائدة تذكر من ورائها .

وهكذا فاننا خسرنا بذلك الكثير مما كان يمكن القويري ان يسهم به في مجال النقد الادبي وان ما قدمه في هذا المجال يعد شيئا ضئيلا اذا قسناه بحجم امكاناته الادبية التي ترفعه الى مستوى النقاد ذوي المواهب العالية .

- ٤ -

ضمن بواكير انتاج عبد الله القويري ما نشر في كراستين صغيرتين الاولى بعنوان (معنى الكيان) والثانية بعنوان (كلمات الى وطني) ولم يكن من باب الصدفة أن يبدأ القويري في الاهتمام بقضايا الوطن في هذا الوقت المبكر (أي بعد عودته مباشرة من مصر) اذ وجد نفسه تلقائيا أمام الكثير من الاشياء التي فاجأته بحدة ، وايقظت فيه حس الكاتب الاجتماعي والسياسي ، فتضامن واختلف مع ما رآه في عاداته وتقاليده وحركاته وبدا كمن يرى أرضا جديدة لم يكن يسمع بها من قبل .

ومن هنا فقداخذ يطوف بنا في كثير من المناحي التي تتعلق بواقع ليبيا ككيان جغرافي وسياسي واجتماعي واقتصادي وتاريخي وثقافي ووقف بنا دارسا وباحثا عند كل هذه الجوانب وحاول أن يعطي لنا تقييما لها من خلال رؤيته الشخصية ونحن اذ نختلف معه في بعض منها الا أن كراسته (معنى الكيان) تعطينا آراء واضحة في العديد من القضايا الحماسية التي لم تطرقها الاقلام حتى ذلك الوقت التي ظهرت فيه هذه الكراسة وهي في مجملها تشتمل على تحليلات واقعية للمجتمع الليبي قبل النفط ذلك المجتمع الذي كان مبنيا على نمطية سلوكية بزعامة المدينة ومن هذه الناحية فهي - أي الكرامة - وثيقة اعتمد فيها الكاتب على الواقع الحي في تقرير ارائه وبناء افكاره بحيث تبدو هذه الكراسة الصغيرة في حجمها أحسن من كثير من الدراسات والابحاث التي قدمتها كتب تعد من المطولات وكتب اخرى طبعتها الاساليب الاكاديمية بطابعها وخسارة ان يتوقف القويري عن الاستمرار في مثل هذه الدراسات التي تخضع الواقع الليبي - متمثلا في الوطن بكامله - الى الدرس والبحث والتقييم ولو استمر القويري على نهجه في اصدار كراسات اخرى مماثلة لكان بين ايدينا اليوم دراسات كبيرة القيمة وبالغة الاهمية .

اما الكراسة الثانية التي اتخذ لها عنوان (كلمات الى وطني) قد وضعها المؤلف في اسلوب الرسائل ونهج فيها نهجا أقرب ما يكون الى الصياغة القصصية وربما احسست وأنت تقرأ هذه الرسائل أنك بصدد قراءة رواية يتوخى كاتبها التفاصيل الدقيقة ويرسم مظاهر حياة عريضة ويصور مجتمع ويرسم شخصيات في حالة من حالات التحول الذي أحدثه ظهور النفط في ليبيا واثر ذلك في تضاعيف النفوس وعلى مسار الاخلاق وتوجهات الافراد .. يقول القويري في مقدمة الكراسة بأن هذه الرسائل قد عثر عليها بعد ما مات صاحبها منتحرا ووجد فيها دافعا قويا لان ينشرها ، وربما يكون في هذا شيئا من الصحة ، ولكن هناك تدخل واضح وأكيد في جانبه اذ نراه موجودا في كل صفحة بل وفي كل سطر من سطورها .

وهذه الرسائل التي التأمت في هذه الكراسة

تنضح بالمرارة ، وتتوقد بالاسى والالم ، لكأنما عين الكاتب لاتكاد تقع الا على مساوىء هذا المجتمع ، ولا تكشف لنا الا عن الانهيارات هنا وهناك والتي نلمسها من خلال سلوكية الافراد ونزواتهم وتحولاتهم الجنوبية الى مجالات الاستغلال المادي من أقصر الطرق ..

ان هذه الكراسة لتعتبر وثيقة نادرة للمجتمع الليبي الذي دخل لتوه في عصر النفط وقدمه لنا بكل نزواته المحمومة واندفاعاته الطائشة . ان المرء ليشعر حقا بالاسى وهو يقرأ هذه الرسائل حتى يكاد لايرى من شدته الا ذلك الجانب المظلم الذي يقبع وراءه مجتمع آيل الي السقوط والانهيار ..

ان(كلمات الي وطني) تذكرني بقصة(المساكين)للكاتب الروسي فيدور ديستوفسكي من كونها هي الاخرى قصة اعتمد فيها المؤلف اسلوب الرسائل وكشف عن الاسى الذي كان يعيشه المجتمع في روسيا القيصرية .

فهو ما فتىء منذ عودته من مصر يكتب بين الفينة والفينة مسرحا يتراوح بين المسرحية ذات الفصول الثلاث أو المشاهد واللوحات ، وليس صدفة أن يبدأ هذا الضرب من النشاط بكتابة مسرحية كاملة عن (عمر المختار) فعمر المختار هو الاسم الاول الذي وصلت شهرته في الكفاح الوطني الى مسامع الكاتب وهو في مصر ولعله قد تأثر بما كتب عنه شعرا ونثرا وامتلأت نفسه فخرا وهو يرى هذه الشخصية الليبية تستقطب اهتمام شعراء كبار كشوقي وحافظ وتتخذ الاقلام من اسمه رمزا لكفاح شعب مجالد مصمم على المقاومة حتى النصر ..

كان القويري قبل أن يكتب هذه المسرحية تنقصه الدراية الكافية بالخلفية الاجتماعية ، ولم يكن يعرف عن المجتمع الليبي الا ما كان يراه أمام عينيه ، وكان هذا غير كاف للغوص تحت قشرته ، لذلك فقد لجأ الى التاريخ يتخذ منه سندا يعوضه عن ذلك النقص الذي يحس به — ولعله أحس به هو ايضا — في الناحية الاجتماعية ، وينجح في ابراز هذه الشخصية النضالية الرائعة مستعينا بما اطلع عليه من كتابات كرست لها او تلك التي أو مأت اليها عرضا في سياق المباحث التاريخية ..

ومسرحية عمر المختار تعتبر أول مسرحية ليبية من نوعها فلم يكن حتى ذلك الوقت الذي كتب فيه القويري هذه المسرحية يوجد عندنا مسرحا مكتوبا أو نصوصا يمكن الاطلاع عليها ، واذا كانت مسرحية عمر المختار تتحدث عن المقاومة التي تصدى فيها الشعب الليبي الى الطليان الغزاة ، فان مسرحيته الثانية (الجانب الوضيء) هي الاخرى مسرحية وطنية نضالية تتحسس الهموم الوطنية التي انشغل بها الشعب الجزائري إبان كفاحه للتخلص من الحكم الفرنسي ، نقول هذا وانما ظهر في هذه المسرحية ما يجعلها صالحة لان تكون معبرة عن كل الهموم الوطنية — وحتى الهموم الليبية — لان الكاتب اتبع فيها اسلوبا مبطنا يصور واقعا تتصارع فيه قوى الثورة مع قوى الرجعية المتخاذلة ..

وقد كتب القويري مسرحيات أخرى تتراوح بين فصلين وفصل واحد نشرها في مجموعته (الشعاع) اكتوبر عام ١٩٦٥ م وهذه المسرحيات لها توجهاتها المختلفة في المضمون وهي تحتاج الى قراءة متأنية للكشف عن القضايا التي تثيرها وبما انه غير ممكن الان على الاقل فانه ينبغي علينا أن نسجل هنا بعض الملاحظات الصغيرة المتصلة باسلوب المؤلف في بنائه المسرحي ، فهو يعتمد في جميع ما كتب من مسرحيات على الحوار القصير ، والاسلوب البرقي في المعالجة التي يطغي عليها الجانب الذهني ، وهي لهذا السبب قد تكون مسرحيات صالحة تماما للقراءة أكثر مما هي صالحة للتمثيل والتجسيد المسرحيين .

وفي الحقيقة ان مسرح عبد الله القويري لم يدرس بعد دراسة وافية رغم جهوده في هذه الناحية فقد كان لها اهميتها المرحلية وذلك بالنظر الى ندرة من يكتب النصوص المسرحية عندنا ولكونها مسرحيات ملتزمة بالهموم الوطنية والاجتماعية والانسانية ولعل الفرصة ستكون انسب لمعرفة عبد الله القويري الكاتب المسرحي لو خصصنا له بحثا مستقلا يستوعب هذه الناحية في نشاطه المخصص للمسرح .

(نجم الدين غالب الكيب)

---

(١) عبد الله القويري (وقدات) الاسبوع الثقافي العدد ٣٧٣ عام ١٩٧٨ م .

(٢) عبد الله القويري (عندما تضج الاعماق) ص ١٩ ط أولى.

(٣) عبد الله القويري (طاحونة الشيء المعتاد) ص ٨٣ ط أولى .

(٤) عبد الله القويري (طاحونة الشيء المعتاد) ص ٨٣ ط أولى .

(٥) المصدر السابق ص ١٣

(٦) المصدر السابق

العطاء المقهور

قصة : خليفة التكبالي

الاحياء في كل مكان .. الناس والحيوانات تزحم الدنيا .. في الازقة وفي الدكاكين في البيوت .. وحتى في الشوارع .. يصطدم بهم .. يحاول الاعتذار ولكنهم يشيحون عنه بعد أن يوجهوا له نظرة غاضبة شاردة تكويه وتصهر عواطفه حتى يتماوج في خاطره ألف معنى .. الف رجاء .. ولكن الفم العاجز الضيق الممتلىء بالاسنان واللسان يضيق بفيض المعاني .. فتصدر عنه بدل الاعتذار لجلجات حمقاء تصور ارتباكه وتنبىء عن تصادم مريع في داخله .. في داخله يقبع قلبه الاحمر يقاوم بعض سحب الدخان الذي تعلمه حديثا وينسج العواطف .. ويتلقى الطعنات ، فيبدو على وشك الموت ولكنه يولد بعد مزيد من الاسى دما اسودا يضخه في جسد الفتى فيرتعد ويرتبك ويتلجلج لسانه .. كلما التقى .. او كلما اصطدم بالناس .. فما اندر لقاءاته الحقيقيه بالناس .. اعترض طريقه غدير معكر الماء تسرب الى كل حفر الطريق ببراءه تامه .. وجعل من قضيه عبوره مشكله تتطلب التفكير .. اين هو العقل الذي يفكر .. شيئان لا يشتغلان في جسم الانسان .. عقله وقلبه .. عندما يشتغل العقل .. يتوقف القلب وما اندر ما يشتغل عقله .. وايضا ما ابخس حظه وما أخيبه .. خاض القعر الملطخ بالطين .. فأحس البلل يغمر قدميه من خلال الحذاء فأحس بمهانة مؤلمه وكأنه يتمرغ في الغدير ويعفر وجهه بطينه اللزج العفن .. لا هدف لديه .. الطريق وقدميه .. المشي يفرغ الحيويه .. يتعب القلب والفكر معا .. لا شيء يبقى هناك ليؤلم .. سوى الاعصاب وما أبسط ألمها ..بل وما ألذه.. البعض يسكر لينسى وهو يمشي ربما ايضا لينسى..او ليضل ويتوه..يتوه عن قلبه..السماء سوداء متجهمة..تمطر بعناد وبؤس..كأنها تبكي .. وغضب ما يغضن ملامحها كأي حمال مسكين لم يعد الناس في حاجة اليه .. ولكنه مع ذلك يصر على رفع الاحمال الاشجار صامتة بلهاء وقد بهتت حيويتها فبدت تحت مياه المطر النادرة كأنها طفل أرغم على الاستحمام فراح يقاوم ويصرخ حتى انهد وفقد لون الحياة .. قطط متشردة منفرة .. تتواثب هنا وهناك بحيوية الوحوش .. تتصارع من أجل قطعة خبز في قمامة من اجل علبة لها رائحة .. أو من أجل أنثى .. أي شيء وكل شيء .. حتى من اجل قدميه .. رفس قطة فصرخت في وجهه .. تسبه كأنها رجل .. ومضت بعيدا عنه . فهي الاخرى ذات مشاغل .. ومن يدري أي موعد هام ينتظرها .. انعطف مع الطريق تتصاعد في جوفه المتعب .. خواطر زاعقة .. فيها حب وفيها عطف .. وفيها حنان ورغبة جارفة الى الانضواء .. كأنه قطعة ما فصلت عن كلها .. كأنه قط أعمى نزع من حضن أمه ... فراح يموء محاولا ايجاد طريقة الى الدفء والحنان ولكن ما أقسى عجزه .. وما أفظع الالم ينهشه في كل محاولة .. في المركز الثقافي ضاق بالافكار المطبوعة .. أراد أن يحس أنفاس انسان ما .. التفت الى جاره .. وهمس .. قتلوه .. ما أخيبك .. كأن لا كلمات هناك تقال جعد ملامحه الاسف .. فتبنج قبل أن يرميه الاخر بنظرة حارقة .. وخرج كأن النظرات طردته .. الى اين .. الى لا مكان .. الى اله يعيدك اليه .. الى قدر يحيق بك ويرحمك .. الى الناس تصرخ في وجوههم أنا منكم .. أنا انسان .. وما جدوى ذلك .. أو لم تصرح بملامحك .. بالاسى يصبغ لونك .. ويجعل عروقك لزجة كأنها تنتزعك كلما طردك الناس .. ليلصقك بهم فتتشبث بروحك التي تحسها تخرج

دون جدوى .. دوامة كالدنيا حوله معتمة .. تزوم
في داخله .. تخنقه وتكتم أنفاسه .. ومع ذلك يتماسك
لا يسقط ولا يصرخ .. كأن الشفقة أمواس حادة
مستعدة لاختراقه .. ان هو صرخ او سقط .. ولكن
الصغير .. يصرخ اذا سقط .. ناح الصبي وخبط
الارض الموحلة كأنها انسان يحتضنه قسرا .. أسرع
اليه .. كم هي سريعة بديهة المصلحة .. سيخفف
النار في جوفه .. سيضع شيئا من الالم في المكان حيث
سقط الصبي .. فذلك المكان يستحق الالم .. رفعه
بمائة ووحله .. وهمس كأن لم تمض سنة منذ كان
طفلا .. خيرك .. طيحاتك .. هه .. وضرب الارض
بيده .. فكاد يضحك الصبي .. ما أغباك وما أجدر
الطفل بمواساتك .. على الدهر على أسلوبك .. اقرن
العشرون .. عصر الالكترون .. الانسان يصعد للقمر
.. الانسان يطير .. الانسان لم يعد انسانا .. لم تجف
دموع الصبي ولكنه كف عن البكاء .. جعل يتأمل
الرجل أمامه يخبط الارض بسذاجة .. وفي عينيه
عرف الضعف .. فقال يخالجه ارتياب في حجم الرجل
وشنبه .. اعطيني قرش .. سمعه بوضوح يقول ذلك
رغم أن الوجل بترها .. فحك يده بالحائط .. يمسحها
.. وأدخلها الى جيبه .. وترقب الصبي النقود بلهفة
تماثل لهفته في اخراجها .. ولكن صوتا غبي اللهفة
صاح من الباب وراءهما .. خيرك .. يا منجوه ..
وتلعثم كأنه فوجيء يرتكب اثما .. بينما نهب الصبي
قطعة النقود واختفى .. تابع طريقه كأنه سائل
لم يشبع والسماء فوقه هي السماء .. حزينة له أو
غاضبة عليه .. تتضوأ فيها نجوم متناثرة أحيانا كأنها
انتصار زائف للانسان .. بينما السيطرة الكاملة
لجحافل من سحاب أسود يلتهم الاشعة الحمراء
الصادرة عن شمس لا قدرة لها على المقاومة .. كأن
الوحدة قد أضنتها فقررت الاستسلام .. الليل بدأ
ينتصر .. والليل في داخله يسعد لذلك ويكتسب معنوية
تعينه على الفتك باخر القلاع .. ولكن الضياء المغبش
لا يزال هناك .. ما أروع الكفاح .. تضخ في صدره
موجة من المقاومة .. فيهرول الى هناك يقدم معونته
.. يرجو أن ينال خلاصه .. كانت سيارة غارقة في
الرمل .. يحاول صاحبها زحزحتها كأنه خلق وحده
.. يخشى أن يصلب المعونة لربما لا يملك الثمن فما
أصعب الابتسام أحيانا .. .. شمر عن عضلاته
اللامجدية في قتام الم الوحدة .. وأسهم في دفع
السيارة .. كأنما تسهم في اقرار بديهة ما .. وتزحلقت
بحرية على الارض اللزجة حتى كادت تدهس طفلة
صغيرة .. صرخت الطفلة في فزع بينما السيارة
تحجزها .. لتقع بين يدي أمها . امرأة .. سقط
لحافها .. وتهدلت خصلات شعرها الاكرث من طول
ما احتجز صرخت الام وقد أخذتها نشوة الانتقام
.. آه حصلتك .. وأهوت على الجسد الصغير
المكوم .. دون أن تهتدي الى طريقة تنزع بها روحها
وتبقيها لها في نفس الوقت .. وأنقذها من حيرتها
.. تقدم منها معرضا نفسه الى سخطها كأنه المسيح ..
خليها معليش .. والتفتت اليه المرأة الشابة كأنه
القربان الذي سيفتدي ابنتها .. اعملت فيه أظافرها
.. وصرخت .. وتلوت .. ولكنها في النهاية رضخت
لغريزة البخل المتمكنة فيها .. عندما أحست التذاذه
بهياجها .. وألقت في وجهه بمشكلتها كأنها السيف
الذي سيقطع سعادته .. تواكيف نعمل .. وين نعيش
.. المفتاح اللي ربحاته .. تخلقه انت .. وفي أعماقه
استيقظت كل القوى العملاقة تحطم قيودها وتستولي
على السلطة من جديد .. وتبدد الغمام الذي ران على
عقله وقلبه .. ليصبح حرا .. سعيدا .. ففي العالم
انسان يحتاجه .. يلتجيء اليه .. يريد منه أن يحل
مشكلته .. وفي سرعة خارقة وربما بالحاح من القلب
المفعم المتهدج توصل مخه .. الذي كاد أن يقتله السأم
.. الى الفكرة المنقذة .. ودون تردد مضى لينفذها ..
وحتى الكلب الذي سمعه يزمجر فوق السطح كأنه
يتحرق الى النزال .. لم يثنه عن عزمه .. راح يتسلق
الحائط .. ويدعبس بقدميه محاولا الصعود بجهدوألم
كأنها فرصته الاخيرة التي ستغلق بعدها الابواب ..
أبواب البشر .. عالج الرعب مع الكلب ولكنه نجح
في التخلص من أذاه كأنما بفعل التعويذة التي صرخت بها
المرأة من أسفل .. اسكت ركس .. اهدأ .. وفتح
الباب من الداخل ووقف في منتصفه يبتسم .. كأن
قلبه هو ما فتح .. ولكن ملابسه الملطخة بالجير ..
ووجهه العرق المتعب أيقظا في المرأة حس الخوف
والحذر .. فوقفت ترمق بارتباك الرجل الواقف في
عتبة بيتها .. عاجزة عن ايجاد وسيلة لطرده كأنه قد
ألجم فيها .. وأخيرا همست وعيونها مثبتة عليه
كأنه أفعى توشك أن تقفز .. بري يا بنت نادي بوك ..
وكسى وجهها مع لون الاحراج الوردي .. خوف بدائي
غبي اغتال كل النور الذي يتشربه بنهم .. فأشاح
بوجهه كأنما ليخفي دمعة .. وتدحرج من عتبة البيت
.. مطعون القلب يسترد قوة مؤقتة من كرامته ..
وما أن وصل الى المنعطف حتى أجهش في بكاء مرير .

توفي خليفة التكبالي يوم ٩ يونيه ١٩٦٦ م

خطوط على الهواء

بقلم : محمد الزوي

– ١ –

الكتابة لحظة انفعال انفصل فيها عن العالم الذي يضج بالحياة .. يصبح الهاجس الوحيد هو كيف أهندس النجوم اللامعة المضيئة التي تملأ السلال حولي .. كل نجمة تزاحم الاخرى وكل نجمة لها ألف صوت ينادي ويغري ..

وأنا اسبح في سماء الضوء سعيدا منتشيا كأني سمكة أعادوها في آخر لحظة الى البحر بعد أن كادت تختنق وتموت في شبكة صياد شرير ..

وأي محاولة لافساد تلك اللحظة يعني توقف النبض .. ويعني انطفاء النجوم وانسحابها من السماء .. ويعني موت السمكة اختناقا بعيدا عن بحارها ..

أي محاولة لايقاف تلك اللحظة أو تجميدها يعني جفاف ينابيع الضوء وتحول الجمر الملتهب الى نهر من الرماد ..

واستعادة اللحظة بعد كارثة التوقف يعتبر من المستحيلات ..

فاللحظة قطار سريع لا يعرف التوقف في المحطات ..

وعندما تنتهي لحظة الانفعال نهايتها الطبيعية وتصبح نجوما وأقمارا وشموسا وبحارا وأطفالا وجبالا من الخبز الساخن الطازج وأشجارا من السكر والحلوى ..

عندها أحس أن الرحلة قد انتهت .. وأن مناديل الوداع التي كانت رايات تخفق على ارصفة المرافىء قد طويت .. وان حقائب السفر قد أخذت مكانها في عالم الذكريات ..

وبعدها استطيع أن أعود الى الورق لارى كيف احتلت هذه النجمة مكانها .. وكيف انهمر شلال الضوء .. وكيف تفتحت ابتسامة الطفل .. وكيف أينعت شجرة الياسمين .. وكيف ارتدت العروس طوق الفل .. وكيف انطلق الجواد بفارسه .. وكيف رقص البشر تحت المطر ..

ان العودة تعني أن أتنازل عن لحظة الانفعال بتوهجها وسحرها وحرارتها وأدخل الى عالم لحظة

باردة بليدة مزيفة شعارها التنميق والتزويق ورش الالوان الصناعية .

ولقد تعلمت أن أقدم العمر الطويل البليد البارد قربانا للحظة قصيرة وسريعة من الاشتعال الذي يدفيء ويضيء .. ولهذا أرفض أن اراجع الحساب الختامي للحظة الانفعال وأترك للذين لم تشتعل قلوبهم بلحظة الانفعال مهمة مراجعة الحسابات الختامية والاهتمام بالارقام ..

— ٢ —

بعض الكتاب تتحول الاقلام في ايديهم الى آلة موسيقية عجيبة فريدة تصدر عنها انغام ساحرة لا تجدها في الالات الموسيقية المعروفة .. ولا تجدها في أصوات الطبيعة ببلابلها وطيورها وخرير مياهها وحفيف أشجارها .

موسيقا عجيبة فريدة ساحرة .. تسمعها وتحسها وتلمسها وتقرأها .. وتحس أنها تخترق كل مسام جسدك ، تنبس في كل خلاياك .. تحولك الى روح شفاف يهيم في عوالم جديدة ..

ما أكثر ما استغرقتني هذه الموسيقا التي تعزفها بعض الاقلام المبدعة ..

وما اعظم المعاني التي فجرتها هذه الموسيقا في وجداني ..

على أن أهم ما خرجت به في كل هذه المرات هو أن الموسيقا ليست آلة موسيقية وليست عازفا متمكنا موهوبا ..

ولكنها روح ساحرة قد تنطق من خلال آلة موسيقية وقد تنداح من خلال أصابع عازف وقد تنفجر من خلال قلم مبدع .

— ٣ —

الكلمة التي لا تأخذنا من مقاعدنا الوثيرة لتقذف بنا داخل ألسنة الحرائق ليست كلمة ..

الكلمة التي لا تنقلنا من لحظة الاسترخاء الى لحظة معانقة الحقيقة بكل ألمها وعذابها وقسوتها .. ليست كلمة .

الكلمة التي لا تمزق البراقع التي تخفي وجوهنا وراءها — حتى تتكشف لنا حقيقتنا بكل ما فيها من بشاعة وجمال .. ليست كلمة .

الكلمة التي لا تخرجنا من الشرنقة التي تلتف حولنا لنواجه الشمس تغسلنا وتطهرنا وتحرقنا .. ليست كلمة ..

الكلمة التي لا تنزلنا من بروجنا العاجية لنعرف الواقع ، نعيشه ، وتتعذب به ، ونستطعم مرارته .. ليست كلمة .

الكلمة التي لا تنبت لنا أجنحة نطير بها من جزرنا المنعزلة ، حتى تتعرف على الافاق الاخرى .. ليست كلمة ..

الكلمة التي لا تذيب الجليد المتراكم داخل قلوبنا .. حتى نحس بالدفء والاحتراق .. ليست كلمة .

الكلمة التي لا تقتلع النباتات الشيطانية التي تنبت داخل نفوسنا ، وتبذر زهور الحب والجمال .. ليست كلمة .

الكلمة التي لا تقتل الوحش الكامن داخلنا ، لتعيد لنا الاحساس بانسانيتنا .. ليست كلمة .

الكلمة ، هي التي تعذب وتحرق وتطهر وتقتلع وتبذر ، الكلمة هي ثورتنا الداخلية وهي نبوءتنا ،

وهي بشارتنا ، وهي توقنا الى الغد الاتي بكل ما يعد به من حب وجمال وسلام وتقدم .

— ٤ —

كلما قرأت عملا ادبيا ، او وقفت مندهشا أمام أحد الاعمال الفنية ، كنت أبحث دائما عن الانسان ، أحاول أن أكتشفه في هذه القصيدة الشعرية ، أن أجده في هذه القصة ، أن أعانقه من خلال هذه اللوحة ، أن أحس بحرارة نبضه عبر هذه المسرحية ، أن أشعر بانطلاقة جناحيه داخل مساحة هذه الرواية ..

فالانسان هو هدفي من خلال كل عمل أقف مأامه ، وأتأمله ، وأحاول أن استمتع به ، وان أتعلم منه ..

ان اكتشافي للانسان هو الذي يربطني بالعمل الابداعي لاحساسي بأنه يمثل قيمة في حياتي وحياة الاخرين ..

وكثيرا من الاعمال الابداعية التي أعود اليها دائما ، وتمثل عندي المعين الذي لا ينضب أبدا .. هي تلك الاعمال التي اختصرت العالم كله لترحل داخل قلب الانسان ، التي اختصرت العالم كله وحولته الى زهرة في يد الانسان ، الى قطعة خبز في فمه ، قنديل يضيء طريق رحلته ، نبوءة لمستقبله وبشارة لغده ..

ان الانسان يختبىء دائما داخل القلب من العمل الابداعي .. انه موجود داخل اللون ، وحاضر داخل الكلمات ، ومتواجد داخل النغم ..

ان قليلا من الجهد سيجعلنا نكتشف الانسان في الاعمال الابداعية التي تتأملها وسيجعلنا نحقق العناق الاعظم للانسان صانع الحضارة والتاريخ ومانح الحياة معناها الحقيقي ..

ان الفن في مفهومه الحقيقي هو هذا البحث الدائم الدائب عن الانسان .. الانسان فينا ، والانسان في الاشياء ، والانسان في الحقيقة ، والانسان في الحلم ..

وكلما نجح الفنان في مهمته النبيلة ، كلما استطاع أن يكتشف جزئية من الجزئيات التي تكون هذا الانسان العظيم ، وكلما استطاع ان يقترب منا أكثر ، وكلما استطاع أن يحقق بنا ومن خلالنا فعل التغيير في الحياة والحضارة والتاريخ .

— ٥ —

سألني شاب من الذين يهتمون بالقراءات الادبية .. لماذا لا نجد مكانا للحب في ابداعات كتابنا ؟..

لا نجد الحب ؟ ومع دهشتي من السؤال عدت الى بعض ابداعات كتابنا وخاصة في مجال القصة القصيرة أبحث عن هذا الشيء الذي أفتقده الشاب الصغير .. وربما افتقده غيره من الشباب الذين هم في سنه ..

واكتشفت يا للهول ان ما يقوله الشاب حقيقة ...

فالحب في ابداعات كتابنا موجود .. ولكنه ذلك الحب القديم المعتق الذي يبدأ من وراء الابواب وتغلفه عشرات الاسرار ، وينمو نموا شاذا ،وتكتمل ولادته بعسر ، وفي أغلب الاحيان تكون النهاية هي الاجهاض ..

هذا هو الحب الموجود في أغلب ابداعات كتابنا ..

تجده عند عبد القادر أبو هروس .. وتجده عند كامل المقهور .. وتجده عند خليفة التكبالي ..

وتجده عند يوسف الشريف ..

ان الحب عندهم لا يولد صحيحا ومعافيا تحت الشمس .. ولا ينسج عباءته من خيوط القمر .. ولا يطرز جبينه بالنجيمات المتوهجة في قلب سماء صيفية ساحرة ..

ان بنفسجة القلب تتفتح عندهم وسط مجتمع متحجر متوحش يكشف عن انيابه باستمرار ..

ولهذا فالبنفسجة ما ان تتفتح حتى تختنق من الظلام والرطوبة وتلفظ أنفاسها ..

واذا قاومت ببسالة فقدت لونها وعطرها ..

لقد كانوا يعايشون مجتمعهم .. وكان هذا هو الحب المعترف به في ذلك المجتمع .. ولم يكن في الامكان أن يكتب هؤلاء عن تجارب ما عرفوها .. وعن ألوان من الحب ما تذوقوا طعمها .. وعن بحار لم يكتشفوا أعماقها .. وعن سماوات لم يسافروا اليها .. وعن نار لم تحترق بها أصابعهم وقلوبهم .. وعن نجوم لم تلمع في سماء حياتهم .. وعن أفق لم يطاردوه ، وعن صحراء ما عرفوا هجيرها وعطشها ..

لقد كان عالمهم أبوابا مغلقة داخل أزقة متربة .. وعندما يشرع أحد الابواب وتظهر منه خصلة شعر يكون الحدث قد وصل قمته فتبدأ قصص الحب الملتهبة ومعها تبدأ القصص والاشعار .. وعندما كانت العين الجميلة تطل من خلال فتحة « الفراشية » تحدث عشرات الزلازل التي لا يصل حدود تدميرها الشوارع والازقة ولكنه يمتد ليفجر ينابيع الابداع عند القصاصين والشعراء وعندما بدأ المجتمع يخلع كابوس الجفاف والتحجر ويغير أنيابه المكشرة بابتسامة وديعة ..

عندما بدأت تتفتح الابواب تحت الشمس لطرقات الحب ..

عندما بدأت انهار الحب تفيض .. وبدأت وردة القلب هي الاشارة والعنوان ..

عندها كان بعض المبدعين قد توقفوا عن الابداع ..

وكان البعض الذي بقي في الميدان قد أصبح همه مختلفا ..

وهكذا لم تجد رقعة القلب الجديد مساحة لها في ابداعات كتابنا ..

وهكذا وقفت حائرا أمام سؤال هذا الشاب الصغير الذي افتقد الحب في ابداعات كتابنا وسيفقده كثيرا وطويلا .. حتى يولد في قلب هذا الجيل الجديد من يحتفي بالوردة الحمراء الطالعة من خفقات القلوب الشابة ويفرد لها مساحات داخل ابداعاته .

أما الحب الذي قرأناه وقرأه الشاب في ابداعات كتابنا فسيبقى نوعا من الفلكلور ، قد نقرأه وقد نعجب به ولكننا أبدا لا نحوله الى جزء من ممارساتنا في الحياة ..

— ٦ —

كان يعزف ، وكنت أتأمله ..

وتوقفت طويلا عند اصابعه ، كانت تتحرك حركة بديعة ساحرة ..

رأيتها تتوتر ، رأيتها تنفعل ، رأيتها تحلم ، رأيتها تتوحد ، رأيتها تتفرق ، رأيتها تصعد ، تهبط رأيتها رقيقة خفيفة ، رأيتها قاسية عنيفة ..

كان يعزف .. وكنت أتأمله ..

وتساءلت ، هل تخرج كل هذه الانغام البديعة من اصابعه النحيفة الرشيقة الطويلة ؟..

أم هي تخرج من آلته التي يحتضنها في حب عميق نادر ..

أم هي تخرج من قلبه المليء بدفق الفن وجماله وعذوبته ؟..

كان يعزف.. وكنت أتأمله ..

ولم يكن هناك مجال لان تسأل وتجيب فعندما يبدأ الفنان حركة الابداع تتوقف كل الاشياء لتبدأ حركة التأمل والاستمتاع فلا يهم منبع الفن ما دامت الحياة تأتيك صافية نقية عذبة تروي عطشك وتجدد فيك نبض الحياة ..

— ٧ —

قال أحد الشعراء :

هذا زمن لا يصلح أن نكتب فيه أو نتأمل . أو نتغنى . أو حتى نوجد .. فهل حقا ما يقوله الشاعر ؟

ان الوصول الى هذه المقولة والايمان بها ، انما يعني نهاية الشاعر ونهاية كل الاشياء الرائعة التي يمثلها ، نهاية قيم التمرد والنضال والمواجهة والاستشهاد ونهاية قيم الحب والخير والجمال والتقدم ..

ان هذه المقولة انما تأتي من لحظة حزن صادقة هزت وجدان الشاعر ..

فنحن لا نستطيع أن ننسى ان الشاعر الفنان هو انسان عالمه مليء بالاحزان يكابد الواقع ، وتصدمه الحقيقة ، فيسقط في بعض الاحيان في مساحة اليأس ويصرخ : ما جدوى الكلمات ؟

لكن الشاعر لا يبقى طويلا داخل مساحة اليأس فسرعان ما يعود الى مكابداته ، الى الواقع الذي يرفضه ، الى الحلم الذي يملأ عليه حياته ، حلم التغير والتطوير والوصول الى مدن المستقبل .

فالحلم جنين الواقع ..

والكلمات التي تحلم بالمستقبل وتوميء اليه.. هي الكلمات التي ستكون فعلا في لحظة ما ..

اننا عندما نسمع شاعرا يقول : هذا زمن لا يصلح أن نكتب فيه أو نتأمل أو نتغنى أو حتى نوجد .

فان ذلك لا يعني أن يدعونا الى الموت ، ولكن ذلك يعني بالدرجة الاولى أن الشاعر يدعونا الى التمرد على هذا الزمن المريض .. يدعونا الى أن نغير وجه هذا الزمن ونجعله زمنا صالحا للكتابة ، والتأمل والتغني ، والوجود ...

وافترقنا

شعر : محمد بشير السوكني

كان حلمـــا ..

الذي عشناه عاما كان حلمـا

وانقضى الحلم ولم يبق سوانا

في جحيم الذكرى نجتر احاديث هوانا

ونعيـم الامنيات

صاغها في فرحـة قلبانا في لهو صبانا

* * *

وانتهينـــا ..

وانتهى حلم عشقنا العيش فيه

كان حلما عيشنا في ربع ود

والشياطين تريد الفتك بالاحباب

تغزو كل درب

تزرع الاشواك .. تفني كل زهر .. كل ورد

وانتهى الحلم وعشنا الواقع المر الاليم

* * *

أيها الماضي تقرب ..

أين أفراحي التي كانت كنبع ليس ينضب ؟

أين حبـي ؟

أين هاتيك الاماسي ..؟

ما لآمالي جميعا كلها أضحت مآسي ..؟

* * *

أترى الحب الذي عشناه بالامس سعيدا

كله قد كان حلما ..؟!

وليالي صفونا كلها حلما ..؟!

وهنائــي ..

وأماني حبنا كلها حلما ..؟

قـــل ..

أجب يا خائن القلب أكان الماضي حلما ..؟!

* * *

ليس حلمـــا ..
حبنـــا بالامس
لا .. ما كان حلمـــا
كنت لي كالارض للفلاح تمنحني ابتسامة
فمنحت الارض « قلبك » كل ما شاء ..
غراما .. وهياما ..
فاذا بالارض أعطت قلبي أشواكا وطلحا
وارتمى في بئر حزن ..
أنت قد ضيعت فرحه

* * *

وانتهى ماضينـــا
يا حبـــي ..
ولـــى ..
وبقينـــا ..
بل بقيت ــ ههنا ــ أسكب دمعا
أيها الماضي الذي مات هواه
كنت كالنور لقلبي

كنت يا ماضي حبا لفؤادي
وانتهى الماضي ..
ومات الحب ..
ماتت كل أفراح فؤادي

* * *

أنت كافر ..
أيها الوهم الذي يهواه شاعر
يا رفيق البؤس
يا من قد رميت القلب ، مزقت المشاعر

* * *

في غد يثأر حبي
في غد أزرع وردي
في بساتيني .. بدربي
في غد تشرق شمس الحب كي تفرح قلبي
وتزول ..
أيها الماضي وتنسى

الجنون

قصة : احمد ابراهيم الفقيه

صارت ذاكرتي تهرب احيانا مني ، ولذلك فانني لا اذكر منذ متى بالضبط بدأت اكتشف انني (وبدون وعي او ادراك) اسير في الشارع وانا اكلم نفسي ، ما اذكره الآن ان واحدا من اصدقاء المقهى كان أول من ذكرني انه رآني أجلس منفردا ، افتح فمي واقفله فيما بدا له على البعد انه حديث اجريه مع نفسي ، ورأى في ذلك علامة على ان زواجي من عروس الجن قد صار الآن حقيقة ، بعد ان كان مجرد دعاية اقولها للاصدقاء كلما جاء ذكر الكائنات الخفية المجهولة التي تحيا معنا ولا نراها ، ويلومني .. كيف لم أف بالوعد الذي قطعته على نفسي بان اقيم لهذه الجنية عرسا كبيرا أدعو له كل الصحاب ، قلت له ان زواجي من الجنية ما زال للاسف الشديد حلما لم يتحقق بعد ، واوهمته انني لم اكن اكلم نفسي ، انما هي علكة رآني امضغها فظنها كلاما . ولكن الامر صار فعلا يقلقني وما ظننته مجرد شيء طارىء وجدته قد بقي معي ، وانتبه الى انني لم أعد اكتفي بالهمس ، وانما اتكلم بصوت عال مع نفسي ، لقد كان الامر طبيعيا عندما كان هذا يحدث في مكان معزول عن الناس ، في غرفة نومي ، أو امام مرآة الحمام أحلق لحيتي ، بمثل ما اغني أو أقول الشعر فانني أناقش احيانا امرا من الامور بصوت مرتفع وأنا وحدي ، وأجد في ذلك تسلية وتنشيطا للذهن ، ولكن ان اخرج بهذه العادة الى زحام الشوارع والمقاهي ، فهذا تجاوز لحدود ما تعارف الناس على انه طبيعي ومألوف ، ودخول في دائرة المتعاملين مع الكائنات الخفية ، ان الموضوع حري — قلت في خاطري ، لعلني قلته بصوت عال ، لست ادري — بان تنطلق من اجله صفارات الانذار وتشتعل بالنور اللافتات الحمراء في كل أروقة العقل وحجراته ، وان اعلن حالة استنفار في كل اجهزته وملكاته لمعالجة الامر قبل فوات الاوان ، لقد بدأت بأن قررت وضع رقابة شديدة على نفسي ، بحيث امتنع قسرا عن الكلام ، او حتى عن التفكير الذي يقود الى الكلام حالما اخرج الى الشارع ، فكنت اشد على ملامح وعضلات وجهي ، واعض على لساني واطبق فمي بقوة في محاولة لمنع اية حركة تصدر عنه ، ولكن ما اسرع ما تغفل ارادتي وينام الرقيب في نفسي ، فاذا بعضلات الوجه قد اصابها الوهن ، وانتبه الى نظرة غريبة يرميني بها احد الناس ممن يتصادف وجودهم قريبا مني ، فافتش عن السبب ، واكتشف انني قد عدت من جديد اكلم نفسي ، وانني لا اكتفي هذه المرة بان اكلمها وانما اصحب الكلام باشارات ارسمها في الهواء بيدي ، فاتمنى لو ان معي شريطا لاصقا اضعه على فمي حتى لا اجده وقد بادر من نفسه بالكلام كأنما هو شيء ينفصل عني . وبرغم لحظات الاظلام التي صارت تصيب ذاكرتي ، فانه لم يكن من الصعب ان انتبه فيما بعد الى ان بوادر هذه الحالة قد صارت تنتابني منذ ان رأيت ذات مساء وجه فتاة اسمها « فرح » ، ليس بالضبط وجهها .. فلقد كانت المرة الاولى منذ زمن طويل التي ارى فيها امرأة مكتملة النضج تضع شعر رأسها في ضفائر ، اعرف بالطبع ان مسألة ان تضع امرأة شعرها في ضفيرتين ليس شيئا غريبا ، بل انني كنت لا ارى النساء في اعراس قريتي عندما كنت طفلا الا بهذه الضفائر المضمخة بعطور نفاذة قوية ، ولكنني منذ ذلك الزمن القديم لم

التق بضفائر الا لدى التلميذات الصغيرات وهن في طريقهن الى المدارس ، ولذلك فقد باغتني المشهد ، ورأيت نفسي امتلء بالدهشة وانا ارى تلك المرأة السامقة التي ترتدي حلة نسائية ذات طابع محتشم وقور وتضع حول عنقها شالا ، وقد تدلت فوق كتفيها وحول وجهها ضفيرتان طويلتان تزينهما شرائط رقيقة كالاسلاك ، ذهبية اللون ، بحيث اختلط لون الذهب بسواد ذلك الشعر ، ورأيت في تلكما الضفيرتين شيئا عجيبا ومدهشا كأنما هو ينتمي الى دنيا اخرى ابهى وأجمل من هذه الدنيا التي حولي ، رأيتهما توقظان في ذهني عالما قديما جميلا كان ينام منذ اعوام الطفولة في صدري بكل ما احتواه من الرؤى والذكريات التي يفوح منها عطر ماء الورد وشذى الزعتر والشيح والكمون ، واذا بهما مصراعا البوابة التي دخلت منها الى مدينة ذلك الوجه ، الذي عرفت ـ منذ اللحظة الخاطفة التي رأيته فيها ـ انه سيكون مسكني وموطن اقامتي . وذهبت على الفور ، اقيم لها ، وفي نشوة الوجد ، عرسا في رأسي ، دعوت اليه اعظم فرق الرقص والموسيقى وكل من اعجبت بهم من نجوم الاشرطة والمطربين ، واخذتها على انغام الموسيقى الى دارة تحيط بها الحدائق وتطل شرفاتها على البحر ، وجلست الى احدى الشرفات أضع رأسي على صدرها ، وابكي الاعوام التي مضت من عمري دون أن أراها .

ليست القضية هنا ـ كما قد يظن بعض المترددين على هذا المقهى ـ حبا يحدث من النظرة الاولى أو لايحدث ، بل لعله ليس هناك حب يحدث بهذه الطريقة، حتى وان حدث فهي ليس الطريقة التي يمكن ان تنشأ عنها علاقة حب حقيقية بين رجل وامرأة ، انه مجرد نزوة او شهوة ، حتى وان نشأ هذا الحب الحقيقي ولم يكن نزوة أو شهوة ، فهو اذا مجرد صدفة ، حالة شاذة ونادرة ولا يمكن ان تكون قاعدة او مقياسا ، انما استثناء لكل القواعد والمقاييس ، ولكنني وصلت منذ ذلك اليوم الى قناعة ثابتة (هـذا كلام غالبا ما اجد نفسي اكرره بصوت عال وأنا اجلس وحيدا انتظر في المقهى صديقا لا يأتي) بان هذه المجتمعات المغلقة التي شذت عن نواقيس الطبيعة وقوانينها فجاءت تبني جدارا من العزلة بين رجالها ونسائها وتمنع ـ في حسم وقوة ـ فرص اللقاء بينهم وتعتبر حبا ينشأ بين صبي وصبية خروجا عن المسلك الصحيح ، وتسميه فاحشة أو فسادا او اثما ، وترى فيه جريمة ضد التقاليد يستحق صاحبها عقابا قد يصل الى حد الموت ، كأن هذا اللقاء لو تحقق لغاص البحر وفسد نظام الكون وابتلع الطوفان الكرة الارضية (لعلها تعليمات الـه وثني يعبدونه سرا) فهي مجتمعات غريبة ، تمضي متطوعة الى ممارسة هذا القمع ضد افرادها ، ومسخ انسانيتهم ، وقتل فرصة الحياة في نفوسهم في عملية لا يمكن مهما جلست الى المقاهي تناقشها ان تجد لها تفسيرا سوى انها رغبة في الانتحار واحتفال لا انساني بالعقم والموت . في مثل هذه المجتمعات تكون تلك النظرة الخاطفة التي ينشأ عنها حب ، وتحدث في حياة الانسان انقلابا ، وتشعل في ثلج حياته نارا ، تكون تلك النظرة (وليتفضل هذا « النادل » الذي أحضر القهوة ثم وقف يمد أذنيه ويتصنت في سخرية الى كلماتي بالجلوس الى جواري اذا شاء فانا لا اعبأ به أو برأيه حتى اخشاه ، سيأتي من يبكيه اذا مات ولكنني أراهن ان موته ليس الا استمرارا لموته في الحياة) تكون تلك النظرة هي الامر الطبيعي الوحيد في زحمة كل هذا الشذوذ ، تكون هي القاعدة ، وليست القاعدة حبا ينشأ عن علاقة تعارف تمتد لايام وشهور كما يحدث في المجتمعات التي لا تعبد الهـا وثنيا يمنع هذا اللقاء ، ان تلك النظرة هي فرصة انسان هذا المجتمع ـ رجلا كان او امرأة ـ في ان ينفذ من هذا الحصار ، وان يقهر هذا الموت ، وان يحقق لنفسه هذا اللقاء الذي لا تكون الحياة بدونه حياة (وليت هذا النادل ـ وهو يضحك (يدرك انه كان في يوم من الايام بشرا كالانبياء ، وان الها وثنيا قاسيا تخصص في طمس انسانية الانسان قد حوله الى مجرد جواد من الخشب انطفأ في عظامه وعروقه وعينيه ذلك الوميض الذي يصنع بهجة الحياة) لانه اللقاء الوحيد ـ ايتها الجياد الخشبية ـ الذي يحمل الى صقيع العمر دفقة الضوء التي تعيدكم بشرا ، تدفىء عظامكم وتسري مع كريات الدم فتتوهج بالرغبة في الحياة قلوبكم ويتحول نبضها الى لحن يمد خيطا يجدد صلتكم بالنجوم التي كثيرا ما ننسى اننا فيها نشأنا واليها نعود مرة اخرى . انه اللقاء الذي يمنح وجودنا معنى ، لولاه لبدا الكون كله مجرد اضحوكة ، والحياة ليست سوى اكذوبة ، ولجاء طائر الموت يطبق على الارض ويطويها تحت جناحيه كالبيضة . ولذلك فانني صرت مؤمنا بهذه القوة التي يمكن ان تكتسبها تلك النظرة السريعة الخاطفة التي تتم في صمت واستحياء ، مؤمنا بالقدرة الهائلة على التفجير التي تكمن بها،لانها وسيلتنا الوحيدة لتحقيق ذلك اللقاء ، وصار على هذا العقل البـاطن الذي احتوى اجهزة و « ارشيفا » واسرار توارثها البشر منذ بدء التكوين توجه سلوكنا في اللحظات السريعة الحرجة ، الحاسمة من حياتنا التي لا تقدر فيها مداركنا ووعينا على فعل شيء ، لان كل شيء يتم فيها بسرعة أقصى مما يمكن للارادة الواعية ان تتصرف

أو تجري حساباتها او تقوم بوضع ترتيباتها أو تعد خسائرها وارباحها ، صار على هذا العقل الباطن ان يتولى الامر برمته ، وان يمد اعيننا وعقولنا في تلك اللحظة الصغيرة ، ولكنها قدتكون عمرا بالمقاييس الاخرى التي يحتكم اليهاالعقل،ان يمدها بكل ما اكتسب من خبرات وكل ما وعي من معارف وكل ما اختزنه من معلومات لاستخدامها جميعا في اتخاذ ذلك القرار الذي قد يبدل حياتنا ومصائرنا . ولذلك فانني عندما رأيتها تعبر الطريق - وكنت لحظتها اقف بمحاذاة احد المتاخر مستغرقا في حديث عابر لا اذكر موضوعه الآن مع صاحب قابلته صدفة - وتأتي لكي تقف قريبا مني تتأمل البضائع المعروضة بنافذة المتجر ، ورأيت ذلك الشعر المضفور باسلاك الذهب ، توقفت من فوري عن الكلام وذهبت اليها بعقلي وبصري ، ولعل هذا ما يمكن - او ما يجب - ان يفعله اي رجل في حضور امرأة لها ضفائر « فرح » وقامتها ووجهها ، كل ما في الامر انني ذهبت ولم اعد من رحلتي ابدا ، وبدلا من ان تلتقي الاعين وتفترق كما يحدث في مثل هذه الحالات ، تتبادل كلاما صامتا سريعا وتمضي ، فان الامر اتخذ مسارا آخر هذه المرة ، ان شيئا ما يتفاعل الآن في كيمياء بدني ، لقد نظرت في اعين نساء كثيرات ، وكان الموقف ينتهي دائما عند تلك اللحظة ، حتى وان لم ينته فان ما يتبقى منه هو مجرد تلك الرغبة الغريزية في ان التقي معها في غرفة نوم واحدة ، ولكنني الآن اعرف ان الموقف لا ينتهي عند تلك النظرة ، أو تلك الرغبة ، وانه لن ينتهي ابدا ، وان تواصلا قد تم الآن ، او تماسا ، أو تصادما ، او اكتشافا ، ان شيئا كان قد ضاع مني وعشت العمر كله ابحث عنه الى ان وجدته في هذه اللحظة ، وان تبدلا قد طرأ على حياتي لا استطيع له دفعا،ليكن عملية كيماوية،او شيئا لا اراديا فوق المنطق أو المألوف، فوق المقاييس الصغيرة التي تعودنا أن نعيس بها مصالحنا اليومية واموري حياتنا المعيشية ، تلك الامور الصغيرة ،الضئيلة التافهة،ولكن شيئا كهذا لا تنفع معه هذه المقاييس،يجب الا نقيسه الا بما يحدثه ظهور القمر بقطيع الغزلان ووعول الصحراء وكائنات الغابة : وماتحدثه مشاهد الشروق والغروب بغابات النخيل ونوارس البحر وحقول الحنطة وجداول الماء القادمة من قمم الجبال الشاهقة ، وما يحدثه وميض البرق بالفراشات والاشجار واعشاش الطيور لا يمكن ان نقيسه الا بالظواهر التي تحدث في الطبيعة فتجعل الكون اكثر بهجة وجمالا .

دهش الرجل الذي كنت اتبادل معه الحديث وهو يراني أتوقف عن الكلام والحركة واتحول فجأة الى عمود من رخام ، لقد غادرني ذلك الشيء الآخر الذي يسكن هذا الحجر ويمنحه الحياة ، استأذن للحظات صغيرة وذهب للقاء انسان ربطته به علاقة عذبة جميلة ذات يوم ، ثم افترق عنه اعواما طوالا ، عذبه الاشتياق اليه ، وانتظر على حجر الزمان ملاقاته، وهو يراه الآن فجأة يأتي ويقف على ناصية الشارع قريبا منه ، فانطلق اليه ، واشتبك في عناق طويل معه وتركني مزروعا على الرصيف بلا حس ولا حركة ولا انفاس تتردد ، وعندما انتهى العناق كنت كمن عاد من رحلة اسطورية زار خلالها كوكبا غريبا مدهشا جميلا . وادركت ان تحولا قد طرأ منذ هذه اللحظة على عقلي وقلبي ، وانقلابا قد حدث في الكون من حولي، وانني اولد الآن انسانا جديدا . كنت - عندما دخلت المرأة الى المتجر - قد تركت صاحبي ودخلت معها ، مسحوبا بخيط النور الذي يمتد من وجهها وضفيرتيها، وقفت في صمت المتعبدين اتأمل جمالها ، نظر عامل المتجر بفضول نحوي ، فأحسست بالخجل والارتباك ، قطعت صلاتي وانشغلت بتقليب بعض القمصان المعلقة قريبا مني ، رأيتها اثناء ذلك تأخذ حاجتها من الالبسة وتمضي ، صرخت كالغريق لا تتركيني قبل ان اعرف كيف القاك مرة اخرى ،كانت صرخة صامته لم يتحرك بها فمي ، رأيتها تعود من فورها وتقترح تعديلا في أحد الاثواب ستأتي لتأخذه في مثل هذا الوقت من الاسبوع القادم ، ادركت انها سمعت افكاري وانها تضرب بذلك موعدا لي ، رأيتها تنظر نحوي فنظرت مؤكدا على الموعد ، اردت في تلك اللحظة التي شفني فيها الوجد ان اختبر هذه القدرة العجيبة من انتقال الافكار بيني وبينها ، فسألتها في سري عن اسمها ووقفت انتظر النتيجة ، كنت كمن رمى بعصا فوق الارض وبقي ينتظر في عبط وسذاجة ان تصبح تلك العصا ثعبانا ، ولا ادري لماذا لم اندهش او استغرب او اسقط فوق الارض مغشيا علي من هول المفاجأة ، عندما تحرك ذلك الفم الجميل ونطق بالاسم ، بدا وكأنني كنت على يقين من انها ستتلقى الاشارة وستوافيني بالاجابة لا محالة .

— فرح .

نطقت الاسم وكأنها تقصد عامل المتجر لكي يكتبه فوق الصندوق الذي احتوى الثوب ، اذا هي « فرح »، لا أدري اذا ما كنت قد فكرت يوما باسم المرأة التي اتمنى ان احبها ،ولكنني لو فكرت لما وجدت اسما غير هذا الاسم ، سيكون منذ اليوم تميمتي وتعويذتي التي ادخل بها النار فتصير بردا وسلاما ، واشق بها البحر فيمتد امامي طريقا ، واركب بها الريح فيصير بساطا أو جوادا ، ورأيت نفسي بعد هذا اللقاء امشي في الشارع

وكأنني امشي فوق السحاب ، كأنني قد تحررت من اثقال كنت اجرها في قدمي واحملها فوق ظهري ، صرت قاربا تمد انسام ليل الربيع يدين حنوتين تدفعان شراعه برفق فوق صفحة نهر تستحم في مائه النجوم ، ترافقه نوارس الفرحة وتقف اشجار النخيل على الشاطىء تغني له وتبارك رحلته (هكذا صرت ارى الشارع والناس والابنية واعمدة الكهرباء) وبدأت اكتشف جمالا يكمن في العالم من حولي ولم اكن أراه كأن عصاته كانت تغطي بصري ، ولاول مرة افهم معنى ان تكون جميع الاغاني تتحدث عن الحب ، وان يكتب الشعراء اجمل قصائد عن الحب ، وان تكون اجمل القصص والمسرحيات والافلام هي التي تتخذ من الحب موضوعا لها ، لم أكن أفهم معنى ذلك ، بل كنت احيانا استغربه واستهجنه ، اسمع هذه الاغاني وأقرأ هذه القصص والاشعار واشاهد هذه الافلام وأرى في المعارض والمتاحف تلك اللوحات والتماثيل التي تمجد الحب وتصنع له الهة فلا تثير في نفسي شيئا ، كأنها تتحدث عن كائنات أخرى ، أو كواكب اخرى ، وليس عن بشر مثلي ، لقد كنت أعمى ، الى ان جاء وجهها يضيء الدنيا امام عيني فاعرف انني انسان قادر على الحب ، اعرف معنى ان يحب الانسان ، ومعنى ان تحتفل بالحب كل هذه الاجيال المتعاقبة من بني البشر وتجعله موضوعا لاجمل واخلد ما في تراثها ، انني الآن استغرب بل استنكر ان ينشغل الناس بشيء آخر في الدنيا غير هذه العاطفة ، ولو ان الامر بيدي لجعلت الصحف لا تتحدث الا عن هذا الموضوع ولا تعقد المؤتمرات الا من اجله ، ولا يقرأ المذيع في نشراته سوى اخبار العشاق والمحبين ، فليس ثمة شيء في الدنيا يستحق ان نشغل به حياتنا اجمل وانبل وارقى من الاحتفال بهذه العاطفة !

جعلت من موعد مجيئها عيدا ، لم يهمني ان انفق كل مدخراتي في شراء بدلة جديدة ارتديها يوم اللقاء ، ولا ان اذهب لاول مرة في حياتي الى اغلى صالون للحلاقة في المدينة كي ابدو انيقا جديرا بلقائها ، واردت ان اكون عمليا فعكفت على اعداد رسالة اقدمها لها لحظة ان اراها ، شرحت في الرسالة ما احدثه ظهورها من تغيير في حياتي وقلت لها ان السنوات التي مضت في عمري لم تكن الا سفرا طويلا اليها ، وفي ختام الرسالة كتبت لها عنواني ، وارقام هواتف الاماكن التي اتردد عليها ، وسألتها ان تتصل بي لانها ان لم تفعل فسيكون في ذلك هلاكي ، وضعت الرسالة في جيبي وذهبت الى ذلك الموقع من الشارع حيث رأيتها أول مرة ، كنت على ثقة من انها ستأتي ، ولكن احساسا غامضا كان طيلة ذلك اليوم يلازمني ولم استطع له ردا ، ولم اجد لمجيئه سببا ، احساسا غامضا بان لقاء اليوم مع « فرح » لن يكون سوى وداع ، وبأنني سوف لن التقي بها بعد ذلك ابدا ، ولكنني منعت الغراب الذي جاء يحمل هذه الاخبار من ان يفسد علي فرحي ، صممت على ان اطرده من فوق رأسي ، لن اتركها تضيع مني ، سوف اتبع خطاها وامضي خلفها ولن اتركها برغم هذا الغراب الذي أراه الآن يجلس فوق احدى الشرفات ينظر نحوي .

شيء كأنه دوار البحر أصابني ، ولكن هذه النشوة لا يعرفها الا من يركب البحر ، وهذه ليست موجة تأتي ، انها « فرح » هبطت من سيارة كانت تقلها واراها الآن قادمة نحوي ، ترتدي ثوبا له زرقة السماء وتضفر شعرها باسلاك الذهب وتومىء لي بتحية صامتة ، ركضت على الفور نحوها ، ارتمي فوق صدرها وابكي ، اعانقها وأبكي ، أعفر وجهي بعطر ضفائرها وأبكي ، أبثها في كلمات تختلط بالشهقات ما احمله لها في قلبي ، واقبل في شكر وعرفان بالجميل جبينها وعينيها وخديها وفمها وعنقها ويديها ، واهبط راكعا اقبل في تبتل وخشوع قدميها الصغيرتين المباركتين ، أو هذا ما بدا لي انني فعلته ، ولكنني لم أفعله ، كانت الرسالة في جيبي ، ونوارس الفرحة تملأ الدنيا غناء من حولي ، وهي تدخل المتجر ، تجد صندوق الثوب جاهزا تأخذه وتقف بانتظاري ، وضعت يدي في جيبي كي ادفع لها بالرسالة ، ولكن يدي لا تطاوعني ، ليذهب عامل المتجر الى الجحيم قلت في نفسي ، وليذهب معه الى هناك كل الفضوليين الذين ينظرون في بله نحوي ، سأذهب الآن اليها ، وسأقول لهم وبحضورهم جميعا : انني وبرغم رعب تقاليدهم احبها ، وان هذا لقاء لن نفترق بعدها ابدا ، وسأضع يدي في يدها وامضي الى حيث لن يستطيع ان يلحق بنا أحد ، ولكنني وجدت نفسي اقف مبهورا ، عاجزا عن ابداء اي فعل او تصرف ، والوقت يمضي ، والاعين كأنها عدسات تراقبني ، والاخ والاب أو القريب الذي ينتظرها في سيارته امام المتجر يطلق بوقه يتعجل قدومها ، وفرصة العمر الوحيدة في النجاة ، اراها الآن تهرب مني ، لعنت الخجل والتربية القروية ، وتقدمت بسرعة وباحساس من يقفز في النار كي اضع الرسالة في يدها ، لكنني قبل أن اصل برسالتي اليها سمعت عامل المتجر يطلق صيحة بشعة غريبة كأنه رأى عشرين افعى تتسلق الآن جسمه ، ويطلب من كل من لا عمل له الخروج من متجره فورا ، كان الرجل يوجه كلامه

نحوي ، ويضع عينيه شهابين من الحقد في وجهي كأنه يقول انه قد كشف امري وعرف دناءة مقصـدي وسيفضحني الآن أمام هؤلاء الناس ، عاودني خوفي وعاودني خجلي ورأيت العرق ماء يغسل جسمي ، ادرك بعض الزبائن القريبين مني أنه يقصدني ، وظن بعضهم الآخر ان الكلام موجه اليهم أيضا ، فامتلأ جو المتجر لغطا ونقاشا وصيحات احتجاج ، جاء الرجل الذي ينتظرها في السيارة يسحبها من يدها ويمضي ، انتشلت نفسي من موقفي ، وأنا أرى هذه المرأة التي اصبحت كل الكون بالنسبة لي تهرب كالشعاع من بين اصابعي ، وأصيح بأعلى صوتي ان تنتظرني ، ولكن الامر كان قد انتهى ، والسيارة مضت تشق بها زحام الطريق ، وانا مسكون بالرعب والجنون اركض خلفها واهتف باسمها غير عابيء بما احدثته من ارتباك لحركة المرور ،وتنطلق ابواق السيارات من ورائي ، وشتائم السائقين تنهمر كالمطر على رأسي ، وجمهور الشارع يقف مشدوها يراقبني ، « وفرحي » تغيب عني الى الابد ، ولم ادر ما الذي حدث بعد ذلك ، فقد وجدت نفسي في آخر النهار ارتمي فوق أعشاب احدى الحدائق العامة ، وأنا ابكي لا اكاد اصدق ان « فرح » قد مضت وهي لا تعرف لي اسما ولا عنوانا ، ولا اعرف لها مكانا ولا عنوانا ولا اسما غير اسمها الاول ، ورأيتني في الايام التالية اطوف الشوارع اتكلم مع نفسي دونما حرج ، اصرخ مناديا اسمها ، أو انهمر في الضحك أو البكاء ، لا يهمني امر الناس او تعليقاتهم ، لقد صرت لا اطيق الاقتراب منهم ، انني انفر من الحديث اليهم ، بل انني في الحقيقة اكرههم ، جميعهم صرت اكرههم ، واذهب ابحث عن « فرح » لدى كل الشبابيك المضاءة ليلا باحياء المدينة ، امام كل الاقواس والبوابات الكبيرة التي تفض الى مداخل الساحات والميادين والاسواق ، اطوف كل المتاجر ، اتفرس في وجوه النساء اللاتي تقلهن السيارات، واذهب الى الشواطيء والحدائق والفنادق، لكن « فرح » لا تأتي ، لقد غيبها صمت كأنه صمت الموتى ، وأعود في آخر جولاتي الى المقهى ، فأجد ان امر علاقتي بامرأة الجن لم يعد يعتبره « زبائن » المقهى مجرد دعابة ، لقد صار حقيقة يعاملني هؤلاء الناس على اساسها (بعض هؤلاء اصدقاء قدامى ولكن ذاكرتي لم تعد للاسف الشديد تتعرف اليهم) بل صرت اراهم يعرضون امامي مشاكلهم واسرارهم لكي انقلها الى حبيبتي الجنية لتجد لهم حلا ، وبرغم انني كنت اصرفهم بخشونة عني ، وارمي لهم النقود التي جاءوا يقدمونها لي مقابل هذه الخدمة ، وانفي عن نفسي هذه الاكذوبة ، الا انني مع مضي الوقت بدأت اجد في الامر شيئا من التسلية والطرافة ، وأجد ان فكرة علاقة اعقدها مع احدى الجنيات ـ وليكن لها قوام فرح وجمال عينيها وضفيرتيها ـ فكرة لا بأس بها ، ولم يكن الامر صعبا ، فلقد دعوت الى وجبة عشاء في بيتي ، اول جنية اقابلها في الطريق قبلت مشكورة عزومتي واخبرتها بقصة حبي لصبية من بنات مدينتنا اسمها « فرح » ضحكت امرأة الجن وتصورت لي على الفور بصورة « فرح » اذهلتني المفاجأة ، فأخذتها الى احضاني وسألتها ان تبقى الى الابد بين ذراعي ، لم أكن اظن ان الامر بهذا اليسر وهذه البساطة ، تأسفت لتلك الايام التي قضيتها في البحث عن « فرح » في حين ان عالما قريبا مني هو عالم الجن يحتوي على آلاف النساء اللاتي يشبهنها ، اتخذت تلك الجنية عشيقة لي، فلم أعد افارقها لحظة واحدة ، اتجول بها في الاسواق واذهب معها الى المقهى ، واتنزه برفقتها في الحدائق والشواطيء ، وانا اخرج لساني ساخرا من كل هؤلاء الرجال الذين يملأون شوارع المدينة والذين انكروا علي فيما مضى ان اتبادل كلمة واحدة مع الفتاة التي احببتها ، بل انكروا ان تكون لي حبيبة ، لتكن حياتهم انتظارا عميقا للموت ، وليكن نداء الذات وقهرها عبادة يتقربون بها لذلك الآله الوثني الذي يسمونه « التقاليد » ، وليقيموا جدرانا تفصل بينهم وبين نساء مجتمعهم خوفا من الطوفان القادم ، فلقد « نفذت » بجلدي وخرجت من دائرتهم وحققت حلا لمشكلتي ، وها هي حبيبتي بين احضاني ، اضم جسمها الى جسمي ، أو الثم فمها وارتشف من رضابها ، او استلقي فوق أعشاب الحديقة بجوارها اعبث بشعرها ونهديها ، دون أن يثير ذلك فضول احد منهم او غضبه ، لقد اعماهم الله عني ، وها هي تطعمني من طعام اهل الجن وتسقيني من شرابهم وتأخذني في سياحات الى عوالم ابهى واجمل من عوالم هؤلاء الناس وتمنحني حبا يغمر حياتي بامطار الفرح ، بل انها باحت لي بسر غريب وهو انها احبتني منذ ان كنت طفلا ، وانها انتظرتني الى ان صرت رجلا اجلس الى المقهى ، ثم بدأت تفكر في طريقة تتعرف بها علي ، وان « فرح » ذاتها لم تكن سوى وسيلة استعملتها لتحقيق تلك الغاية ، لقد كانت « فرح » مجرد باب دخلت منه الى عالم مليء بالحب قدمته لي هذه المرأة من نساء الجن ، كوة في ذلك البناء المظلم الرطب المتآكل القديم ، كوة يأتي منها الضوء ، صنعتها « فرح » ثم ذهبت ، لكي انفذ منها الى هذه الدنيا الجديدة !

أقوال شاهد عيان

قصة : محمد الشويهدي

« وقاطعت « حياة » شاهد عيان باخر أنفاسها فلفظها في وهن فطأطأ رأسه وأردف في « ها قد انتهت الرحلة .. ها لقد انتهت المهزلة » .

مكتومة فوق فراش المرض ، مجرد شيء ، أي شيء ، وجه اصفر ثم اسود ، أسنان عبث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة تلو الاخرى ، شفاه تهدلت ، شعر تساقط فقصر ثم ابيض حتى صار في لون الثلج ، العينان ذبلتا ، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار في امكان طفل أن يحتويه .

ـ دنيا ..

قال شاهد عيان واضاف :

ـ ١ ـ

في العام السادس عشر من بدء الرحلة ، لم تكن « حياة » مجرد شيء ، أي شيء ، كانت وجها نقيا في لون الورد ، بشفتين صغيرتين شهيتين ، وشعر غزير أصفر ، طال حتى اجتاز الخصر ، واسنان ناصعة كحبات البرد ، وجسد فاره مصقول رغم صغر السن .

كل رجل رأى « حياة » لا شك اشتهاها ، بينما عشقها كل رجال الحي ، لكن حياة في العام السادس عشر من بدء الرحلة لم تشته ذكرا ، ولم تعشق أيا من رجال الحي .

ـ صبية غـرة .

هكذا قال شاهد العيان .

ـ ٢ ـ

.. في العام السابع عشر من بدء الرحلة ، لم تكن ساذجة على الاطلاق « حياة » ، اذ كانت تدرك جيدا أنها فاتنة شهية ، وأن الله حباها بجمال خارق دون بنات الحي كله ، وكانت على صغر نابها ، تتلذذ بنظرات الذكور تخترق الجسد الشفاف المكتنز حتى العظم ، وتنصب في العينين السوداوين الى أعماق النفس ، لكن « حياة » تتلهى ، لان « حياة » في العام السابع عشر ، لم تشته ذكرا ، ولم تعشق أيا من رجال الحي .

ـ غرة لعوب .

قال عنها شاهد العيان .

ـ ٣ ـ

.. في العام الثاني والعشرين ، عشقت « حياة » ووقع المحظور ، وحلمت بالزوج والبيت والولد ، لكن الفتى اليافع الذي عشقته « حياة » لم يشتهها في أي يوم ، ولم يعشقها كغيره من رجال الحي . ظل يصب فتوره على نيرانها ، يدلق غروره على كبريائها ، ثم صار يحتقرها ، يزدريها ، فشأن الفتى اليافع لم يكن أبدا شأن كل الذكور .

وشحنت « حياة » بتجربة مريرة أحرقت كل نبتة شعور ، فصارت مجرد دمية جميلة ، قاحلة لا تنبت في تربتها بذور .

حاول الرجال ، حاول الفتيان ، حاول كل الذكور ، لكن « حياة » باردة كالثلج ، صامتة كالموت ، لا تحب ، لا تكره

ـ عاشقة مجربة .

هكذا رآها شاهد العيان .

ـ ٤ ـ

.. في العام الخامس والعشرين ، تزوجت « حياة » من رجل ثري ، أعطى أبويها كل شيء ،

ابتاعها في لهفة بكل ما يملك ، لان « حياة » لم تكن قد بارت بعد ، ثمارها بالغة النضج ، والرجل الفحل المسن شاء أن يستمتع بما أحل الله من طيبات ، لما تبقى له من أيام العمر تماما كما شاءت « حياة » أن تستمتع بالمال والحلال .

واستمتعت « حياة » بالمال الحلال ، واستمتع الفحل الثري بطيبات ما رزق ، لكن الله شاء أن يتوفاه فمات .

ولم تحزن « حياة » شأن كل الارامل ، لم تلطم الخدود أو تشق الجيوب او تنوح ، فالثروة باقيةوليس سواها وريث .

ـ أرملة لعوب .

هكذا وصفها شاهد العيان .

ـ ٥ ـ

.. فيما تلا العام الخامس والعشرين من أعوام ، صارت « حياة »أسطورة تلوكها السنة الفتيان وتروي مغامراتها العذارى سرا في خفر ، ذلك لان « حياة » كانت تعشق الرجل من رجال الحي أو الفتى البكر المفتون ، ليوم أو لاسبوع أو ربما لشهر ، وتوظف لخدمة عشقها « الشيطان » ، والنقود ، حتى اذا ما كبلت صيدها بالفتنة والمال ، وصيرته تابعا ولها ، ارتشفته حتى الثمالة ، وقذفت بما تبقى منه خارج حدود عشقها المجنون .

ـ فاجرة مجنونة .

هكذا قال شاهد العيان .

ـ ٦ ـ

.. عندما بلغت الثلاثين ، لم يعد مجون «حياة» سرا تحكيه العذارى في خفر ، أو يهمس به مراهق لغر مفتون ، أو تتناقله عجائز الحي وشوشة في البيوت الموصدة ، اذ صار مجون « حياة » حديث كل العذارى والمراهقين والعجائز ، علانية دون حياء ، حتى خشي كل سكان الحي أن يصاب الاولاد والبنات بطاعون « حياة » فأحاطوها بكراهية سوداء ، ثم تهددوها بالقتل ان لم ترحل عن الحي .

ونبذت ، فحقدت « حياة » على الرجال ، وعلى الفتيان والبنات والعجائز ، وعلى كل سكان الحي ، واسودت الدنيا أمام عينيها اللتين كانتا جميلتين ، وقررت الرحيل الى حي غير ذاك الحي ، مشحونة بالحقد والفجور .

ـ فاجرة حقود .

هكذا رآها شاهد العيان .

ـ ٧ ـ

.. في الاربعين ، وفي « غير ذاك » الحي حجت الى بيت الله الحرام ، وبدت ثرية ودودة متعبدة ، تصلي لله في كل وقت ، وتعطي من مالها الكثير ، لليتيم والفقير والسائل والمحروم ، فأحبتها كل القلوب ، لكن « حياة » لم تحب أحدا ، اذ تعلمت الحذر ، ووعت تماما كيف تعامل البشر وصار همها أن تبحث عن سبيل مأمون لاخماد جذوة الجنس في الجسد المفتون ، فتزوجت من فتى في العشرين ، أمضت في ربوع شبابه عاما ، ثم طلقته ، فقال سكان الحي ، ان الزواج وفق الكتاب والسنه أمر مشروع ، وان الطلاق كذلك أمر مشروع وان كره ، ومضت « حياة » في اللعبة الجديدة.

ـ مزواجة مطلاقة .

هكذا قال شاهد العيان .

ـ ٨ ـ

.. في عامها الخمسين ، ضجرت من حبها القلوب في غير ذلك الحي ، وخشيت الامهات على أولادهن من حبائل العجوز المتصابية ، وتمنت على الله كل عذارى الحي ان تموت ، ثم حاصرتها تلك الكراهية السوداء ، وطلب اليها أن تكف عن جنونها او ترحل ، وانفض من حولها الفتيان ، ما عدا راغب في لذة عابرة أو غافل لا يلبث حتى يفيق فيفر ، وبدت « حياة » للعيان كمهرج شوه وجهه بمختلف الالوان ، والمرأة من غيها تتصابى وتغوي من دون أن تصيب حتى أقل الفتيان ، وجذوة الجنس تلك اللعينة تلهب الجسد ، وتعمي العينين اللتين كانتا جميلتين .

وحاصرتها تلك الكراهية السوداء بعنف ، وطلب اليها أن ترحل أو تموت ، وبكت « حياه » كما لم تبك امرأة من قبل .

ـ مهووسه تلك العجوز .

تألم لحالها شاهد العيان .

ـ ٩ ـ

.. في عامها الستين ، تكومت فوق فراش المرض ، مجرد شيء ، أي شيء ، وجه اصفر ثم اسود ، أسنان عبث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة بعد الاخرى ، شفاه تهدلت ، شعر تساقط فقصر ثم ابيض حتى صار في لون الثلج ، العينان ذبلتا ، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار في امكان طفل أن يحتويه ، وكأن هذه المكتومة فوق فراش المرض لم تكن أبدا صبية غرة ، تلذذت بنظرات الذكور تخترقالجسد الشفاف المكتنز حتى العظم ، أو عاشقة في ربيع الصبا تحلم بالحب والزوج والولد ، وكأنها لم تكن عاشقة مجربة أو زوجة مدللة تعبث بالنقود ، او امرأة ناضجة تنهل من معين الشهوة في نهم ، أبدا ، كأنها لم تكن .. أبدا .. كأن قلبها لم يخفق بحب ، أو يشحن بكراهية كل البشر ، أبدا ، كأن المكتومة لم تكن أبدا « حياة » .

وقاطعت « حياة » شاهد العيان باخر أنفاسها لفظها في وهن ، فطأطأ رأسه وأردف في أسى :

ـ ها لقد انتهت الرحلة .. ها لقد انتهت المهزلة .

طرابلس في اكتوبر ١٩٧٤ م

الثقافة العربية في

اللغة العامية الطرابلسية

بقلم الدكتور: العيد أبوديب

كثيرة تلك الكتب التي صدرت باللغة الايطالية والتي تناولت الجوانب التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في ليبيا بداية من هذا القرن وحتى نهاية النصف الاول منه . ولكن ما اقلها بل ما اندرها تلك التي تعرضت الى الحياة الثقافية والقت الاضواء عليها ، ولعل هذا هو سبب خلو المكتبة الليبية المترجمة عن اللغة الايطالية من كتب تتناول الجانب الثقافي في ليبيا في فترة الاستعمار الايطالي ، وبالتالي تركيز المهتمين بترجمة ما يتعلق في الغالب بالجانب التاريخي .

ليس معنى هذا ان الاستعمار الايطالي قد غفل عن ذلك الجانب او لم ينل منه اهتماما ، او قلل من خطورة شأن الثقافة والادب والفكر على وجوده في ارض ترتبط ارتباطا وثيقا وروحيا بتراثها الثقافي والحضاري الذي تمتد جذوره عبر مراحل التاريخ وترجع اسسه الى الرصيد الادبي الضخم الذي خلفه العرب ويستمد اصالته من اللغة العربية التي اتخذها القرآن الكريم عنوانا له وحلقة وصل بينه وبين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها .

وانما على العكس من ذلك ، لقد تنبه الى هذه الحقائق واولاها اهتماما كبيرا وهو يمهد السبيل لاحتلال ليبيا عسكريا .. التفت الى التعليم باعتباره اداة تنوير فكري وعقلي ووسيلة ثقافية للوعي السياسي والقومي فاخذ يعمل على هدم بنيانه وتقويض اسسه ومحاربته والحيلولة دونه وابناء ليبيا .

وكما هي عادة الاستعمار يبدأ هدفه التخريبي متسللا وعلى مراحل تنتهي به الى تحقيق ما يرمي اليه ، بل يغلفه في صورة تبدو وكأنها خطوة على طريق النهضة والتقدم ، فكما هو معروف لدارس تاريخ ليبيا الحديث في ظل الاستعمار الايطالي ان هناك خطوات تمهيدية سبقت الاحتلال العسكري لليبيا قامت بها ايطاليا في مطلع هذا القرن ، من بينها انشاء عدة مدارس تعليمية ايطالية في بعض المدن الرئيسية في ليبيا !!

وكثيرا ما يقف الباحث او الدارس لتلك الفترة عند تقرير هذه الحقيقة دون ان يتجاوزها او يتخذ منها منطلقا لتوضيح ابعادها وما يتصل بها من الاجراءات التي عادة ما يقوم بها الاستعمار وهو يعمل على تقويض الاسس الثقافية للبلد الذي يفرض عليه سيطرته والتي تتركز بالدرجة الاولى في محاربته للغته القومية ومحاولة تفتيت بنيانها وتعكير صورتها المشرقة في عيون ابنائها وتسريب سموم الشك فيما يتعلق باصالتها وروحانيتها وقدرة عطائها الادبي والفكري .

وليس ببعيد عن الاذهان تلك المحاولات الخبيثة التي قام بها الاستعمار البريطاني وعملائه في المشرق ، باثارته لقضية اللغة الفصحى والعامية وما لزمها من صراع طويل بين مؤيد ورافض ، وقد اشار اليها د. محمد محمد حسين في كتابه القيم (الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر) الجزء الثاني باعتبارها دعوة هدامة « تريد ان تفرق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والاساليب تحت ستار من الرغبة في الاصلاح وفي مسايرة الزمان »(١) مشيرا الى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد الا الى محاربة الاسلام في لغته .

وقد عرض لتاريخها في مصر الذي يرجع الى سنة ١٨٨١ اي قبل الاحتلال البريطاني لمصر بسنة واحدة عرضا سريعا وتبيانه مصادرها التي تعود الى كتاب (لغة القاهرة) الذي الفه أحد قضاة محكمة الاستئناف الاهلية في مصر من الانجليز وهو القاضي (ولمور) في أوائل سنة ١٩٠٢(٢) . والى كتاب (اللغة المصرية) الذي هو ترجمة للانجيل قام بها انجليزي آخر كان مهندسا للري في مصر وهو وليم وكلوكس سنة ١٩٢٦ ودعا فيه الى هجر اللغة العربية (٣) .

ولعلنا من خلال هذا العرض التاريخي في لمحة البصر نتبين ان الاستعمار واحد في اساليبه وخبثه وان تعددت اسماؤه وتنوعت اشكاله واختلفت مواطن ترحاله وسكناه ، ولندلل على هذا الكلام يمكننا ان نطرح السؤال التالي لنصل بمقدمتنا السابقة الى هدفها المنشود :

هل صنع الاستعمار الايطالي في ليبيا صنيع نظيره الانجليزي في مصر بخصوص تلك الدعوة الهدامة وهل عمل من اجل نشرها وجند لها من يحققها ؟ أي هل لها تاريخها ومصادرها في ليبيا ؟

الاجابة على ذلك تأتينا من بين ارفف مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية بجامعةدرهام البريطانية التي ادرس بها . اذ ان هناك رفا خصص للهجات العامية في البلدان العربية ، ويضم عدة كتب بلغات مختلفة اغلبهاالفرنسية والانجليزية تناولت اللهجات العامية في بعض اقطار الوطن العربي ، على وجه الخصوص المغرب والجزائر ومصر ، قام بتأليفها مستشرقون عاشوا سنوات عديدة بين اهالي تلك الاقطار فكرسوا وقتا طويلا منها لاعداد الدراسات والبحوث المتعلقة بهذا الجانب فكانوا بذلك ادوات تمهيد ساعدت بلدانهم على الاحتلال ومعاول هدم في حياة تلك الاقطار الثقافية والفكرية .

ولم يحل هذا الرف من كتب تناولت هذا اللون من الدراسة في ليبيا ، فقد ضم كتابين باللغة الايطالية الاول حمل في صفحة غلافه عنوانا باللغة العربية جاء على النحو التالي (التحفة اللوبية في اللغة العامية الطرابلسية) واخر باللغة الايطالية وترجمته الحرفية (للهجة العامية لليبيا لمؤلفه الدكتور اوجينو كريفيني والكتاب صغير الحجم من نوع الجيب يحتوي على ٣٧٨ صفحة وقد طبع بميلانو سنة ١٩١٣ أي بعد الغزو الايطالي لليبيا بسنتين فقط ، مما يدل على الاهتمام المبكر للاستعمار الايطالي بهذاالجانب ذي الاهمية التي أشرنا اليها باعتبارها عاملا مساعدا وخطوة تمهيدية للغزو وتمكين الايطالي في التربة الليبية .

واذا كان مؤلف الكتاب قد توخى السجع في عنوانه العربي الذي تصدر صفحة الغلاف على طريقة المتقدمين من اصحاب المؤلفات العربية فان العنوان أيضا يشير الى تبني المؤلف ـ ولكنه فيما يبدو ظاهريا ـ اسم (لوبيا) واطلاقه على ما يعرف الآن بليبيا ، وهي قصة تتبعها الاستاذ محمد مصطفى بازامة في كتابه القيم « ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية » ذلك ان عنوانه الآخر الذي جاء باللغة الايطالية لم يؤكد على تمسك المؤلف بتلك التسمية (لوبيا) وانما حمل اسم (ليبيا) .

مما يعني هذا ان المؤلف قصد من وراء وضعه لهذا الكتاب غرضين خبيثين أراد ان يشغل بهما اذهان المتعلمين من أبناء ليبيا في تلك الفترة على قلتهم وهما استخدام اسم لوبيا بدلا من ليبيا كما هو واضح من العنوان ، والدعوة الى استعمال العامية وهجر اللغة العربية كما يدل على ذلك المحتوى .

أما عن الكتاب في حد ذاته فهو اشبه بقاموس ضم عشرة آلاف من المفردات والكلمات العامية الليبية جاءت في الصفحات من (١ ـ ٣٥٢) ، وقد كتب لهذا القاموس الصغير مقدمة وردت في ٤٤ صفحة تحدث فيها باختصار شديد عن الادب العربي واللهجة العربية واستعمال صيغة الجمع في ليبيا والعلاقات النحوية والى طريقة النطق والنسخ والكتابة وعلم الصرف والفعل مع امثلة على تصريف الافعال .

وقد اختار المؤلف نظام القواميس الاجنبية في عرض المفردات الليبية حيث كان يورد الكلمة الايطالية مرتبة وفقالحروف الابجدية مع نظيرها في العامية الليبية ولكنها لاتينية الحروف محلية النطق مع توضيح لمعانيها وتفسير لاشتقاقها فضلا علىانه فيبعض الاحيان يورد صيغة الجمع ان كانت الكلمة مفردة .

أما الصفحات الباقيات من هذا الكتاب (٣٥٣ ـ ٣٧٨) فقد خصص جزءا منها للتعريف بالتقويمالاسلامي أي الهجري موضحا الاشهر العربية وعدد ايامها ، ثم اورد التاريخ الميلادي واشهره الافرنجية من سنة ١٩١١ الى ١٩٢٠ وما يقابله من التاريخ الهجري واشهره العربية من سنة ١٣٢٨ الى ١٣٣٨ .

أما الجزء الآخر فكان عبارة عنصورة فوتوغرافية لرسالة خطية خالية من اسم كاتبها أو اسم المرسل اليه . وقد قام اولا بنقلها حرفيا الى حروف مطبعية ثم الى حروف لاتينية ولكنها محلية النطق ، كل كلمة

على حدة وتحتها مع ما يقابلها في اللغة الايطالية ثم بعد ذلك اوردها في ترجمتها الايطالية المتكاملة .

وملخص الرسالة - الموجهة كما يبدو الى شيخ المحلة المكلف ببعض الامور الادارية لمنطقته من قبل الحكومة الايطالية - ان اسرة تونسية مقيمة بطرابلس كتبت اليه تطلب منه « علم خبر » أو رسالة تزكي مطلبهم في الحصول على اذن خروج من ليبيا الى أهلها في تونس موضحة الاسباب التي من اجلها تنوي هذه الاسرة ترك الاراضي الليبية .

والقارىء لهذه الرسالة في لغتها العامية التي كتبت بها سيتبين له مرجع ذلك الاهتمام الكبير للمؤلف بها والذي سبق ان اشرنا اليه ، بل هو يؤكده حين الحق كتابه هذا باربع صفحات عربية هي خاتمة الكتاب اقتطفها من جريدة (ابو قشة) التي كان يصدرها الصحفي التونسي الهاشمي المكي (ابو قشة) في ليبيا قبل الغزو الايطالي . وقد اشار المؤلف الى مصدرها والى تاريخ هذا المصدر وهو السنة الثانية عدد ١٠ الصادر في ١٩ صفر ١٣٢٨ هـ - الموافق ٢ مارس ١٩١٠ .

أما عن تلك الصفحات العربية الاربعة فهي عبارة عن محادثة خيالية وقصيدتين زجليتين الاولى عنوانها (انتقاد) والثانية (الجواب) وهما خاليتان من اسم صاحبهما وان كان من السهل معرفتهما فالاولى للشيخ محمود نديم بن موسى والثانية لابي قشة .

لقد نشب خلاف بين الصحفي الليبي الشيخ محمود نديم بن موسى صاحب جريدة (الرقيب العتيد) وبين الصحفي التونسي الهاشمي المكي صاحب جريدة (ابو قشة) تحولت الى عداوة صحفية وخصومة ادبية اشار اليها الاستاذ علي مصطفى المصراتي في كتابيه (كفاح صحفي)(٤) و (صحافة ليبيا في نصف قرن)(٥) وقد اتخذت هذه الخصومة صورا ادبية مختلفة تارة في شكل حوار وطورا من خلال شعر زجل شعبي واحيانا كمقالة أو كلمة ، الا انها في الغالب تكتب باللغة العامية لذلك كان الشيء الوحيد الذي لفت انتباه المؤلف الايطالي في هذه الجريدة وبالتالي كانت صيده الثمين وموضع استشهاداته في كتابه المشار اليه آنفا .

اما الكتاب الثاني الذي تضمه أرفف مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام ببريطانيا فهو ايضا باللغة الايطالية لمؤلفه انطوانيو كيسارو وعنوانه (اللهجة العربية في طرابلس) وقد طبع في روما سنة ١٩٣٩ . وللمؤلف اعمال اخرى في مثل هذا المجال أوردها في الصفحات الاولى من هذا الكتاب الذي هو من الحجم المتوسط ويحتوي على ٢٩٢ صفحة .

والكتاب لا يختلف عن سابقه في موضوعه وانما في طريقة العرض ، حيث لا يتبع نظام القواميس في ترتيب المفردات والكلمات العامية الليبية بل يدرسها كموضوعات وفق منهج علمي ، فضلا عن تناوله للاسماء والارقام ، فهو مقسم الى مقدمة وبابين كان الباب الاول في علم الاصوات (الفونوتيك) والثاني قسم هو الآخر الى ثلاثة فصول ضمها عنوان واحد هو علم الصرف (المورفولوجيا) . وقد تناول المؤلف في هذه الفصول ادوات التعريف والاسماء والافعال .

ويختتم المؤلف كتابه هذا بعدة صفحات عربية ضمت - كما فعل صاحب المؤلف السابق - نماذج من اللهجة العامية في طرابلس وقد أورد بعضها بحروف مطبعية واخرى كتبت بخط اليد من قبل بعد المتعلمين من الليبيين فتنوعت انماط هذه الكتابات الخطية التي قام بها المؤلف بتصويرها والحاقها في خاتمة كتابه .

ويبدو من خلال بعض هذه النماذج التي وردت بحروف مطبعية ان المؤلف نفسه قد شارك في الكتابة باللغة العامية كما يتبين ذلك من خلال النموذج الذي جاء تحت عنوان (رمضان) ص ٢٦٨ .

أما تلك النماذج الخطية ، وهي سبعة نماذج وردت في خمس عشرة صفحة (٢٦٩ - ٢٨٣) ، فان بعض موضوعاتها قد تناول شيئا من الحكايات والخرافات والنوادر التي تروي عن شخصية جحا وشيئا من طرائف الادب العربي متمثلة في شخصية ابي نواس مع هارون الرشيد ، في حين ان بعضها الآخر قد تناول مظاهر مختلفة من الحياة الاجتماعية وصورا شعبية من المجتمع الطرابلسي كزيارة اهالي ورشفانه والعلاقة لسيدي ابن حميرة في الزاوية الغربية كل سنة وما يتم في هذه الزيارة من مراسم وطقوس وكذلك ما يحدث في المناسبات الدينية كعيد الاضحى وعيد (الطهارة) الختان وفي الافراح (العرس) .

وقد ورد تصوير تلك المظاهر والصور الشعبية الاجتماعية بلغة عامية وسرد شعبي ، ويبدو ان بعضها ان لم يكن اغلبها كتب من قبل عامة الناس ممن يعرفون القراءة والكتابة وبعضها الآخر كتبه بعض المتعلمين الذين قرأوا شيئا من الادب العربي . وعلى الرغم من ان بعض هذه النماذج قد ورد بشيء من الاقتضاب الا أنه يعطينا لمحة حية عما كان عليه المجتمع في طرابلس من عادات وتقاليد وامراض اجتماعية من الواضح ان المؤلف تعمد اختيارها وتثبيتها في كتابه هذا الى جانب

هدفه الكبير وهو الدعوة الى العامية وهجر اللغة العربيـة .

وباستثناء الصفحات من (٢٦٢ الى ٢٨٥) التي تشكل المادة العربية للكتاب فان المؤلف اكتفى في بقية الصفحات بذكر الكلمة الليبية في حروف لاتينية وفق نطقها الشعب العامي .

على أي حـال .

ليس غريبا ان نجد من بين اهتمامات الاستعمار الايطالي ابان غزوه لليبيا العمل على محاربة اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ولغة المسلمين في هذه الديار ومحاولته تشويه اصالتها في نفوسهم عن طريق الدعوة الى تبني اللغة العامية كلغة كتابة ووسيلة تعبير عن أفكارهم ومشاعرهم وفيما يتصل بتراثهم الثقـافي ومخلفاتهم الحضـارية .

ولعلنا بتقديم هذين النموذجين في عجالة خاطفة نلفت انتباه الباحثين والدارسين للفترة الهامة من تاريخ ليبيا الحديث في مطلع هذا القرن وحتى منتصفه ، حين كانت ليبيـا ترزح تحت نـير الاستعمار الايطـالي والبريطاني ، الى جانب هام وخطير لم ينل بعد حظـه من البحث والدراسة والتدقيق ليتمكنوا من تسليط الاضواء الكاشفة عليه ويلموا بجوانبه ويكشفوا لنا ما قد كتب وطبع من مؤلفات في هذا المجال الذي دار في نطاقه الكتابان اللذان عرضنا لهما هنا في شيء من الايجاز .

د. الصيد محمد ابو ديب

(١) د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٦ . ص ٣٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٥ .

(٣) نفسه ص ٣٣٦ .

(٤) علي مصطفى المصراتي ، كفاح صحفي ط/اولى بيروت ١٩٦١ ص ٣٩ - ٥٣ .

(٥) المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ط/اولى بيروت ١٩٦١ .

* * *



الحريق

قصة : خليفة حسين مصطفى

اشتعل حريق في جسد عبد الفتاح على غير انتظار ، التهبت عروقه ، نزفت عيناه دموعا بلون الدم حدث ذلك ذات ليلة صيف حارة ، وبينما انهمك عبد الفتاح العامل في شركة الادوية في محاولة اطفاء الحريق الذي شب في دمه ، كان ينصت في نفس الوقت الى مقطع من أغنية دأبت البنات على ترديدها في الشارع .

ــ يا عبد الفتاح وين ضيعت المفتاح ؟

يدير عبد الفتاح رأسه في أرجاء حجرته العارية ، يخيل اليه في كل وقت أن الجدران تزحف نحوه ــ غير عابئة بصراخه ورعبه ، تزحف نحوه وتسحق عظامه .

تذكر عبد الفتاح بغتة اليوم الذي تعرف فيه على رائحة المرأة ، كان طفلا نزقا يهوى اصطياد الذباب ، وفي احدى المرات هوت كف خشنة على وجهه ، بكى عبد الفتاح بحرقة ، ثم جفف دموعه ، وطار نحو المرأة التي استدعته لينام في سريرها ــ ويؤنس وحدتها أثناء غياب زوجها في عمله الليلي ، هرع نحو السرير وارتمى فوقه التصق بالجدار ولم يلبث أن غرق في النوم .

في البداية خيل اليه أنه يحلم ، من جانب يصده الجدار ، ومن الجانب الاخر يلتصق به جسد المرأة في عنف ، يتراجع الى الخلف فيصده الجدار .

حرارة غريبة انتشرت في اعضاء جسده الغض ، جعل يحرك ساقيه ويتململ ، يحاول أن يدفع بالجدار الى الوراء ولكنه في كل مرة كان يصاب بخيبة أمل .

ضاعت كل التفاصيل الدقيقة بمرور الوقت ، ولم يبق سوى الفعل ورد الفعل في صورة غائمة ، رد الفعل الذي جعل عبد الفتاح يتصبب عرقا ، ويقضي يوما كاملا مستلقيا على السرير بلا حراك .

يطوف حول المشهد ، ويحاول أن يتذكر ، الرعشة التي هزت جسده لم تدم فترة طويلة .

ومنذ ذلك اليوم أقلع عبد الفتاح عن لعبة اصطياد الذباب ولكن المرأة أبت أن تدعوه مرة اخرى الى الفراش فلم يتغيب الزوج منذ تلك الليلة .

لولا الحريق الذي شب في جسده فجأة لافلح في تذكر كل التفاصيل ، ولكن الحريق أنساه كل شيء ، نهض عبد الفتاح وخلع ثيابه وغمرها في الماء ، خلع جلده وعلقه فوق الجدار ، قبع في ركن الحجرة يفك عظام جسده على مهل ، لقد اسودت العظام من أثر الحريق ، راح يعيد تنظيف عظامه وكأنه يتسلى بلعبة لا تخصه ، ثمة أغنية حزينة تطرق أذنيه ، الاغنية تشكو في لوعة من حياة تتغذى على دم الانسان .

في الصباح تذكر عبد الفتاح الحريق ، قفز من السرير ، وفي فمه طعم الدخان ، تذكر الحريق وكأنه حلم مفزع تحسس عظامه وكساها بالجلد ، سحب من دولاب قديم بدلة سوداء داكنة اللون ومغطاة بطبقة من الغبار ، بحث عن ربطة عنق وقميص نظيفين ، وقف في مواجهة المرآة يتأمل هيئته الجديدة . ضحك عبد الفتاح جذلا ، ها هو يبدو لنفسه أكثر أناقة من أولئك

الرجال الذين يتفرج عليهم في السينما - يداعبون البنات بالجملة ، ويتجولون بعربات فارهة ، والقاعدة هي أن صاحب العربة لا بد ن يفوز بصيد ثمين ، انه حقا لا يملك عربة ولكن أناقته وسمرة وجهه الداكنة ترشحه للفوز بواحدة من تلك القطط المكتنزة التي لا تكف عن المواء .

تذكر عبد الفتاح عند العتبة انه لم يعد ينقصه شيء سوى أن يعيد الى حذائه بريقه المنطفىء . غسله بالماء ، قطب حاجبيه وغرق في كآبة شديدة لان الحذاء لم يسترد لمعانه وبريقه .

لوح بيديه في استياء ، خرج الى الشارع وحث خطاه ، أخذ يمشي على مهل مبديا أناقته لكل من يقابله، اتجه الى الشارع الذي يؤدي الى ذلك البيت الذي تعود أن يمر به ويبطىء من سرعته عندما يقترب منه ، يبطىء من سرعته ، ويرفع عينيه نحو نافذة ذات شباك حديدي ، البيت قديم ، والشارع مترب ، مزدحم بالاطفال الحفاة ، يقول عبد الفتاح في نفسه ان ذلك غير مهم ، فما أن يطالعه وجه الفتاة من خلف الشباك الحديدي حتى ينسى كل شيء ، تطرق عيناه ويغمره عرق بارد ، الابتسامة الغامضة لا تتغير ، ويهمس عبد الفتاح بشيء ما ، فتتسع الابتسامة الغامضة ، يدق قلبه ، ولكن لماذا تصر على الا تبادله كلمة واحدة عشر سنوات وهو يمر بنفس المشهد كل يوم ، تنهال الثروة على الناس فجأة فيصيبهم الجنون ، ويتسابقون لاقتناء العربات الفاخرة فتتحول المدينة بين يوم وليلة الى ميدان مصارعة دائم الحركة والنشاط ، فهاهي الثيران الحديدية تتقافز في الهواء في هياج شديد ، تزدحم المدينة بدكاكين العطور ويزداد عدد المطاعم ، ويطل الشباك الحديدي كما هو ، يصدأ فيسرع صاحب البيت ويعيد دهنه ، الصراع بين الدهان والصدأ مستمر - ولكن القضبان هي القضبان .

يا عبد الفتاح وين ضيعت المفتاح ؟

في أحد الايام اقترب عبد الفتاح من النافذة ورفع رأسه فطالعته الابتسامة الغامضة همس عبد الفتاح بشيء لم يعد يذكره ، ولكنه تبين على الفور ان ما قاله كان مثيرا للسخط والغضب ، فقد ألقت الفتاة على رأسه بسلة من السباب تقبلها راضيا ومندهشا ، وفر مسرعا لا ينوي على شيء هذه المرة لن يقف تحت النافذة ولن يهمس بشيء ، سوف يتجه نحو الباب مباشرة ، ضحك وقال : هل تعرف هذه الفتاة المعذبة أن الارض كروية وان ...

كف عبد الفتاح عن التلفت ، والتحديق في كل فتاة يمر بها ، وقد راعه أن يبطىء في سيره في الوقت الذي يسرع فيه الاخرون دون أن يكونوا مقبلين على مهمة خطيرة كمهمته ، انه أحوج الى السرعة ، ففي هذا اليوم سوف يتقرر مصيره ويتخلص من رائحة الحريق الى الابد .

انعطف نحو شارع ضيق ، وأخذ يحملق في الابواب وواجهات البيوت المتشابهة ، ثمة جدار واحد تتخلله حفر مستطيلة سدت بقطع من خشب متآكل ، اتجه نحو البيت الذي يقع في طرف الشارع ، طرق الباب المتصدع ، أصر متراجعا الى الداخل ، فأصر قلب عبد الفتاح أيضا .

دلف الى السقيفة ، ونظر فيما حوله مستطلعا ، وما أن لبث أن غاص حتى أذنيه في ترحيبات صاحب البيت وتحياته الحارة ، غاص ثم عاد يطفو ببطء بعد أن نفذت كلمات الترحيب ، ورفع صاحب البيت رأسه داعيا عبد الفتاح الى أن يأخذ دوره في الكلام .

قال عبد الفتاح حين احتوته حجرة عارية ليس بها سوى حصيرة قديمة .

- أنت تعرف يا سيدي أن الزواج نصف الدين و ....

قال العجوز مقاطعا :

- على الرحب والسعة .. أنت رجل

قال عبد الفتاح :

- أعرف انني رجل .

استطرد العجوز :

- على بركة الله يا بني ، لقد خمنت غرضك في البداية ، ضحك عبد الفتاح طربا ضحكة ظل صداها يتردد في أذنيه أعواما طويلة .

غادر عبد الفتاح البيت القديم شبه عار ، وقد

احتضن تحت ذراعه فتاة ضئيلة ناحلة مصفرة الوجه ، ومضى من فوره الى بيته مبتهجا وخجلا وقال في نفسه وهو يجر خطاه فوق التراب : انه في وسعه أن يشتري بدلة اخرى ، وساعة ، وربطة عنق ، وحذاء ، ولكن من أين للمرء أن يحصل على جوهرة كهذه ، وتحسس الوجه الاصفر برقة .

حظ لا يتكرر في حياة الانسان مرتين .

وعلى طول الطريق جعل عبد الفتاح يزمجر في وجه كل من ينظر الى قدميه الحافيتين وفتاته التي تشبه الدمية المهملة .

انهم يحسدونه على حسن حظه .

في المنزل زأر عبد الفتاح بقوة وحدة ، بدأ يجرب الرقص ، كف عن الرقص والزئير القى بفتاته فوق السرير ، خلع ملابسه ، زأر وهو يقفز في الهواء ويرتمي بجانب زوجته .

توقف عن الزئير وشرع يغني ،

ومضى يغني حتى أنجز مهمته الخطيرة بنجاح ، برزت عروق وجهه وغمره عرق بارد .

غادر السرير وقبع في ركن الحجرة ، عاد للغناء بصوت خافت ، وراقه أن يعيد لنفسه في صورة دقيقة ما وقع بينه وبين فتاته منذ قليل ، وتجلت أمامه ذكرى مبيتة مع امرأة لاول مرة في حياته وهو ما زال طفلا صغيرا ، تواردت التفاصيل بكل أسرارها وحرارتها ، وخطر له أن ينادي على زوجته ولكنه تعجب لانه لم يتعرف على اسم زوجته حتى هذه اللحظة دنا من السرير ، الجسد الضئيل المنهك ينكمش فوق الفراش بلا حركة ، انحنى وقال شيئا ضحك له وحده ، رفع صوته ، تحول الهمس الى صراخ ، هز الجسد المنكمش بكلتا يديه في جنون التفت ناحية الجدار ، غص بحزنه ودموعه .

ليس من المعقول أن تكون قد لفظت أنفاسها الاخيرة وفارقت الحياة . ماتت قبل أن يعرف اسمها .

* * *

فيما بعد أخذ عبد الفتاح يطوف بالشوارع والمقاهي يتوقف عند ابواب المتاجر يمشي في ظل الاشجار يرفع رأسه نحو السماء ، يعبر الزحام ، ويلف حول الميادين يرفع قدما وينزل أخرى يقطع بضع خطوات الى الامام ويتوقف .

يسأل عبد الفتاح كل من يصادفه عن دواء يمنع انبعاث الرائحة الثقيلة من الجسد المتحلل ، يقفز كالارانب ، يبتعد ولا يعبأ بسماع الاجابة .

ـ الحريق .. الموت .. ال

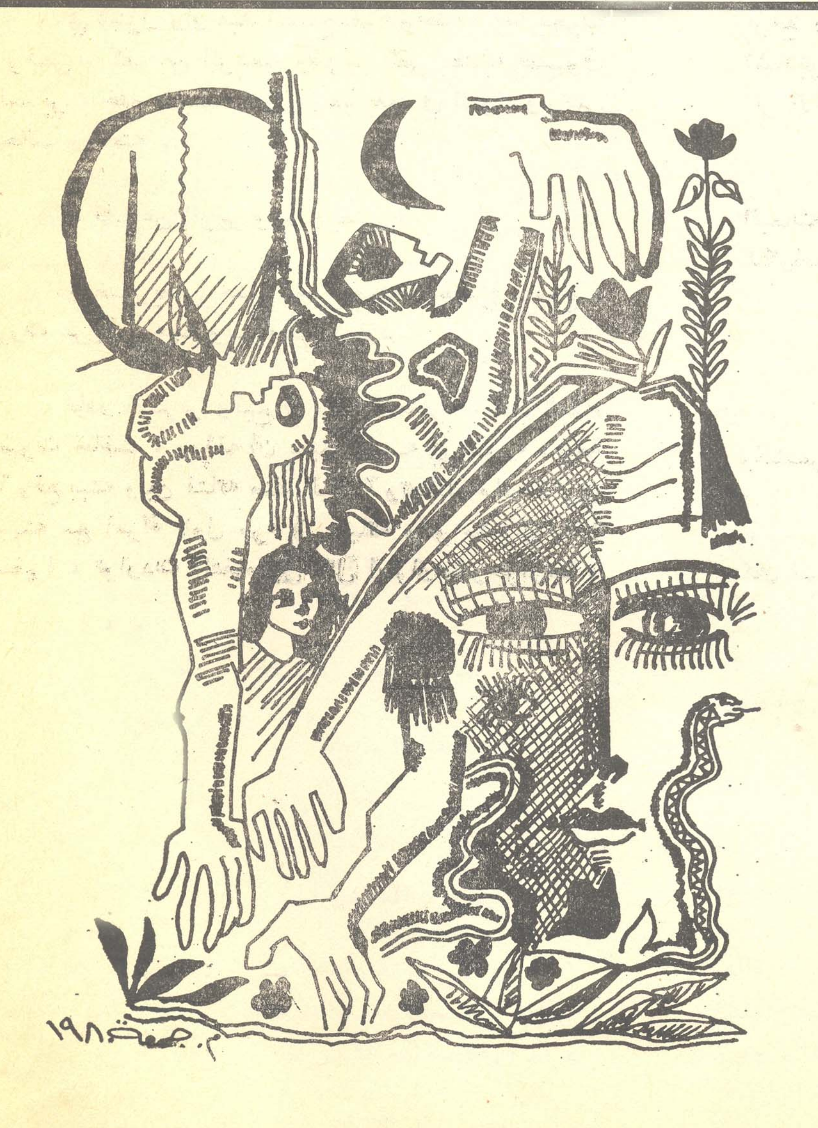
يتوقف رجل ويشير نحو كومة من الثياب الرثة والشعر الطويل المتسخ والقدمين الحافيتين ، ويقول:

ـ اسمه عبد الفتاح .. كان شابا ، كان رجلا ، كان اسمه عبد الفتاح .. كان انسانا ..

في زمن الموت

بلا مقابل

شعر: علي عبد الشفيع الحزم



تندلع الحرائق
ترتجف الارض ...
لهول ما تصب من لعناتها الصواعق
تزدحم السماء بالسحاب والغربان
تمطرنا بالرعب والقنابل
تحجبنا كثافة الدخان
عن رؤية القتلى ...
وعن هوية القاتل
وحينما تنتبه الساحات عن غشيتها
بعد انتهاء القصف
تنتشر الارجل ...
والرؤوس ...
والايدي بلا أكف
لا شيء قد حدث
لا شيء غير الفين من الجثث
تنتظر الاكفان
لكن وقت الدفن ليس الان
فنحن ما نزال
منتظرين غارة جديدة
تمدنا بدفعة جديدة
من جثث النساء والاطفال

لربما ألف يجد
ربما ألفان
وعندها يخرج من مخبئه الجمهور
لنحضر الاكفان ... ثم نحفر
القبور
في مرة بدون أن تتعب مرتين
فوقتنا للموت والعبث
لكننا نكتب فوق شاهد الشهيدة
بيتين من قصيده
وبعد أن نخط بالكوفي آيتين
ننقش للاجيال
(هنا تنام طفلة أحرقها اليهود
شوهها النابالم
رغم زمجرات الرعد في النشيد
وصفحات النصر في تاريخنا المجيد

* * *

تنهمر القنابل
تحترق الاجساد والسنابل
يختلط البكاء بالدعاء
في صوت ما تنشده النساء
(ان تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق)

فمن نجا من لهب الحرائق
مات على المشانق
في زمن الموت بلا مقابل
فليبدأ العزف على البنادق
ان الفداء وحده هو الحليف
الصادق
سيصنع الخوارق
ويكتب النصر على البيارق
ويجعل الموت له معادل

* * *

في زمن البغاء والطاعون
والموت قبل الموت .. والجنون
وسهرات النرد والافيون
والصبر .. والمجازر
يظل صعبا ما تواجهون
أعداؤنا الاعداء من أمامكم
مدججون
والاخوة الاعداء من ورائكم خناجر
ونحن ساكنون .. ساكتون
يلفنا الغموض
والزيف والمهانة
الكل في أمواجها يخوض

وأنتم صامدون
تقاتلون في بسالة فتسقطون
أمامهم .. أمامنا مضرجين
وهم يهددون يوعدون
ونحن ساكتون .. ساكنون
نزيفكم نزيفنا
مصيركم يخيفنا
في زمن السقوط والخيانه
في زمن المجازر
ضاقت علينا الارض وهي رحبه
وبلغت قلوبنا الحناجر
ونحن في انتظار أن تمدنا السماء
وهي عادله
بالبعض من كتائب الملائك المقاتله
فتغمر السكينه
من قبل أن تستيقظ المدينه
فجرا على الدمار والعفونه
فأمركم لله والسلاح والفداء
فوحدها الدماء
بها تنتصرون ..

الباب الأخضر

قصة : يوسف الشريف

على طول الزقاق تجمع رجال وأطفال يتطاولون بأعناقهم يقفون على رؤوس آصابعهم علهم يلمحون شيئا ، أصوات تنوعت طبقاتها تمتزج وتنصهر فتستحيل الى صرخة تبعث الرعب في القلب ، رجل يختبىء داخل — جرد — رقيق ابيض عينان كعيون الاطفال ، يتحرك ببطء تحت ثقل جسمه الضخم المكور يحاول أن يسمع صوته الاخرين — لازم تطلع من الشارع — وتعلقت به العيون وكأنما هو خيط الرجاء ، تركوا ممرا بينهم فأصبح وكأنه قائد منتصر يتفقد جنوده — هذا الحاج حسن همست بالكلمات بعض الشفاه وطواها الصمت ... طفل يهمس في اذن زميله — حق خالتي مريومة ؟ الزقاق تغرقه رائحة أوعية الفضلات المتناثرة أمام البيوت — الاجساد تتصادم والايدي تتحرك وتدفع من أمامها وخلفها ، تلتقي العيون لحظة ثم تفر من بعضها تحاول أن تخفي كوامنها الباب بلونه الاخضر الشديد الخضرة والمطلي حديثا مغلق — تتحول العيون كل العيون الى نهاية الزقاق يمزقها شوق مدمر ، رجل يظهر من خلف المنعطف يندفع نحوهم وجسمه الصغير يهتز بخفة متناهية — السيارة جاية وراى ... مشيتهم بنفسي — ويعيد الجملة أكثر من مرة فيقتربون منه وكأنهم ، يترقبون الخبر الذي انتظروه طيلة حياتهم الا انه لسبب أو لآخر يبتعد عنهم وفي أعماقه تحترق أحاسيس لايستطيع الافصاح عنها ، رجال أخرون وأطفال يكتسحون الزقاق يسألون رفاقهم عن أشياء يعرفها الكبار ، بعض أبواب الزقاق تنفرج قليلا وتطل منها وجوه تختلس نظرات خاطفة وتتراجع في سرعة مذهلة وكأنما تحتمي من رصاصة انطلقت فجأة ، الزمن يمضي متثاقلا ، متوترا قابضا ، أحد الاطفال يمر من بين الرجال ويقترب من الباب الاخضر ويلقى بحجر تضمه يده الصغيرة فيصطدم بالباب ويترك نقطة بيضاء على طلائه ويرتد متدحرجا بين الاقدام — واندفع أكثر من رجل عندما صدرت حركة وراء الباب وتلاشت كسراب أثارت الحاج حسن فاندفع كالعاصفة وصوته يتابع ضربات يده العنيفة على الباب في أيقاع منتظم — مريومة .. مريومة .. مر .. يو .. مة .. وضحك بعضهم فتوقف ملوحا بيده في غضب كما لو كان يقول لهم — لتخرجوها أنتم اذن ... ؟ — وانسحب متراجعا وفي صدره تضطرم انفعالات محرقة تجعل قدميه لا تستقران في مكان وفي أعماقه أشياء يود لو يبوح بها ولخوفه منهم يحاول أن يبعدها عن تفكيره ، كذلك في أعماقه أشياء يود لو يخفيها الا انها تغمره كموجة شتاء عارمة تظهر في عينيه ولكن أحدا لم يهتم بالنظر فيهما ، ذكريات قريبة حدثت بالامس يسترجعها فيحس بنبضات قلبه تتوقف ، ويغمره شعور بالكراهية لكل الذين حوله بترتعش شفتاه كمن يوشك أن يصرخ ويندفع نحو الباب الاخضر ويضربه بقدمه فيتألم ويضرب بكف يده فيتألم أيضا ويصرخ في الملتفين حوله بصوت كريه جش (كسروا الباب) ويخرج الحرفان الاخيران من الكلمات أشبه بالانين الا انه لم يكد يكتشف أن الرجل الواقف بجانبه هو مصباح حتى يصرخ في وجهه وهو يدفعه بكلتا يديه « هدى جارتك طلعها شن تراجي » ويستسلم مصباح ويتقدم وعندما يصبح مواجها للباب يتوقف وكأنما هناك قوة خفية تشل

منه الحركة . أحس بالعيون تصفعه ـ خيل اليه أن هاوية سحيقة تطبق عليه من كل جانب فيتمنى لو يعود أو يختفي لكن الاجساد تضع أمامه وخلفه سورا بشريا متماسكا لاسبيل لاجتيازه ... فقط لو يبقى الباب موصدا ... ماذا سيفعل لو خرجت وواجهته بعينيها اللتين طالما تغزل بهما شباب الشارع بل وبعض شيوخه ... يستحيل عليه أن يختفي قبل أن تأتي ـ السيارة ـ انه يعرف ما سيفعلون سيحطمون بابها ويخرجونها بالقوة سيضربونها واستدار مرة أخرى وهو مصمم على أن يختفي ، استجمع قوته وحاول دفع الاجساد الا انه بمجرد أن قام بمحاولته حتى دفعته يدان قويتان كادتا تلقيان به على الباب الاخضر « وين ماشي ؟ » ولم يتكلم كذلك لم يتقدم ... لم يكن يريد الخروج من بيته ولكنه عندما سمع اسمه يردده بعضهم خرج .

ولم يعد يستطيع العودة ولم يدر كيف وجد نفسه كتفا للكتف مع الحاج ، صمت يخيم على المتربصين تؤكده أصوات الاطفال لم يعد هناك موضع لقدم غاب الباب الاخضر خلف الاجساد ـ السيارة باين مش جاية كسروا الباب ـ اهتزت كل ذرة من جسمه هل سينفذون وعيدهم والتفت نحو الحاج حسن الذي صرخ بالكلمات وانتظر جوابهم .. قام بمحاولة اخرى للافلات الا ان أحدهم سد في وجهه الطريق « وين ماشي هادي جارتك طلعها انت » وارتعشت يداه كأنما يوشك أن يصفع الحاج الا أن شيئا من ذلك لم يحدث ... ومرت أمام عينيه صور شتى من ماض قريب ... تذكر خصوماته مع زوجته عندما تكررت زيارات مريومة لها ، تذكر الليالي الحزينة السوداء التي مرت عليها بعد موت زوجها تذكر اليوم الذي جاءه فيه الحاج وطلب منه الابتعاد عنها ـ تذكر اشياء أخرى محسوبة عليه ... في مكتب شيخ الشارع في دكان ابراهيم في المخبز يتحدثون ويصفون لياليه معها ... بل وصل بسالم الى أن اختبأ خلف الناصية الى ساعة متأخرة عدة ليالي يراقبه ـ ومرت لحظات لم يدر ماذا يفعل خلالها ـ عندما خرج أكد لزوجته أن غيابه لن يطول ... قبل شهر قضت أكثر من اسبوع في « حوش بوها » بعد أن استطاعت زوجة الحاج ان تقنعها انه يلتقي مع مريومة في مكان ما بعيد عن الشارع « كسروا الباب » وسرت الكلمات بينهم واقتربوا من الباب وللحظة داهمه احساس بالخوف وازدادت ضربات قلبه « البارح عياد شبح راجل طالع من حوشها » ماذا سيفعل هل سيهرب ؟ والتفت يمينا وشمالا ورأى العيون تطلق سهامها تجرده من ملابسه وانتشرت همهمات بينهم كأنما ملوا الانتظار « مريومة » اطلقه احدهم نداء طويلا يحمل غضبا ليس له نهاية وذاب الصوت في الفراغ الا ان الحاج كمن استيقظ لتوه من النوم انتفض وجمع أطراف جرده الذي عبثت به الريح فكاد ينفصل عنه وتقدم وابتعد مصباح قليلا وأسئلة حيرى تقربه وتبعده عنها ، رغم كل شيء فلن يدعهم يحطمون بابها .

وتطاول قدر استطاعته ينظر بعينيه الى باب منزله وكأنما يخشى أن ينفلت زمامهم ويستديرون نحوه ـ غاب هو ايضا اختفى « اكسروا الباب السيارة مش جاية » وتدافعت الاجساد وتقاربت حتى أصبحت جسدا واحدا ولوح الحاج بيده في وجه مصباح يبعده عن طريقه الا انه في اللحظة التي كاد يوشك فيها أن ينادي على مريومة مرة أخرى توقف وكأنما انغرس في الارض ولم يلاحظ واحد منهم الرعب الذي ارتسم في عينيه ويداه تبحثان عن شيء ما في جيوب « فرملته » ودفعة واحدة تذكر الليلة الماضية دقيقة بدقيقة ولحظة لحظة تذكر كل شيء ، اختفاءه في المسجد بعد صلاة العشاء ... زوجته وهي تسأله وين كنت ـ الطفل الذي أرسله الى بيتها ليطمئن على وجودها لقاءه مع عياد وهو يسأله « وين كنت ياعمي الحاج » ثم تردده عندما وجد نفسه امام الباب ... انتظاره ... خوفه ترقبه شوقه وحنينه اليها ... تذكر ليالي طويلة عذبته خلالها أحاسيس كادت تدفعه احيانا الى الانفصال عن زوجته ... الليلة الماضية يتمنى ان تزول من عمر الزمن ... العيون ترقبه ـ أخذ خطوة الى الوراء ... غاب الطريق والزقاق والسماء ... كل شيء ـ التراجع أصبح مستحيلا هل سيستطيع الصمود عندما تخرج ؟ ودعا من كل قلبه أن يبقى الباب موصدا . وامتدت يداه مرة أخرى تعبثان في جميع ثنايا ملابسه ، قد تكون سقطت من يده وتعلقت باحد خيوط جرده وفحص بعينيه موضع قدميه ... تزاحمت الرؤى أمام نظره ولم يعد يميز بين لحظة الامس ولحظة اليوم الباب الاخضر العينان ... مصباح ... الفراش ... جيرانه ... زوجته ... الجسد الابيض المتفجر ... ليالي الانتظار ... تفاحة آدم ... العيون التي لاحظت ... ارتباكه ، وبدأت ترقبه وتنتظر منه أن يفعل شيئا ، كل هذا يجعل رأسه يدور ويدور فيحس انه يسقط ويبقى معلقا في الفضاء ، سيتراجع بأي ثمن سيختفي ، ليس في

مقدوره أن يواجه ما سيحدث عندما ينفتح الباب الاخضر كيف أمكنه أن ينساها لماذا لم يتذكرها الا هذه اللحظة أين كان تفكيره كيف لم يتفقدها عندما انتهى من صلاة العصر ؟.

لم تكن تفارقه قبل ذلك أبدا ... حتى في منامه... كان يضعها تحت رأسه ... كيف لم تلاحظ زوجته اختفاءها ؟ قبل لحظات كان يندفع نحو الباب ويدفع مصباح أمامه والان يتمنى أن يبتعد مصباح أيضا... سيعود . سيضرب من يقف في طريقه وحاول أن يشق له سبيل «حاج ؟وين ماشي ؟ تردد السؤال وبعنف ... قبل أن يحدث أي شيء أخر ... بدا الباب الاخضر ينفرج ببطء . وظهرت مريومة وتعلقت بها العيون .. الا عينين ، الصمت – لاحركة ... لاهمسة ... وقفت على عتبة الباب ترميهم بنظرات فاحصة وكأنها تبحث عن شيء معين وعندما اصطادت عيناها الحاج حسن الذي كان يحاول الاختفاء بين الاجساد ... اتجهت نحوه ورأى الجميع مسبحة من العاج تتلألأ تلف بها معصمها ثم تضمها في كفها الابيض وكأنما تخشى أن تسقط منها . وكاد كل واحد منهم أن يسأل زميله عن سرها الا انه ولسبب مايتراجع واقتربت اكثر من الحاج . للحظة تصبح دهورا . وهو يرى يدها تهتز وتتلاعب بالمسبحة كأنها توشك أن ترميها في وجهه... تقترب حتى تصبح ملاصقة له لصورة ليست متوقعة «حاج حسن ؟؟؟؟ » وخرجت الكلمات من فمها تهزه بعنف حاول أن ينظر اليها ، لكن عينيه بقيتا مسبلتين في خشوع وارتفعت يدها بالمسبحة وقربتها من وجهه وكأنما تذكره بأحداث الليلة الماضية ... الا انها في اللحظة التالية تراجعت خطوة الى الخلف وأخذت طريقها بينهم مبتعدة واختفت خلف المنحنى ، وبقي الباب الاخضر مفتوحا .

مقاطع من همسات صاخبة

بقلم : سيد قذاف الدم

– ١ –

الكتابة لا تعني يافتاتي كتابة الوله والغرام فقط ... والكتابة ايضا بالنسبة الي ، محور من محاور الهروب التي لم نخرجي منها بعد ، والكتابة لقارىء الصحيفة العادي جدا ، لا تعدو كونها كلمات مرصوصة في مطابع الاعلام ، والواقع ان الكتابة اسمى بكثير من هذا . انها احتراق الكاتب ، انها دموعه .. ودموع القلم ، وليس هنالك من هو أشقى من الكاتب في هذا الوجود ، لانه يحس احساسا حارا ، وهناك فرق في الاحساس .. الاحساس المليء بالايمان والاحساس الفارغ من الصدق .

والفراغ يا رفيقتي هو هويتنا أنا وأنت ، وهو هوية الآلاف من هؤلاء الناس .. وهو ايضا خط القدر فوق جبين ليبيا طولا وعرضا .. وهو بصمات القدر في أوراقنا الناصعة البياض .. انه يا فتاتي لا يتعدى كونه لغة نسمعها ونفهمها ، ولا نجيد نطقها ، ولا يمكن الرد على استفساراتها . وكلماتي هذه اليك مجرد جس نبض لعواطف المرأة في ليبيا ، ولا اقصد بعواطفها هنا الحب الذي تسمعين به .. وتقرأين عنه ، انه كل عاطفة قوية مهما كانت . وقد افسر دموعك بالعاطفة ، وقد افسر الفرح بالعاطفة ، وكذلك الحزن .. وفوق هذا فالكتابة هي العاطفة الحادة ، التي تأمرنا بان نكتب ونكتب ونموت أيضا ونحن نكتب فالكاتب فوق هذا انسان يا رفيقتي يحمل القلم .. والمعول والعاطفة ويملك الدموع الساخنة ، ويحمل القلب الذي يرفض . وجيلنا بكامله يعيش الرفض .. رفض هذا الواقع مهما كان مطمئنا لنا . فالقلق هو وسام الساعة ، وهو الانامل التي تلملم الحزن عنا لتضيف القلق .

وقلقي هو قلق كل انسان في هذا العالم ، أي انه نبات ينمو في أرضنا . كالقمح ينمو في امريكا وروسيا .. والصين ، وفي فزان والابيار ايضا الا انه يختلف لعوامل عديدة .

فالشاب الذي رفض بشدة واقع امريكا ، يرفض واقع ليبيا ولكن بلغة أخرى . وهذه موجة عامة يافتاتي تجتاح العالم كله .. ولكن ما موقفك أنت ؟

فتاة العالم تمتص احزان الشباب .. قد يكون هذا الشاب اخاها او صديقها .. أو زوجها او حتى جارها العادي . ولكن ما موقف المواطنة الليبية الصالحة ، التي تحمل بطاقة شخصية مرقمة من البلدية ، وتحمل شهادة حسن السيرة والسلوك من المباحث الجنائية .. ما موقف المواطنة التي تصنع لنا طبخة حمراء اللون .. مليئة بالبهارات التي تقوى فحولة الرجل الافريقي ؟

ما موقف المواطنة التي تطلب من الرجل ان يكون مثاليا الى ابعد الحدود في عالم اللامثاليات . ماذا تقولين يا رفيقة ليبيا والاتهام يشير باصبعه اليك بانك سبب من اسباب القلق ، سهم القلق يشير عليك . والمرأة في المجتمع هي المصفاة التي تبعد الشوائب ، ولكنك عكس ذلك . مصفاة من النوع الرديء جدا ، المصنوعة في سوق الحدادة الاردأ .. وانت يا نصف المجتمع تحكمين على نفسك بالفناء ، وتحكمين بالتالي على النصف الآخر بالهبوط ، ونحن نهبط الى اسفل وكأننا نتحدر من منحدر بلا موقفات

ولا اشارات مرور .

أحلامنا يا امرأة لا تتعدى كونها عملا وظيفيا مليئا بالتناقضات ، ومليئا بالتكرار واجترار ماض بعيد .. والتخبط في متاهات ماض بعيد .. والتخبط في متاهات المستقبل المجهول الهوية .. احلامنا بندقية مليئة بالاطلاقات الخلب ، تجمعت جميعها في مخزن مع اطلاقة واحدة حقيقية ، وأمامنا هدف يضع اصبعه في عيوننا .. احلامنا احلام طفل لا يستطيع الكلام رغم تقدم الطب .

أحلامنا بكاملها لا تتعدى قبضة من الهواء في يد مقطوعة الاصابع . واعود اليك من جديد .. اعود لاحلامك انت ، اجزم بانك تعيشين داخل نقطة واحدة ، وداخل مربع واحد .

والخروج منه يعني قطف التفاحة والطرد من الجنة .. اعني انك تعيشين داخل زنزانة منذ عصر (الجرهنت) فقدت مفاتيح ابوابها ، ويشاع انها سلمت لانسان مجنون تاه في الاحراش . واقسم يا رفيقتي اننا نعيش تناقضا مروعا انا وأنت ، اسرتي واسرتك .. تفكيري وتفكيرك . فانا اسير شمالا في اتجاه لا احيد عنه ، وانت تسيرين جنوبا في اتجاه لا تفارقينه فكيف نلتقي ؟ ان التقاءنا معناه التقاء الخط المستقيم في مكان غير الكرة الارضية .. فما إكتبه لا يعدو كونه نقاشا مختلف الملامح .. غريب الاطوار .

والكلمات الموجهة اليك كمواطنة ليبية ، تعيشين واقعا أعيشه ، وتحلمين بمستقبل يتنبأ به لك المنجم .. الذي يبيع خزعبلاته في الصحف وتؤمنين بكل ما جاء في ركن المرأة والبيت السعيد الذي لم يشاهد السعادة بعد .. تقرأين تناقضا في صحفك المحلية . وتسمعين تشويشا معقدا على ذبذبات مختلفة .

ـ ٢ ـ

قضية مخاطبة المرأة ليست بالقضية العويصة في أي بقعة من العالم لانها ـ أي المرأة يجب ـ ان تعيش قضاياها بكاملها .. وقضاياها هي قضايا الرجل لانها النصف الآخر من التفاحة .

أي انها ما نستند عليه عندما نقف ، ولكن ارضنا في ليبيا هشة جدا ولا يمكننا الوقوف بلا عكاز ـ أي عكاز يا امرأة ـ ذلك الذي اقف به فوق هذه الارض الهشة ، وطريقتي معك في الحديث لا تعني الا انني ساقحمك ـ رغما عنك ـ في دائرة الضوء ، ولو ان اضواءنا ضعيفة جدا كأضواء بلدة الابيار في ليبيا الا انها تعريك نوعا ، والتعرية لا تعني مفهوم رجل الآداب الغبي جدا ، ولكنها تعريك معنويا على الاقل امامي . وليس هناك اقسى من مشاهدة امرأة خالية تماما من الزينة الفكرية ..

وانت ـ فتاتنا ـ تعيشين هذا الدور ، فعقلك خال من أي مسحة من مسحات الرقة .. الا انك ترفضين بشدة اي نقد ، رغم ان النقد هو جس نبض المريض لتشخيص الداء ، وانا اجس نبضك الآن ... اقيس حرارتك التي يدل مؤشر الزئبق على انها ترتفع رويدا رويدا .. أي انك مريضة .. وستجدين نفسك ذات يوم في حالة هذيان ، ولن تجدي من يجفف لك العرق المتصبب بشدة .. الوالد لن يقترب منك أبدا لانه لم يعود نفسه على ذلك .. الوالدة لا تهمينها ابدا بقدر ما يهمها ما تفعله الجارة الشرسة ، ولان القيل والقال لم يتركها تنتبه لك ابدا ، ولانها ستكلمك مرتين فقط .. يوم ان يأتيك رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ،يركب حمارا حديديا من آخر صنف ، ويملك مجموعة كبيرة من الاوراق النقدية. وتكلمك المرة الثانية عندما تعودين ، تجرين أذيال الخيبة بعد فشل زواجك غير السعيد ، ولتنحي باللائمة على والدك الغبي ، الذي تسرع في الموافقة رغم انها هي مكبر الصوت الذي أعلن النبأ في يوم خطوبتك ! لعلني استرسلت في الكتابة عن الوالدة ، الا انها طريق من الطرق التي سأسير عليها . ومن يكون غير هؤلاء يساعدك ؟ الاخ .. انه يرتدي القلق في شوارع المدينة التي ترتدي السواد .. وتمضغ الاسى . ويناقش في السياسة المتشابكة الاصابع ، ويناقش مشاكل العالم الكبرى بينما مشكلته انه يعيش المشاكل الحياتية ويعجز عن حلها .. ان المشكلة الواحدة لا تكفي لمنامه ، اذن لا بد من عدة مشاكل ، وأنت لن تكوني احداها لانك خارج تفكيره ولان امرأة أخرى ـ تعيش نفس الظروف التي تعيشينها ـ يركز عليها اهتمامه .

هذه باختصار حالتك . المرض يشتد وليس هنالك انسان بجانبك . والطبيب لن يعلم ما داموا لم يبلغوه بان مريضه يحتضر حتى وان حضر لا بد من أن يسأل عن اعراض المرض الذي ينتابك ، ولا يمكنك التصريح بها مباشرة للطبيب لانه لا بد من وجود همزة وصل . وهمزة الوصل هذه مفقودة ، أي ان الحلقة المفقودة في حياتك يا فتاة هي لمن تفتحين قلبك ؟ انها مشكلتي انا حتى الشاب المتزوج لا يفتح قلبه لزوجته ، لانه لم يجد مجالا لمخاطبتها بعد ، ولانها دائما تخاطبه ولا تنصت اليه . هنا المعضلة .. الصديق بالنسبة لي خيال . اي لا يمكنني ان اعثر على صديق في هذا

الوقت ، معنى هذا انني ساجد القاضي داخل قفص الاتهام . والعثور على الصديق يحز في نفسي كثيرا ، رغم ان الرجال واشباههم كثيرون في هذه البلد ، الا انني لم اجد بعد احدا يناقشني كصديق واع .. فحاولت ان اواجه المرأة ، لعلها المواجهة الضعيفة للدخول وسط المشكلة بكاملها رغم ان مواقفك غامضة جدا ولا يمكن استطلاعها الآن . الضوء الخافت المنبعث يدل دلالة تامة على ان قواتك بداية التكوين ويمكن اقتحام موقفك بلا كثير عناء . الى هنا اجد نفسي قطعت شوطا لا بأس به في نقاشك ، وسأبدأ معك مرة أخرى .. سأطرح مشكلاتنا للنقاش العلمي غير الخاضع لمؤثرات العائلة ولا لشرطة الآداب .. سأحكي لك واقعك وواقعي وما يمكن ان تساعدي في تقديمه حتى نصل ولو قليلا الى ما نصبو اليه .

– ٣ –

انت امرأة لا غير .. أي امرأة فقط .. اقول هذا انا وكل الشباب الموجود داخل طوق ليبيا لان هناك امرأة من جانب واحد ، واخرى من عدة جوانب.

وليس هناك تناقض لغوي أو غيره .. هناك تناقض فقط في التفكير فاستطيع ان اغير كل المفاهيم الصحيحة واراها متناقضة .. وهذا شيء غير ملموس .. ولا تستطيعين ان تخوضي فيه ، لان الخوض فيه يعني انك ستدخلين صحراء قاحلة ليس فيها معالم واضحة بدون ناظور .. أو حتى (بوصلة) أو خارطة .. والخوض يا رفيقتي فيه يعني انك ستخرجين عن طوقك (الرصاصي) اللون .. وانك ستضعين اصبعك في عين الوالد التقيّ الورع .. الذي يرعاك بعناية حتى يودعك في احد المصارف التي لا تأخذ ارباحا سنوية . والزواج يعني السعادة في قاموس المجتمع الانساني ، ولكنه في ليبيا يعني نقيض الكلمة تماما . الزواج في ليبيا هو ارغامنا على ان نرتكب الاخطاء المادية ، وهي الوقوع في الدين الى ركبتينا . ونتخبط بهذه الديون ولا يمكننا الوقوف ابدا .. ان وقوفنا معناه النجاة ونتجنب الاطفال ونحن في وضع (البروك) ولا يمكننا أبدا النهوض ، ونتجه شمالا ويمينا ونحن في الوضع السابق . ونعلم أولادنا أيضا ونحن باركون ، وقد نموت أيضا ونحن في ذلك الوضع المخيف .. فزواجي في ليبيا يعني انني اناقض قواميس الطبيعة والدين .

فالدين لم يوص بهذا الربا الفاحش في المعاملة في الزواج ، ولكن والدك الكريم الورع لن يهدأ له بال حتى يقدمك باسعار مرتفعة جدا ، ولكي يثبت بذلك ان بضاعته من النوع الراقي رغم انها العكس .. اقسم لك ان كل الزيجات التي تمت بغلاء فاحش ثبت فشلها . ولان المادة المعروضة للبيع لا تكافىء السعر ابدا ، ولان تكافؤ الاسعار غير متوفر حتى في بضائع السوق العادية ، فما بالك ببضاعة المرأة التي لا خيار لنا في اختيار اصنافها .

ان النوع الردىء جدا والذي لن يبقى طويلا ، هو الذي يكلفك اسعارا مرتفعة زيادة على مصاريف النقل والاقامة .. انها مصاريف باهظة جدا لا يمكن بأي حال من الاحوال لموظف من ذوي الدخل المحدود مقاومتها .. وبالتالي فهناك حل من عدة حلول معقدة وهي : –

اما عدم الزواج اطلاقا وفي ذلك بقاء المجتمع بكامله رجال ونساء مجرد عوانس يبحثن عن الرذيلة بعد غياب الفضيلة .. واما الزواج الفاشل الذي يكلف صاحبه الكثير .. ويجعله يتخبط في الديون .. واما ترك المواطنة الليبية والوقوع في احضان الغانيات من بلدان العالم الآخر .. وفي كل هذه الحلول اخطاء كلها تؤدي الى بؤرة الجحيم ، وجميعها تسير بنا الى الهاوية واعذريني يا فتاتي هنا لانني بدأت معك مباشرة دون أن أمر بالمراحل الاولى للقتال .. اقصد مراحل الزواج منذ ان اسمع عنك ولم اشاهدك ، لانمشاهدتك شيء محظور كالخمور تماما ، رغم انه يمكنني ان ابتاع الخمور ولن ابتاعها الا بمشاهدتها رغم تشديد السلطة .. فمشاهدتك ممنوع من الممنوعات .. ولكن الطابور الخامس – وهو والحمد لله متوفر بشدة في جميع الظروف – دلني على ان هناك فتاة في مكان ما تبحث عن زوج .. انك لا تبحثين فعلا ، ولكنها تقول هذا الكلام لكي تشجعني على الدخول الى ارض القتال ومنطقة القتل .. كل هذا وانا متردد .. لان دخولي هكذا يكلفني الكثير وانا املك القليل . واستطلاعك صعب جدا ولكنهم يطمئنونني بأنهم شاهدوا اخاك وهو مقبول الشكل ، مما يدل على انك جميلة . وشاهدوا والدتك وخالتك ، وشاهدوا أيضا مسكنكم انه نظيف ويدل ذلك عليك ... ولكنهم لم يفتحوا الصندوق المغلق أقصد لم يشاهدوا فكرك وعقلك .. وتفكيرك .. ان مشاهدة هذه الاشياء لا تتأتي الا بعد نقاش طويل معك ، على مائدة واحدة بعيدة عن المراقبين .. وطرح قضية المجتمع مع قضية الوطن أرضا وعلى الطبيعة ، وثباتها واظهار الوطن ارضا وعلى الطبيعة ، وثباتها واظهار الاخطاء والعيوب .. كل هذا لن يتحقق .. ولن يتحقق ما دامتالصناديق مقفلة ، ومفاتيحها في يد السجانة . وبعد تعيين المحل

.. بعد أن يختاروا لي زوجة المستقبل لا بد من ذهاب وفد .. لا يكفي ان اذهب وحيدا والا سأكون خارج نطاق الادب من ناحية ، وسأكون ايضا مقطوعا من شجرة ومتشردا ولا اهل لي .. لا بد من وفد مكون من خمسة أشخاص على الاقل ، واعمارهم تختلف تدريجيا وبنسب متفاوتة ، ومعهم شيخ على علم بشيوخ العائلة التي سأتزوج منها .. وهذا الشيخ هو الذي سيبدأ معكم الكلام ومن العيب ان يتكلم قبله أحد ، كما انه على علم بدوره ..

ان الزنادقة كثيرون جدا ، وهذا الوفد من الزنادقة بامكانه حل المشكلة بالمفاوضات ، وبامكانه تعقيدها ، وانت بعيدة عنهم وانا كذلك .. ولك مندوب معهم وانا كذلك ولكن شتان بيننا وبينهم ، ولاكن متفائلا معك وادعهم في حالة ود ان تم الاتفاق المبدئي ولنطرح بعد ذلك الاسعار .. اسعاركم يا فتاتي مرتفعة جدا ولكن الوفد الذي يمثلني يدعي انه شديد المراس قوي الشكيمة .. ويوافق وفدنا على شروطكم رغم انني وعشرة من امثالي لا يمكننا تسديد مصاريف الزواج .. وابدأ أنا في اقساط شهرية .. اقسم راتبي عليها واقسم احزاني شهرا بشهر ، ويوما بيوم ، الى ان يتم الزواج بكل اخطائه وعيوبه وكل المصاريف التي صرفت هكذا بلا اذن صرف ، صرفت من أجل ليلة الزفاف.. تلك الليلة التي طالما انتظرتها والدتك ووالدك بل وعائلتك بكاملها ، وكذلك والدتي وعائلتي ويركض الناس جميعا يأتون من كل صوب ليشاهدوا رجولتي .. فالرجولة في ليبيا تعني فض بكارة الفتاة في خمس دقائق والخروج منتصرا .. لا تتهربي من هذا الواقع .. امامي خمس دقائق يتوقف عليها حكم الناس في موطني وسادخل عليك فعلا ولن اضحك لك ولن ابتسم . سأدخل بعد ان اكون قد ملأت عقلي بكل الوان الخلاعة التي شاهدتها في شبابي لكي اوقظ حيوان الجنس . وكل الشباب في ليبيا حيوانات جنس متسترة .. بعدها تعلن نساؤنا باصوات كأصوات الحيوانات ـ النتيجة ـ ونساؤكم كذلك،ويرتاح الجميع لانهم اكتشفوا رجلا .. واكتشفوا أيضا فتاة حافظت على غشاء بكارتها في القرن العشرين . وانام تلك الليلة بجانبك ليأتي الصباح ومعه مشاكلي بكاملها لافيق .. على الحلم الذي مر ، ولاحصي خسائري في المعركة ، لاجد انني الوحيد الذي نجوت من قوتي ولاكتشف أيضا انني في نقطة لا يمكنني العودة منها .

* * *

حقول الحب

قصة : رضوان ابوشويشه

الركاب ، وسافر القطار الاخير عائدا الى « دبلن » .

لم يجد احدا بانتظاره في محطة « كلكاني » . خرج انتظر نصف ساعة ، وبدأ صبره يتضاءل .

وشرطي يروح ويجيء ، في كسل على الرصيف الصغير بسأم لا تخطئه العين ... نصف ساعة أخرى ، وبدأ صبره ينفذ .

قام عجوز عليه سيماء التشرد من نومه على المقعد الحديدي المجاور لباب الخروج . دعك عينيه ، تأمله قليلا ، ثم اقترب منه ... نفخ في يديه ...

« أوه .. انظر من ؟ مستحيل ! ... مستحيل ان يكون هو ، هذا المتشرد ! .. ولكن ربما ، ربما الله اعلم ! انتظر كلمة السر .. انتظر ان يقول الكلمة ...

« سنة سعيدة طيبة » ..

واجهه العجوز ، نفخ في يديه ، وفي صوت هشمه البرد والزمن سأله :

« اعطني لفافة من فضلك ايها السيد » .

منحه واحدة . شكره ، ودعا له بالبركة وانسحب ... تابعه وهو يعود الى مقعده جوار الباب ، وهو يجلس ، ويشعل اللفافة ، ويدخنها في شغف ..

ــ « قطعا ليس هو .. لم يقل الكلمة » .

نظر الى ساعته ، والى ساعة المحطة ونفخ الهواء تبرما ..

ــ « ماذا حدث .. اين الجماعة ؟ » .. أوف أوف . لن يأتي احد منهم .. هؤلاء الايرلنديون الكسالى » .

انهم لن يأتوا .. هذا واضح .. أوف أوف ! .. ولا يوجد قطار حتى الصباح ، هذا ليس عدلا . لماذا جروني الى هنا ! ؟ . أنا غاضب منهم .. أوف ! ولا يوجد قطار حتى الغد . أوف الايرلنديون عديمو الضبط والربط . ألم يقولوا لي في العاصمة بان ثمة احتمالا كبيرا بان يكون متطوعا منهم على نفس القطار ، علاوة على المرافقين الذين ينتظرون في المحطة.. لمرافقتي الى معسكر تدريب المتطوعين في المنظمة الثورية .. لماذا لم يقل لي أحد سنة سعيدة طيبة ؟ !

أوف ! ثمن التذكرة .. وفوق ذلك قضاء ليلة في « كلكاني » .. وضياع فرصة كتابة تحقيق صحفي جديد ..

رفع ياقة معطفه [illegible] العجوز .

ــ « قل لي يا سيد .. أين يوجد اقرب فندق من فضلك ؟ » .

وقف العجوز مستندا على حافة المقعد الحديدي .. وقد شعر بغبطة .. ان يقدم خدمة ما للغريب الذي منحه لفافة . وبفرح ظاهر أجاب :

ــ « هو هوه .. هو هوه ! على بعد دقيقتين يا سيد . دقيقتين فقط من هنا ؛ على يمين المحطة وانت خارج. لن تضل الطريق اليه ، ستشاهد الاضواء خارج المحطة » .

منحه لفافة أخرى . فقبلها ، .. ووضعها فوق أذنه ..

ــ « هو هوه .. هو هوه ! .. لفافة ثانية .. انت كريم يا سيد كريم جدا ، باركك الله .. هو هوه !. فندق الجدي الوحيد قريب جدا من هنا .. لن تضل الطريق اليه .. فندق جميل « الجدي الوحيد » كل السياح يذهبون اليه .. انه الفندق الوحيد هنا ..

هو هوه .. »

تذكر « مريام ماجواير » ... مدرسة الرسم في ثانوية « كلكاني » .. تعرف اليها في مشرب « القلعة السوداء » في دبلن قبل شهور ، وتذكر صوتها العذب أيضا ..

بدأ يقلب أوراق المفكرة الصغيرة .. يا رب أرجو أن يكون عنوانها هنا .. تذكر المشرب المزدحم أبدا بالشعراء والكتاب والثوار، وادعياء الشعر والجواسيس الانجليز .. والمصابين بالقرحة .. حيث يقدم الويسكي الايرلندي مع قدح من الحليب للمدمنين المرضى ..

تذكر انه تعرف الى كثير من الناس ، وهناك كانت « ميريام ماجواير » قد ذكرت انها من كلكاني .

أوه يا رب أرجو ان تكون من « كلكاني » وليس من كانامارا » .

ربما اشتبه عليه الامر .. « كانامارا » مكان آخر في اقصى الغرب الايرلندي و « كلكاني » في الاراضي الوسطى ! .

وعثر على الاسم : بخط قلم حبر جاف اخضر ! .

« ميريام ماجواير » .

هاتف ٦٩٧٠ كلكاني » .

سأل عن جهاز الهاتف فأجابه موظف الاستقبال بسرعة « هناك على اليمين بالداخل » .

جاء صوت ميريام الرائع ..

ـ « .... »

ـ « أو .. هذا انت ! ما الذي جاء بك الى قريتنا ؟ »

ـ « لانقب عن النفط في مغارات كلكاني ... اسمعي لماذا لا تأتين لنجدتي .. أنا في فندق الجدي الوحيد . لم اجد غرفة .. ولا يوجد قطار الى دبلن قبل الصباح » .

ـ « سأكون معك بعد عشر دقائق » .

دخل الى مشرب ! فندق .. رؤوس ماعز معلقة . وعلى الجدران بعض اللوحات الفاقعة الالوان .. لم تعجبه الرسوم .. اشعرته بالزخم ..

سأل الساقي القصير البدين :

ـ « هل رسمها تلاميذ مدرسة ؟ »

ـ « أجل .. انها رسومات رديئة اليس كذلك ؟ »

ـ « جدا .. »

ـ « لقد دربت نفسي على تجاهلها ، حتى اصبحت لا اراها » .

ـ « لا شك انك بذلت جهدا كبيرا » .

ـ « شهران يا سيد وانا احاول غض البصر حتى تعودت على ذلك » .

انجز الساقي طلب زبون شيخ له ملامح اميركية ، طويل يدخن السيجار ، ويرتدي قبعة راعي بقر » .

وعاد ليهمس .

ـ « امريكاني امريكاني كثيرون هنا » .

ـ » هل هم من أصل ايرلندي ؟ » .

ـ « لا .. الايرلندي لا يأتي الى الفندق . انه يذهب في ضيافة الاقارب .. هؤلاء سياح عجائز من امريكا .. لقد شربوا البارحة كل ما عندي من الويسكي الاسكتلندي .. انهم يجدون الويسكي الايرلندي ثقيلا .. أوه أذواقهم مرعبة الامريكان .. انما قل لي .. هل انت اسباني ؟ » .

ـ « لا » .

ـ « برتغالي » .

ـ « لا » .

ـ « من اين ؟ »

« من ليبيا » .

ـ « أه .. معذرة ، شعرك الاكرث وملامح وجهك هي التي جعلتني أسألك رغم ان الكثيرين في « كورك » يشبهونك » .

« كورك » ميناء كبير مفتوح والبحارة يحبون الموانى الكبيرة كما تعلم » .

ـ « اه يا سيد .. لا اهانات من فضلك ، ها هاها .. البغاء موجود في كل مكان حتى في بعض البلدان العربية » .

ـ « انت تتحداني فلا بأس في بعض البلدان العربية هذا صحيح ما قولك في انهن يتسكعن على ابواب الفاتيكان » .

كانت مريام قد وصلت ..

ـ « أه .. هالو مريام »

ـ « هالو .. جلال » هالو مستر جون » .

ـ « ماذا تشربين ؟ »

حياها الساقي وتبرع بالاجابة نيابة عنها :

الآنسة ماجواير تشرب دوما ويسكي ايرلندي مع الصودا .. وكثير من الثلج في كأس مستطيلة .. اليس كذلك يا مريام » .

هزت رأسها .

« يا الهي ما اكثر طلباتك « .

ـ « هل انت معدم ؟ .. لاتخف انت في ضيافتي»

ـ « لا بأس انها خفة دمي .. أو ربما تمثيلي المتواصل بأني خفيف الدم .. لقد فقدت كثيرا من

اصدقائي لانني اتوهم اني خفيف الدم » .

ـ « ومع ذلك سأدفع أنا » .

ـ « لا .. ليس بعد .. الطريق طويلة » .

وضحكا في وقت واحد ..

همس لنفسه :

ـ « بداية جيدة » .

ونظر في وجهها .. بعد شهور ازدادت البنت حلاوة .. وتصور انها اجمل من السابق ربما بسبب شعوره بالغربة في قرية كلكاني .

أوه غربة كلكاني .. الانتظار في المحطة كاد يقتله .. أو كلكاني .. المرء عندما يقابل من يعرفه من قبل في مكان لا يعرفه يجده انيسا ومبهجا ..

تفرس الانف الدفين .. والزمن الذي بدا له لو استطال قليلا علاوة على استطالة الذقون النسائية في ايرلندا ..

تبادلا الانخاب بالايرلندية : ـ

« سلانشيا .. جوه نايري انبوخره لات »

ثم ذكرته بالكلمة العربية التي علمها لها في دبلن .

ـ « في صهتك » .

ـ « في صهتك » .

ـ « في صحتك يا غبية ، وليس صهتك .. ما هي صهتك هذه ؟ هذه ليست عربية .. انها من اختراعك أنت ! قوليها مرة اخرى صحتك ـ صحتك »

ـ « صهتك صهتك » .

ـ لا فائدة معك .. لن تتعلمي نطق حرف الحاء ابدا يا مدرسة وعلى فكرة ان كلمات النخب الايرلندية قريبة بشكل غير معقول من دعوات الامهات لاولادهن . انهن يقلن :

ـ « ليسهل الله طريقك »

ـ « اذن جوه نايري انبوخرة لات تعني : ليسهل الله الطريق .. وي وي .. اكتشاف خطير » .

قال الساقي ذلك . فلم ينس التحدي الذي قطع بمجيء مريام .

ـ « يا سيد جون لا تدعني اسلط عليك لسانا كسوط الخيل .. وفي حضور آنسة . ان جلدك لن يحتمل .. اسمعي يا مريام ما رأيك في تغيير اسم الساقي جون هذا الى مستر جون سلاخ الجدي الوحيد » .

* * *

وجاءت الموسيقى تملكته رغبة عارمة في ان يلمس يدها ..

.. ولمس يدها .. كانت باردة .. لكنها يد امرأة .. اصابع رقيقة لرسامة حلوة الوجه ..

صعد اليه طعم المرأة عبر اصابعها .. ارتعش وارتعش جوف اعماقه ..

ـ « اوه مسكين جلال هل تشعر بالوحدة الى درجة كهذه » .

« أية درجة ؟ »

ـ « ان تلمس يد امرأة ، ولو كانت يدي الباردة ! » .

ـ « اشعر بحب وراثي الى المرأة في لحظات معينة كهذه ، ثم اني اريد ان تسخن يدك » .

ـ « لا .. أظن .. فقد وقعت على امرأة من نوع مختلف هذه المرة » .

ـ « هل تحولت الى راهبة ؟ »

ـ « ربما » .

ـ « هذا يجعلني اسارع بتصعيد المغازلة » .

ـ « يا متهور . هاها .. قل لي ماذا ستفعل الليلة ؟ »

ـ « سأدعو نفسي الى بيتك . اليس كذلك ؟ »

ـ « طبعا لن اتركك تنام في المحطة » .

ـ « هيا نذهب » .

حيا الساقي البدين .. فغمز بعينيه بخبث ، وحرك رأسه المدور .

انطلقت السيارة فوق طريق ضيق في شوارع بلدة مهجورة لكنها تبدو حية منتعشة في عيون من يجلس الى جوار مريام ماجواير ..

انطفأت انوار العربة أمام بيت صغير أبيض .

* * *

لوحات كثيرة على الارض وفوق الجدران .. حمالات أوراق رسم ، وعلب الوان وكتب وصحف كثيرة .. وكانت النار لا تزال حارة في المدفئة .

احضرت مريام شرابا وخبزا وشيئا من الجبن .. وجلست في مواجهته تنظر نحوه وتبتسم .. وعلى غير توقع سألته :

« لم تخبرني عن غرض مجيئك لكلكاني هل هي زيارة عمل ام سياحة خاطفة ؟ » .

« مجرد زيارة خاطفة » .

مريام « رسامة تكره العنف » تذكر عندما قابلها في « القلعة » وناقشها طويلا .. انها من ذلك النوع الذي يؤمن بأن كل القضايا تسوى عن طريق المحبة كل شيء تقريبا . وهذا ما لايتفق فيه معها انه لا يعتقد في السلوك « الهيبي » تجاه القضايا الحاسمة ... الكفاح هو الحل الجذري .. أما الحب فمن أجله تقوم

الثورات ولكنها لا تقوم باسمه ..
خرجت كلمات شعر من دورة اسطوانة كبيرة .. الارض اليباب بصوت ت. سي . اليوت .
سألته : ـ
« انها بصوت اليوت .. هل يعجبك الشاعر ؟ »
ـ « طبعا انه شاعر مجدد ، واستاذ ، يعجبني طبعا ، ولكن في الشعر وليس في السياسة .. لقد ثار على الاشكال التقليدية وكم أكره الاشكال التقليدية .. وعبدتها في الادب » .
هزت مريام رأسها موافقة قائلة :
ـ « وناقد ومنظر نقدي » .
ـ « وتابع مؤمن بالكنيسة الانجليزية » .
ضحكت مريام ..
ـ » نعم فهمت .. تريد ان تقول انه ضاهر الاستعمار « .
« لا .. لا اريد أن أقول انا .. انه بنفسه قال ذلك .. قال .. انا ملكي في السياسة كلاسيكي في الادب » .
قامت لتضع المزيد من الفحم الى النار وواصلا الاستماع الى اليوت :
« ها قد خفقت الريح الرخية
« باتجاه الوطن ،
« فيا حبيبتي الايرلندية .
« فيا حبيبتي الايرلندية
« اين تتلبثين ؟ » .
شعر اليوت ، نار المدفئة ، امرأة مثقفة جميلة ..
اهتاجت مشاعره حزمة واحدة ، قام من كرسيه وجلس على الارض امامها قرب النار ..
وشيء من التردد والخجل ، اراح رأسه على ركبتها .. ثم قرر ان ذلك شيء مكرر ..
لم يرغب في ان تصبح « مريام » مثل غيرها .. سوف يقف ضد نزوات امتلاكها .
ما معنى ان يصبح كل شيء بين امرأة ورجل على هذا النحو ! .. انها انسانة طيبة ..
عرفته في لقاء عابر وتبادلا العناوين .. فلا يجب أن يتبادلا الخطيئة ..
لن يسمح لهذه المحنة ان تدنس بالرغبة المحرمة .
انها لطيفة مريام هذه حلوة الحديث وحينما ترتشف قطرات من شرابها الدموي فانه يبدو لامعا على شفتيها .. لا بد ان يتحول الى شهد على شفتيها الحمراوين .. شفتاها على ضوء النار .. مأوى للرغبة الجهنمية ..

وبدأ المطر يهطل .. يعلو على صوت اليوت ، وحفيف الاشجار . وتسلل اليه الحزن القديم ، والعطش القديم ، والقلق القديم وراح يفكر ، ويفكر .. واليوت يردد ، ويردد .
ـ « متى اصبح صنو العصفور ـ ايها العصفور ايها العصفور » .
دعيني انام على ركبتيك يا مريام .. ان الحزن والظمأ والقلق يثقلون على روحي هذه اللحظة .. دعيني أنام على ركبتيك لانسى ..
ـ « لم اكن حيا ولا ميتا ، ولم اكن على دراية بشيء » مسحت بيدها على رأسه .. اليوت يردد ، يردد .
« تحطمت خيمة النهر »
« حوريات الماء رحلن »
مسحت بيدها على رأسه واليوت يحذر :
« هذه الايام ينبغي ان يكون المرء جد حذر » .
مسحت بيدها على رأسه مسحت بيدها على رأسه مسحت بيدها على رأسه .
وقد هدأت النار ، ونام اليوت .. فتحرك شوق خفت ..
التصق بها التصق .. يدها ساخنة حبة عرق على جبهته . مسح جبينها بكفه .. شعر ان العرق ساخن .
احاطها بذراعيه قبلها خطفا .. أراحت رأسها على كتفه ..
يحبها ابنة الانسان هذه ، يحبها كثيرا ، ذلك النوع من الحب الانساني الجليل الذي لا ينجم عنه القفز الى السرير .
انه لا يفعل ذلك ببساطة .. مريام .. انثى جميلة وهو انسان الف ثور حاد القرون في حلبة ضيقة .. ليتجنب الانسحاق امام الرغبة الطافحة الهمجية .. وصارع الثيران .. وصارع الثيران ، حتى مطلع الفجر .

* * *

شرع عصفور يغرد . ويغرد ..
ويغرد ..
وشربا قهوة ايرلندية .
وسمعا اليوت يتحدث عن :
« الذكريات التي ينسجها العنكبوت الخير » .
ولمحا عبر زجاج النافذة قدوم نهار جديد بلا غيوم .. فقال جلال :
ـ « سيكون يوما جميلا كنهار ربيعي في طرابلس الغرب » .
وفي الخارج .. وقفت عربة امام البيت الصغير الابيض .

وقرع الجرس .. وفتح الباب ..
وقدمت مريام الزائر المبكر الى جلال ..
قسيس شاب ، نحيف . يدخن الفيلون في ساعات الصباح المبكرة ..
فيما لا تزال ميريام منبهرة من زيارة القسيس الغريبة اعتذر الراهب :
« انا آسف .. على ازعاجكما .. كنت في طريقي الى كلكاني لاجراء مخابرة تلفونية فورية مع دبلن ..
لاخبار اقارب العجوز الميت .. وفكرت في انك قد تسمحين لي باستعمال الهاتف » .
ـ « طبعا تفضل » .
واستأذنت في الذهاب لتغيير ملابسها ..
وانشغل جلال في تفكير غير محدد .. ويد القسيس تمتد اليه قائلا :
« سنة سعيدة طيبة » .. أنا آسف على التأخير يا سيد جلال ، لم اتمكن من موافاتك في المحطة .. كنت بجانب عجوز من كنيستي احتضر طوال الليل ، ولم يمت الا قبل الفجر .. عرفنا انك بالفندق من العجوز « بريدي الذي ينام في المحطة » ثم اخبرنا « السمين الساقي سلاخ الجدي الوحيد .. لقد اخبرني عن ممازحتك له ، وعن قدومك الى بيت مريام .. رجل طيب « جون » ومرح انه من الجماعة ايضا .
وضحك القسيس في طيبة الطفل وكشف عن اسنان صغيرة .
ونادى ميريام بصوت عال :
ـ « ميريام سأوصل ضيفك الى محطة القطار انه يريد ان يذهب الآن ..
تعالي وامنحيه قبلة » .
وغمز بعينه لجلال ، واردف في صوت هامس :
ـ « علينا ان نبدأ الرحلة الآن .. الطريق الى معسكر الثوار طويل جدا » .

* * *

وانطلقت السيارة في شوارع ضيقة ، في نهار طيب واسع وأخضر ، كسهول ايرلندا ، كعيون مريام ماجواير ...

* * *

الإختيار

قصة : فوزي البشتي

يتثاءب ، فتسقط خطوط الزمن على مساحة وجهه العريض المتهدل، تتمدد كأفاع ضئيلة تغزو جبهته وأسفل ذقنه . تسقط « طاقيته » على ارنبة انفه الدقيق الشامخ ، فيعيدها الى مكانها .. فيما يترك لجسده المترهل المنهك حرية التمدد على الاريكة القديمة الموضوعة وسط شرفة حجرته في الفندق .

تنغرس ابتسامة على شفتيه ، تحمل تعبيرا غير محدد ، يحاول ان يبحث لها عن معنى ، لكنه كان مرهقا ومليئا بكثير من الاحاسيس الغامضة ، وكان مقتنعا بان الوقت ليس مناسبا لمقارعة الهموم .

* * *

منذ غادر قريته واقلته سيارة الاجرة المتهالكة التي قادته الى المدينة . وهو يمتلىء بهواجس غريبة لم يعهدها من قبل .. حاول ان يبعد نفسه عنها ، لكنه لم يستطع ، تحادث وسائق السيارة ، دخل في جدل طويل مع راكب يجلس الى جواره ، كان حديثا طويلا احس معه ان الراكب هو الآخر يريد ان يهرب من شيء ما في اعماقه ، انهى الحديث فجأة وأخذ يتأمل الاشجار المرصوفة على جانبي الطريق .. وعاودته نفس الهواجس .. قال في نفسه : انه سوف ينساها بمجرد وصوله الى « المدينة » التي أمضى عمره كله دون ان يراها سوى مرات قليلة ، لعل هذه هي المرة الثالثة او الرابعة ، لا يدري بالضبط ! وقد تغيرت حتى ما عادت نفس المدينة التي رآها منذ أمد بعيد .

قالوا له : ان حفلا كبيرا سيقام في المدينة يحضره « الملك » ومجموعة من الناس « الكبار » .. وسوف يجمعون كل المجاهدين ، سيعلقون على صدورهم قلائد نحاسية ، وسيعطونهم مبلغا من المال ، وستنشر صورهم في الجرائد .. قالوا كلاما كثيرا .. لكنه فقط يريد ان يرى المدينة ، فمثل هذه الفرصة لا تتكرر كثيرا .

عندما وصل ، قادوه الى « الفندق » وأعطوه مفتاح حجرته وطلبوا منه ان يصعد ليرتاح .. لكنه لم يتحرك من مكانه . تجمد الدم في عروقه وهو يرى وجوها كان يعرفها تماما .. قال في نفسه : اذا كنت سأقف مع هؤلاء في صف واحد فتلك هي الكارثة .. الذين لا يعرفونهم قد لا يهتمون بالامر ، أما انا فانني أعرفهم جيدا ، رصاصاتهم كانت تثقب صدور المجاهدين ـ وخياناتهم سببت اكثر من هزيمة ، ومع ذلك يقفون اليوم في صفوف المجاهدين ! ! احس انه مهزوم تماما ، وداخلته فورة غضب ذكرته بشبابه ، عندما كان هذا الغضب يعني موقفا .. ولكن ما حيلته الآن .. وقد اخذ منه الزمن كل شيء ، ولم يبق له سوى الاحزان .. والمواجع ؟ !

في الغد تتكرر الهزيمة ، ويعاوده الغضب من جديد .. سيبدأ الحفل ، وسيتواضع « الملك » نفسه ، ويجيء ليصافحهم ، بكل بساطة يتواضع « الملك » ويمد لهم يده واحدا واحدا ويصافحهم .. وماذا لو انحنى الواحد منهم تلو الآخر وقبل يده ؟ ليس في ذلك عيب ، بل العيب كل العيب في رفض هذا الامر ، لان معنى ذلك انه ليس مجاهدا ؟ ! بالاضافة الى انه قد يكون من اولئك الذين يرون رأيا آخر لا يحب « الملك » أن يسمعه .. ربما لا يستطيع احد ان يعرف ما تخفيه النفوس ، لكنه بالتأكيد لن يكون اكثر من ذلك ، فقد

قالوا لهم : ان « الملك » هو الذي قاد كل المعارك ، وحرر البلاد ولولاه ما تحقق شيء ؟ ! وامتلأت اعماقه بالاسى ، فهو يعرف الحقيقة على وجه الدقة ، يعرفها بعدد الندوب والحفر التي يمتليء بها جسده الواهن ، بعدد الجثث التي سقطت في مواجهة عدو لا يرحم قرب هذا الشاطىء نفسه ، وسط هذه الساحة بعينها وعبر هذه المساحة الزرقاء الهائلة من المياه ، التي تلتف حول المدينة ، كانت بوارجهم تقذف بالحمم .. لكنهم أبدا ما استطاعوا ان يطأوا الارض .. فقد تحول المجاهدون الى جدار صلد لا يخترقه الرصاص ، ولا تهده مدافع البوارج ، كان الشعب بأكمله هو القائد .. فلماذا يستوردون هذه القيادة المزيفة ويكذبون على الله ؟ !

* * *

من نافذة شرفته جالت عيناه عبر شوارع المدينة الهادئة ، يتذكرها جيدا .. هذه الشوارع ، ما تغير فيها شيء منذ زارها آخر مرة .. جاءها فارسا شابا ، يمتطي صهوة جواده وعلى كتفيه بندقيته القديمة ، ولم يكن احد في استقباله سوى ترابها الاسود واشجار النخيل والزيتون ، ومدافع الايطاليين التي كانت تنتشر على طول الساحل مثل بقع سوداء تشوه هذه المساحة الهائلة من الزرقة والصفاء .

كان واحدا من الشباب الذين لم ينتظروا الايطاليين حتى يتوغلوا في الداخل ، ويغتصبوا الارض — سمع النداء فترك كل شيء ولباه — انضم الى رفاقه ، وذهبوا الى حيث ثبتت مدافع العدو تنشر الدمار ، ليس في ايديهم سوى بنادق قديمة متهالكة عفى عليها الزمن ، ويقين ثابت بان الارض ارضهم ، ولا احد يستطيع ان ينتزعها منهم !

وهكذا انطلق الفرسان الى المدينة ، وكان واحدا منهم . ولم يكن ثمة مبرر للخوف أو الحزن ، فالذهاب الى الموت في سبيل الوطن شرف لا يناله سوى القلائل الذين يهبون انفسهم للوطن .

ايه ما اتعس تلك الايام واحبها الى قلبه أيضا ! ! كانت تحمل من المواجع مثلما تحمل من العزة والكرامة، وقتها كان الرجل رجلا .. والايمان ما يزال متأصلا في النفوس ، وذرة واحدة من التراب تساوي كنوز الدنيا باجمعها .. آه لا تعلمون ان هذه الارض ليست مجرد تراب ، انها مزيج من الدماء وجثث الشهداء الذين لا يذكرهم احد ! !

* * *

كان يجلس في الشرفة وقد القى رأسه الى الخلف، فيما كانت يداه الواهنتان تتمددان في دعة على ركبتيه ، كان مسند الاريكة الخشبي يقلقه ، واشعة مصابيح الشوارع تنغرس في عينيه مثل سهام حادة ، لكنه كان يحاول ان يصطاد دفقة نسيم تنعش جسده المنهك ، عاودته نفس الابتسامة الساخرة ، فما كان يتصور ان الانسان يمكن ان يقضي ليلة وسط هذا النتوء الزجاجي المربع الذي يلتصق بنافذة حجرته ، لكي يصطاد النسمات ، فقد تعود دائما ان يتمدد وسط نسيم صاف لا تخنقه الجدران او تزعجه اشعة المصابيح الكهربائية التي تنغرس وسط الشوارع الخالية ، بقعا صفراء لا مبرر لها .

اكتنفه الليل الجائر الخانق الذي اصبح الآن يلف الشوارع ، كان الصمت كئيبا حقا ، لم يكن كصمت قريته الذي كانت أوراق الاشجار خلاله تبدأ اغنياتها الرتيبة المنعشة وبدا كما لو انه لم يكن هناك أحد غيره في هذا الفندق العتيق المليء بخليط عجيب من البشر .

واصلت مروحة السقف دورانها الممل ، الذي يضرب دون جدوى ، الهواء الخانق الذي لا يمكن التغلب عليه ، وأخذت الحرارة تنبعث من كل ركن في الغرفة فيما كانت الرطوبة تملأ الجدران ، وتخنق الانفاس . تألق العرق على وجهه ، ومن قت لآخر كان يجففه بمنديل عريض علقه على ياقة قميصه الطويل الواسع الاكمام كانت انفاسه مجهدة ، لان هذه الاعوام قد أخذت منه ضريبتها ، لقد امضى الكثير من الليالي الساهرة .. لكنه الليلة عرف انه لن يكون بمقدوره مواصلة السهر .. فك أزرار قميصه ، واسقط بلفته الصفراء الجديدة ، وكان باستطاعته ان يرى عصاه المفضلة تلمع بزخارفها في الركن حيث تركها .

تحول الى الشرفة من جديد ، وأخذ يتنفس بصعوبة ، واتضحت معالم التجاعيد بحدة على وجهه البرونزي الذي يكسوه العرق ، وتقوس بعض الشيء ذلك الشارب الكث الذي اصبح الآن مبللا .. أخذ ينظر الى الشجرة الضخمة المظلمة التي تبدو أكثر اظلاما من الليل ، كانت ترتفع فوق الشرفة وتنصهر في الظلام كما لو كانت تنتظر اللحظة التي تستطيع فيها أن تخبر العجوز بالكثير عن حياتها الطويلة قال لها : لماذا انت مزروعة هنا مثلي ، غريبة عن عالم لا يمت اليك بصلة ؟ ان هذه الاحجار المتراكمة الشاهقة والشرفات الزجاجية اللامعة ، ليست لك كما انها ليست لي ، اننا وحيدون وسط هذا الركام الجامد الذي يملؤنا احساسا بالمرارة والاختناق .

أخذت المروحة تلف وتدور وهي تواصل مطارداتها لدفقات الهواء المتقطعة الساخنة .. عندها قرر العودة

الى سريره .. وتمدد ، وعلى شاشة الرؤى المعتمة سبحت مشاهد اليوم الطويل الذي انقضى دون فائدة .. كان متعبا ، لكنه في ليلة مؤرقة كهذه لا يستطيع الا انيتغلغل في سراديب ذكرياته ، ويتجول عبر السنين القريبة والبعيدة ، ويحرك الذكريات التي اصبحت أساطير .. لكن جسده المنهك العجوز لم يستطع ان يغالب خدر النوم الذي بدأ يسري في أوصاله .

* * *

تسلل ضوء الفجر من النافذة فأيقظه ، ولم تكن النسمات اليفة ومنعشة كما تعودها ، لكنه نهض وصلى الفجر ، ثم شرع في جمع حاجياته وارتداء بقية ملابسه .. وما ان هم بمغادرة الغرفة حتى سمع طرقات حادة .. فتح الباب ، قابله موظف سمين يرتدي حلة افرنجية وطربوشا .. ذكره بالموظفين الاتراك الذين كان يراهم كثيرا في طفولته ، قال له : انهم ينتظرونك هناك .. لا تتأخر .. فكل المسؤولين حضروا ، وملأوا المنصة في انتظار « الملك » وكل رفاقك أيضا .. لا تتأخر كثيرا .

لم يجبه .. اغلق باب حجرته .. تفقد بقية حاجياته ، ثم غادر الفندق على مهل .. كانت قاعة الفندق غاصة بالايطاليين .. نفس الوجوه التي ملأت جسده بالرصاص والشوارع كانت مليئة بالصخب ، ومزروعة بنفس الوجوه الحمراء تنتشر كالوباء عبر الطرقات .. وصور « العجوز » الذي جعلوا منه (ملكا) تغطي الجدران وأحسن ان بقاءه هنا خيانة ... احس انه يخون نفسه ويخون رفاقه ... احس انه في هذه اللحظة بالذات ينبغي أن يختار .. اما ان ينهي حياته ذليلا واما ان يظل حرا كما كان دائما .. كان يعرف انه قد بلغ نهاية المطاف ، فتسعون سنة ليست بالزمن القصير ، اتجه الى محطة الحافلات ليعود الى قريته .. وفي اعماقه يقين ثابت بأن الاكاذيب لا تدوم طويلا وان الحق سينتصر في نهاية المطاف .

* * *

في المساء فتح جهاز المذياع ، وسمع المذيع يردد اسمه ضمن قائمة المجاهدين الذين انحنوا امام «الملك» ليعلق في اعناقهم قلائد من نحاس .. ضحك طويلا ربما لاول مرة في حياته ، ضحك حتى فقد وقاره المعهود .. وتحسس عنقه طويلا .. اذ ربما نجحوا في وضع هذه القلائد النحاسية على رقبته وهو لا يدري .. ربما .. ! !

لكن الاطمئنان ملأ أعماقه من جديد ، ربما لانه يدرك تماما ان الذين حملوا السلاح حقا في وجه العدو لا يمكنهم ان يركعوا امام الخونة .

فوزي البشتي

* * *

الهروب من الأسوار

بقلم : سليمان كشلاف

هي لحظة يكون بها « احمد ابراهيم الفقيه » أساس بناء قصته ، لحظة يكاد يقول فيها كل شيء يريده ، لحظة للتفجير .. لحظة للكشف والتنوير ، لحظة تشبه انفلاق الذرة ، يتبعها ضوء وحرارة وضغط يخلخل الهواء ، لحظة هي الهدم والبناء .

لحظة ، يتغلغل فيها الكاتب في اعماق ابطاله ، يهزمهم ، يعريهم ، يصدمهم ، ثم يتركهم يواصلون حياتهم ، واللحظة قد امتلكتهم أو امتلكوها ، قتلتهم أو أحيتهم .

« احمد ابراهيم الفقيه » أحد الكتاب الذين امتلكوا القدرة على تفجير هذه اللحظة ، على اكتشافها ، على ازاحة الستار عنها ، وعلى استلالها .

ولعل أجمل اللحظات في قصص « احمد ابراهيم الفقيه » هي لحظة الضعف الانساني .

نطوف عالم « احمد ابراهيم الفقيه » القصصي ، نعايش نماذجه ، نراها على طبيعتها ، وسط هذا المجتمع ، تتفاعل معه وبه ، تصارعه ، تهادنه ، تتحداه، تتأقلم معه ، ترفضه ، حتى تكون تلك اللحظة ، ينقلب كيانها رأسا على عقب ، يصبح العادي خارقا ، يصبح المألوف شاذا ، يصبح الطبيعي عيبا ، ويصبح القوي ضعيفا والجبان شجاعا والداعر شيخا .

ان هذه اللحظة الانسانية ، بغض النظر عن طبيعتها ، ضعف أو قوة ، صحوة او غيبوبة ، هي المفتاح للعديد من الشخصيات القصصية عند « احمد ابراهيم الفقيه » اننا لا يمكن ان نفهم سلوك العديد من تلك الشخصيات بدون الانتباه الى تلك اللحظة .

لن نفهم « عثمان الغول » ولا « الاستاذ عبد الحفيظ » ولا المحامي صديق « محمود » ولا الموظف « عبد الله » بدون لحظة الضعف هذه ، حين يتجردوا من كل الاقنعة وتظهر لنا حقيقتهم .

عندما تتحدد « لحظة الضعف » .. تتحدد نوعيتها ، يتبين لنا تأثيرها وانعكاساتها .

« عثمان الغول » في قصة « الذئاب »مثلا يقدمه لنا « احمد ابراهيم الفقيه » وكأنه كائن اسطوري .. ويرتدي القميص بلا عباءة وهو يطارد العواصف، يهزمها حينا، وتهزمه حينا، والغول ليس اسما ولد معه، او اسم جد له أو أب ، انما هو اسم اكتسبه اكتسابا كما يكتسب البطل لقبا او وساما ، فقد عاش حياته غولا يخافه الناس سرق ايام كان قانون الجوع يفرض عليه ان يسرق ، وقتل عندما اضطرته مواقف وامور ان يكون قاتلا ، وعاش هاربا في جبال وشعاب وعرة لا تطأها اقدام انسان ، حتى أيام جرائم الثأر لم يكن للقرية احد آخر تقدمه ليأخذ بثأرها غير عثمان الغول ، وكثيرا ما نطلقت الزغاريد في الافراح لان الغول قد استرد للقرية شرفا مسلوبا ، فعثمان الغول كان قطعة صابون تغسل القرية عارها به ، حتى في خصومات الحرث والارض كانت الكلمة الاخيرة له ، عندما كان الخصوم ينسحبون في خوف لتبقى الارض للغول وأهل قريته يحرثونها ، وبعد ان استتب الامن واختفت جرائم الثأر والنهب . كان الغول يكره ان يعيش حياة مستقرة في القرية ، فكان يبحث عن

شعبة من الشعاب يختار كهفا من كهوفها يقيم فيه وحده ، يقطع الاشجار ليصنع الفحم أو يجمع جذور الحلفاء ثم يبيعها ، كان دائما كضبع عجوز يعيش بين الشعاب وحيدا ، وظل اسمه دائما الغول وظل عندما يظهر على الناس بشاربه المفتول الكثيف الاسود ، وسحنته التي ربما كانت بيضاء أو صفراء فحولتها السنون الطوال من الشمس والبرد الى سحنة قاسية ضاربة الى السمرة .. ظل دائما مهابا يبعث الرعشة في أصابع القدمين(١) .

كانت لحظة الضعف في حياة « عثمان الغول » تلك الليلة التي قضاها على اغصان الشجرة يصارع الذئاب دفاعا عن حياته ، عندما احس انه انسان كالآخرين ، يحب ، يكره ، يغضب ، يفرح ، يجوع ، يبحث عن الامن ، يخاف ، كانت لحظة ضعفه هي الخوف ، انه شعور جديد ، ولدته تجربته تلك الليلة مع الذئاب ، لينقلب بعدها الى انسان آخر « وكان عثمان الغول يقف يائسا معروقا اصفر كشجرة جفت عروقها .. كانت الاغصان التي تسلقها واحتمى بها قد ملأت ذراعيه ويديه ووجهه خدوشا وجروحا ، اما الذئاب التي حاصرته طول الليل فانها لم تستطع ان تمسه بشيء ، ان ظفرا من اظفارها او نابا من انيابها لم يصل اليه .. ومع ذلك كان عثمان الغول وهو يخب في قميصه المزق راجعا الى القرية ، وهو يلتفت شمالا ويمينا كلما تكسرت تحت قدميه عشبة يابسة فارتعشت اصابعه وارتعش شنبه ، كان عثمان الغول يحس خلال ذلك كله انه ليس حقا قد نجا من الذئاب .. ان شيئا كبيرا قد فقده البارحة شيئا كبيرا قد أكلته الذئاب »(٢)

لقد دافع « عثمان الغول » عن نفسه دفاع الابطال، وفيما عدا الخدوش التي اصابته من اغصان الشجرة لا يبدو عليه في الظاهر شيء ، لكن اعماقه هي التي تمزقت ، لم تصل الذئاب الى جسمه لكنها زلزلت كيانه ، دمرته من الداخل ، احدثت فيه تغييرا ربما استمر معه طيلة حياته بعد ان احس ، لقد اضافت التجربة الرهيبة التي خاضها صفة اخرى له .. الخوف .

ويلتقي مع « عثمان الغول » في هذه النقطة شخصية أخرى من شخصيات « احمد ابراهيم الفقيه » القصصية ، نموذج مهزوم ، المحامي في قصة « الرمال الناعمة » لا من خلال تجربته هو ، بل من واقع تجربة صديقه « محمود » المناضل القديم الذي سقط « ... كان هو بعينه صديق طفولتي وصباي وايام الدراسة .. محمود .. بل كثيرا ما كان معلمي ، علمني كيف أحب وطني وكيف التزم به . أول من أكد معنى الوطن في وجداني ، بل كان قدوة لي عندما جعلني اواصل دراستي مثله والتحق بكلية الحقوق لكي اخدم العدالة في وطني ، كما كنا نقول في تلك الايام ، وكان يتقدمنا دائما .. شهما ، صريحا ، يتقد توهجا ، يتسامح مع كل من أخطأ في حقه ، لكنه لم يكن يتسامح ابدا مع من تهاون في حق وطنه ، حتى في أرض الغربة عندما كنا نواصل دراستنا كان الوطن يملأ وجدانه ، فيجمعنا لنؤسس ناديا باسم بلادنا ، ويملأ قاعات الدراسة بالحديث عن وطنه ، ويطوف بنا الصحف علها تنشر المعلومات التي نقدمها لها عن بلادنا .. وبعد ان تخرجنا وأصر بعضهم ان يثري بأسرع الطرق كان محمود وحده الذي ما كان حريصا في يوم من الايام على ان يكون له بيت فاخر وسيارة فاخرة وارصدة في البنوك ، كان يختار زبائن بسطاء مسحوقين ، بالكاد يحصل منهم على مصاريف مكتبه وقوته الضروري » ..(٣) .

هذا المناضل ، المحرض ، الموجه ، سقط ، لم يتبين هو نفسه سقوطه ، كان هذا السقوط واضحا في عيون الآخرين ، في عيني راوي القصة الذي يعرف الماضي ، ويعيش الحاضر ، ويقارن بين المثل والقيم التي كانت وبين ما آل اليه الحال ، انه لم يعرف صديقه الذي عاش معه عمره وشاركه فكره ونضاله ابصر الجرف الذي هوى فيه ، وخاف ان تكون نهايته مثله ... « وبقيت اضرب في المتاهة وحدي .. كنت خائفا مذعورا .. تحول الرصيف تحت قدمي الى شيء رطب لزج ناعم .. كأنه الرمال الناعمة ... وكنت امتلىء خوفا من ان تمتصني تلك الرمال الناعمة ... »(٤) .

هنا كانت لحظة ضعف المحامي ، انه مهزوم من الداخل ، مفتقد للثقة في نفسه ، كيان هش قابل للتدمير منذ اللحظة الاولى ، بدون حتى تعرضه للتجربة ، فقط مجرد انعكاسها عليه كان كافيا لخلخلته تماما .

وتبرز من خلال هذا نقطة يعتمد عليها « احمد ابراهيم الفقيه » في تحديد لحظة الضعف الانساني ، وفيما يتلو الكشف عنها .

فالزمن عامل آخر يستغله « احمد ابراهيم الفقيه » في تكثيف اللحظة وفي تكثيف مردوداتها على الشخصيات ، وفي تحديد ملامحها النهائية .

فحالة الجنون التي تلبست الاستاذ « عبد

الحفيظ » في قصة « صفحة من كتاب الموتى » هي من فعل موقفه مع الزمن بعد تعرضه للتجربة وانكشاف نقطة ضعفه في تلك اللحظة الانسانية « ... قرر ان يقدم اليوم وبلا تردد ودنما ندم استقالته ، جلس ولم يقل شيئا ، دفن رأسه بين يديه ، نسي العيون التي تحاصره .. فكر في هذه البدعة هذه الضلالة هذه النار ، لقد عاش طوال عمره ورعا شريفا مستقيما يراعي حدود الله ويعرف ان للمرأة حرمة يجب ان تصان ، وان مكانها داخل البيت بعيدا عن أعين الرجال » ... (٥) .

مأساة الاستاذ « عبد الحفيظ » انه حاول نطح الحائط برأسه عندما ايقن ان لحظة ضعفه قد هزته من الجذور ، فتغير من الظاهر والباطن وبدأ يحس أشياء جديدة لم يكن ليفكر فيها او ينتبه اليها . « ... لاول مرة صارت مهنة التدريس اجمل مهنة في الدنيا ، والمجيء الى الفصل ليس واجبا ثقيلا وانما عبدا يتجدد كل يوم والبنت ليست ماردا ولا جنية ولا تنينا، وانما انثى صغيرة جميلة مضيئة ، وهو يتودد اليها ، يمنحها الدرجات بسخاء ، يقلق اذا تأخرت عن المجيء دقيقة واحدة ، ويشده الحنين اليها منذ ان يغادر الفصل حتى يعود في اليوم التالي . وفي أثناء ذلك لم ينتبه الاستاذ عبد الحفيظ الى انه صار يعتني بمظهره أكثر من ذي قبل ، وان البدلة التي كان يدخرها للعيد قد نسي العيد وصار يرتديها كل يوم ، وانه صار يهتم بحلاقة ذقنه ووضع الكولونيا فوقها كل صباح بعد ان كان يهمل حلاقتها الا مرة واحدة او مرتين في الاسبوع ، ولاول مرة يفكر في هذه الاعوام التي انقضت من عمره ويدرك انه دخل مجال الحياة مبكرا حتى ظن زورا وبهتانا انه قد اقترب من سن التقاعد في حين انه لم يتجاوز الاربعين الا بخمسة او ستة اعوام ، وانه برغم الزوجة التي جف عودها والاطفال الذين ينتشرون كالنمل داخل البيت ما زال في نضج رجولته وعنفوانها وان الحياة ما زالت أمامه عريضة بكل لذائذها وطيباتها ، وانه كان يظلم نفسه ويظلم شبابه عندما يتصور انه صارا عجوزا وينسى ان له جدا تزوج امرأته الثامنة او التاسعة وهو في سن السبعين » ..(٦) .

اعتبر الاستاذ « عبد الحفيظ » لحظة ضعفه سقوطا لا بد له من تطهير ، فحاول ان يبقي الكون ثابتا ، بل حاول اكثر من ذلك ان يعيد التاريخ الى الوراء ، كان انكشافه على لحظة ضعفه قد دمره تماما ، برغم ان لحظة ضعفه تلك احالته الى انسان سوي .

لم يكن صراعه مع الطالبة « زهرة » .. كان صراعه في حياته على هامش الزمن ، على بقائه واقفا يراوح مكانه وكل شيء حوله يتطور ويتغير ، وعندما انتبه لذلك لم يحاول ان يسرع الخطى ويسير مع الزمن بل جاهد في ان يعيد الزمن الى الوراء ، حاول ان يحقق المستحيل ، ومن واقع هذه الاستحالة كان لا بد له ان يفقد عقله ، لان في ذلك خلاصه مما تصور انه سقوط اخلاقي ، بينما كان في الحقيقة يسلك ويتصرف وفق الطبيعة البشرية ، ووفق منطق الحياة .

عكس ذلك تماما ما حدث للموظف عبد الله في قصة « احبيني هذه الليلة » ... ان لحظة الضعف عنده ، تلك التي جعلته ينهار باكيا وكانت ايضا هي المولد الذي شحنه بطاقة كبيرة من حب الحياة ومحاولة السير بها ومعها (.. كانت سيرته دائما حميدة في أفواه الناس في وطنه ، لا يعرفونه الا رجلا فاضلا يراعي الله في قوله ومسلكه بل ان اهله في القرية لا يعرفون له اسما غير الشيخ عبد الله ...)(٧) .

كذلك كان « عبد الله » ..

لكنه كان واعيا لحظة ضعفه وانهياره ، واعيا لما اختزنته ذاكرته طيلة سنين عمره ، وبما هو فيه لحظة انهياره ، وبما يبحث عنه بعد لحظة الانهيار ، وقد كان انهياره بمثابة الشرارة التي ايقظت الحياة في وجدانه ، لم يعتبرها سقوطا بل اعتبرها لحظة تطهير ، ومن هنا كان ذلك الاستعداد لديه للسير بقية المشوار (... الآن فقط بدأ يعي فداحة ان يحيا الانسان بلا حب ، فداحة ان يمضي العمر سجين بيئة تسمي الحب فجورا ، وتصدقها انت في ذلك ولا تهتدي الى ما في قولها من زيف وبطلان الا بعد فوات الاوان . انه الآن فقط يكتشف مدى ما كان في حياته من قبح وانه لم يمارس في يوم من الايام انسانيته ، انه قد تحول منذ زمن طويل الى سلحفاة او نملة او فأر ، وتأكد له ان كل ما اصابه في حياته من مرض او أرق أو حمى انما اصابه لانه لم يحب ، وكل ما ألم به من هموم ورزايا واحزان انما الم به لانه لم يحب ، وعندما كان ينهزم في العراك وهو صبي انما ينهزم لانه لم يحب ، حتى عندما كانت تبلله الامطار او يؤذيه البرد وقيظ الشمس او يكتب له رئيسه في العمل رسالة انذار او يطالبه الدائنون بدين كان ذلك لانه لم يحب ، بل ان الموت نفسه عندما يأتيه فهو لا يأتيه الا لانه يعرف ان عبد الله عاش حياته كلها لم يهتد الى هذا الحب .

لاول مرة يكتشف ان اعـوام الصبا والشباب تسربت من بين اصابعه كالماء دون ان يفعل بها شيئا ، دون ان يعرف بهجة يوم واحد من ايامها ، عاشهـا بمثل ما يحياها مائة عام) ..(٨) .

كانت لحظة الضعف عند « عبد الله » لحظة ادراك أيضا ، لحظة تمرد على حياته السابقة ، فاستدار عن حياته الماضية ، في اتجاه مناقض لها تماما ، في اتجـاه الزمن والحيـاة .

دور الآخرين في حيـاتنا ان يفجروا فينا هذه اللحظة الانسانية ، لنبدأ بعدها في اعادة النظر وترتيب المواقف والافكار والسلوك ، وسواء كان هؤلاء الآخرين « زهرة » أو « محمود » أو « راقصـة الملهى » أو « الذئاب » أو أي كائن حي ، فانهم يقومون بدور المرآة التي تعكس اعماقنا ، تجعلنا نلاحظ ذلك الشرخ الذي قد يتلاءم ويندثر ، او يتسع ليصبح بحجم الكون .

كل منا له لحظة ضعف ، متى تبرز ، أين ، تحت ظل أي ظروف ، ذلك ما يجب ان نلاحظه في مرآة أنفسنا في الآخرين ..

بذلك يظل « احمد ابراهيم الفقيه » مجيدا في تعميق وتكثيف وتوظيف لحظة الضعف ، سواء اتفقنا معه في دوافع وانعكاسات ونهايات تلك الحظـة أو اختلفنا .

الهوامش ...

(١) احمد ابراهيم الفقية ـ قصة الذئاب ص ٤٠/٣٩ من مجموعة اربطوا احزمة المقاعد ـ منشورات دار الكتاب اللبناني . ط (١) ١٩٦٨ م .

(٢) نفس المصدر ـ ص ٤٩ .

(٣) احمد ابراهيم الفقيه ـ قصة الرمال الناعمة ص ٨٥ مجموعة اربطوا احزمة المقاعد .

(٤) نفس المصـدر ـ ص ٨٧ .

(٥) احمد ابراهيم الفقيه ـ قصة « صفحة من كتاب الموتى » ـ ص ١٩ من مجموعة اختفت النجوم ـ منشورات الدار العربية للكتاب . ط (١) ـ ١٩٧٦ م .

(٦) يفس المصدر ـ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٧) احمد ابراهيم الفقيه ـ قصة احبيني هذه الليلة ـ ص ٣٣ من مجموعة اختفت النجوم .

(٨) نفس المصدر ـ ص ٤٠ ـ ٤١ .

التفرد المستحيل

شعر: عبد الحميد بطاو

حركوا ساكن الحزن في خاطري
واختفوا في متاهات تلك الدروب
كنت أقرأ أسماءهم واحدا واحدا
وهي تكتب أسماء عشاقها فوق خارطة الجسد المستحيل
كنت أعرف أن التفرد في حضرة الحب
موت رهيب
كنت منكفئا فوق قلبي أحاصره
ثم أيقنت أني أغالط نفسي
كان نوعا من الاندماج
وكنت أفكر كيف أحدد جسمي
اذا ما تقرر عزلي
رنق الصمت ما بيننا
ثم حدقت منفعلا في عيون التي عشقوها

فأبصرت أضواء كل المدائن كل القرى
ثم أحسست أن هواها رهيب
كنت أعرف أني سأقتل في قمة العشق
من روعة الصحو أو نهم السكر
أو ربما بيديها ..
كنت أعرف أن هواها
اذا ما استبد بقلبي سيفتح أبوابه كلها
ثم لا يحتويهـــا ..
كنت أوقن أني سأسعى على حافة السيف
منتعلا عنقي حين أسعى اليها
غير أني شعرت بأني أقاد
على الرغم من كل هذا
بكل تلابيب قلبي وعقلي اليها

للحب والميلاد والأطفال

شعر : محمد المسلاتي

للحب

- ١ -

.. ويا ليلة الميلاد ،
دعيني أنفذ عبر صدرك الكبير ..
أطرق بابك وأمر ..
أرافق الصغار حينما يذهبون ، وحينما يجيئون ..
وفي أيديهم تهتز القناديل المضاءة ..
امنحيني المقدرة على عبور لحظاتك المتوهجة ..
وليبارك ـ الله ـ الاطفال ، والاضواء ، والاغنيات
الصادقة التي ترتفع فوق المدينة والضجيج ..
ـ « .. هذا قنديل ، أو قنديل ..
يشعل في ظلمات الليل .. » ـ
فلتشتعل القناديل ..
وليغن الاطفال ، وليصدحوا ..
وليمنحوا العالم دفئا ، وتفاؤلا ..
وليمسحوا عن وجوهنا النفاق والغبار ..

- ٢ -

.. ربما يا ليلة صدق ،،
لن يعرفني الصغار اذا مشيت بينهم ..
انما أخبريهم ،،
قولي لهم انني صديق قديم حمل قنديله ..
اخترق الشوارع ..
هتف مع رفاق طفولته انذاك ..
طارد « الشواي »
اسردي على مسامعهم كل الذكريات ..
وازرعي على وجه كل طفل بسمة حب ..
فما أروع ابتسامات الاطفال في زماننا الحزين ..
عصر المختفي خلف الف قناع ،،
فلا تبخلي بالحب ، والامل ، والقناديل ..
امطريهم حتى يسيروا ..
ويطرقوا باب الانسانية المنغلق في وجه الانسان ..

— ٣ —

•• دعيني أحك ،،
أبث في أعماقك المتقدة أحزان السنوات ••
وآلام البشرية ••
أصف لك الاصدقاء الذين تغيروا ••
أحدثك عن الرفاق الذين تساقطوا ••
وعن من رحل ولم يعد ••
فليمض الاطفال ••
وعلى وجوههم الهادئة ضوأت الشموع ••
وأنا سأقول لك ••
— « كان الشواي انسانا يحترق في مدن العالم •• »
— « كان طفلا بات ليلتين دونما عشاء •• » —
— « كان بشرية تشقى من أجل اللقمة •• » —
ورغم كل هذا ••
سأكتب على قسمات وجهك ••
كلمات ود للانسان الذي يرسم بالحب كل الخطوات•
ويبقى في كل الاشياء ••

— ٤ —

•• فلا تبك ••
اننا والاصدقاء الذين هرموا في الحياة ••
ما عدنا نلتقي ••
كنا اربعة ••
نؤرجح القناديل الملونة •• نجري مع الاخرين ••
نغني في أذنيك مع الريح ••
نهتف ، وأعيننا نجوم لامعة ••
— « الشواي في ذيله ريشة » —
وكان يركض أمامنا ••
نضحك ، نثرثر ، ونحن نعدو خلفه ••
حتى عندما التهمت النيران بيت جارنا ، كنا نصيح
بانفعال ••
— « الشواي في ذيله ريشة •• » —
لكن تلك المرة لم تكن ريشة ••
لقد التهم جارنا وتركه كومة من الرماد ••
فما أقسى أن يتلاشى الانسان ، يتحول الى دخان
ورمـــاد ••

— ٥ —

•• واحد من الاربعة ،،
ارتدى بدلة ••
اقتنى سيارة ، غير نظارته أكثر من مرة ••
سكن شقة في الدور الثاني ••
التقينا في الطريق ••
لم يعرفني ••
حدثته عن جارنا الذي احترق يوما ما ••
عن سكان شارعنا الطيبين،عن القناديل ،والذكريات
عن أمه التي كانت تبيع البيض ••
وتعد لنا عصيدة العيد ••
عن والده عامل البناء الذي لقي حتفه تحت جدار قديم
انهار فوقه ••
ضحك وقال ••
— « انك مخطىء ، لست أنا من تتحدث عنه •• »—
ومضى في طريقه ،،
•• فيا ليلة الميلاد ••
أوقدي قناديلك على ملامح كل الذين تغيروا ••
انبشي وراء الوجوه المستعارة ،
واسمعيهم أغنيات الطفولة ••

— ٦ —

•• وكانت أمي تقول ••
— « •• يا ولدي ••
بامكان الزمان أن يفني كل شيء ••

الا الانسان !

تعرف لماذا •• أيها الصغير ؟

لانه يحيا بالخبز ، والحب معا ••

حاول أن تجعل قلبك عامرا بالحب في كل حين ••

فالاطفال طاهرون دائما ••

يزينون ليلة الميلاد ••

يوقدون الشموع في ظلمة الحياة ••» ـ

— ٧ —

•• كانت صديقتنا ••

تشاركنا الغناء •• تمسك في يدها القنديل المنور ••

تصدح مثل طائر طليق ••

عيناها تعكسان أضواء كل القناديل المنتشرة حولها••

لا تعرف سوى المرح ••

أتذكرين ـ يا ليلة ـ الميلاد •• وجهها ، كلماتها ،

شعرهــــا ••

طفولتها ••؟؟

لا تحزنــي ••

فبعد أن بعثرتنا السنون ••

علمنا أن الطفلة صديقتنا احترقت في السابعة عشرة ••

ورأينا بقاياها من الرماد ،،

فلقد التهمها الشواي !

بكينا كثيرا ••

فالجميع كانوا يلقون بالحطب على جسدها ••

ويحرقونها ،،

— ٨ —

•• والصديق الثالث ،،

صار موظفا محترما •• يقرأ الصحف اليومية ••

يحتسي القهوة المرة ••

يناقش العلاوات ، والزيادات السنوية ••

ساقتني اليه الصدفة ذات مرة ••

تجاهلني ، ورد علي بلهجة جافة ••

ـ « تعال غدا » ـ

جئته في اليوم التالي ، وقلت له ••

ـ « وصلوا الى القمر •• » ـ

في اليوم الثالث ، قلت له ••

ـ « وصلوا الى المريخ » ـ

في اليوم الرابع ، قلت له ••

ـ « وصلوا الى عطارد » ـ

في اليوم الخامس ، صحت في وجهه ••

ـ « •• الشواي حرق العالم » ـ

لكن الصديق لم يعرني أيما اهتمام ••

ولم ينتبه الى الجموع التي أحاطت به ••

فلقد كان منهمكا في حل الكلمات المتقاطعة ••

— ٩ —

فيا ليلة الميلاد ،،

امنحينا قطرات حب ••

تسقط على أرض البشرية ••

تروي الناس ودا وتعاطفا ••

تجعلهم أكثر صدقا ووضوحا مع أنفسهم والاخرين ••

— ١٠ —

•• دعيني أعبر ••

أطرق بابــك ••

أرافق الاطفال وهم يحملون القناديل ••

ويغنــون ••

للانسان ، والحب ••

.. حينما ولد عام جديد ،،
كنت أتمنى أن يكون الحب في قلبينا أعمق ما يمكن .
لاهديك ابتسامة الميلاد ..
ولاطفىء كل المصابيح الصناعية ، ويتوهج حبي بين يديك ..
عندما أعلن العام الجديد المجيء ..
كنت أعد نفسي لامنحك عصفورا أبيض يرفرف دونما قفص ، لكن هاهو العام الجديد يقبل ..
والحب في قلبينا ميت !!
وكل العصافير داخل الاقفاص ..
فما عاد الذي يتوهج مثل الشمس في حياتنا يتوهج .
أمسينا غريبين ،،
وكان العالم من حولنا موحشا ..
ـ فيروز ما عادت تغني عن شادي ..
والانسان التائه أبدا ، ما يزال يبحث عن درب ..
احترقت بيروت ،،
اسود . الاطفال ..
وأنا وانت جرحان غائصان في جلد الزمان ..
دماء تنزف ،،
عام مـات
عام جـاء ..
ـ « فلمن تقرع الاجراس ؟ » ـ
يتلقى الاطفال هداياهم دمى قنابل زاهية الالوان ..
ترتفع ضحكات العشاق السعداء ..
تنطفىء الانوار ..
ـ « ميلاد سعيد .. » ـ
ـ « عام مبهج .. » ـ
سيحتضن الاطفال هداياهم قنابل الدمى الملونة ..
يكتب الشعراء قصائدهم ..
فيا حبيبتي ،،

هل تعرفين من هم الشعراء ؟
من هم الرؤساء ؟
من هم الاطفال ؟

* * *

.. حسنا ، سأحدثك قليلا ،،
عن هذا العالم .. عن حزنه ..
فربما استطعت أن أحرك فيك مشاعر حزن ..
أنا لست قاسيا حتى أحاول أن أبكيك ..
ولست متشائما لكي أسقط الدموع من عينيك يـوم الميــــلاد ...
أنا واقعي فقط ..
وواقعية الحياة مرة الى حد لا يصدق .
ماذا قلت لك ؟
آه ، تذكرت أنني أنوي أن أسرد عليك بعض الحكايات
فثمة رجل كان يدعى نيرودا .
مات منذ عامين ..
هل سبق أن سمعت عنه ؟. أو أنك كنت مهتمة بتتبع آخر موضة للازياء ..
.. وحفظ تعليمات الطبخ ، وفنون الزينة ..
أو ربما دعايات الاعلان منعت اخباره من ان تصل اليــــك ..
قلت لـك ..
كان رجلا يدعى نيرودا ..
انه ليس قنينة عطر .. وليس صيحة من صيحـــات الموضــــة ...
كان يكتب شعرا ..
كان انسانا ..
كان كل الشعراء ..
أتركيني أفرغ أحزاني ..

قيل انه مات قهرا عندما سالت دماء الانسان ..
فكمدا ، أو قهرا ، أو نفيا يموت الشعراء ..
من أجل الانسان ..
يا حبي في هذا العصر يموت الانسان ..
لكن تولد كلمات الشمس ..

* * *

يا حبيبتي ،،
دعيني أثرثر على أعتاب سنة جديدة ..
قولي جننت .
فجنون الانسان من سمات هذا العصر ..
وقهر الانسان من سمات هذا العصر ..
أنا أعرف أن العشاق يتبادلون الهدايا عند قـدوم
كل عـــام ...
والناس يزوقون مشاعرهم نفاقا كما يزوقون واجهات
بيوتهم ..
لكنني أنا عاشق مفلس ..
أهديك الكلمات ، وأخبار الناس ، وأنباء الشعـراء
المقتولـين ..
ونعي الاطفال المغدورين ..
أقاسمك قليلا من حزني .وبعضا من أحلامي المستحيلة
قد تكون هدايا غير مناسبة ..
أو حتى مضحكة أمام الصديقات ..
لكن عـذرا ،،
اتركيني أزرع بعض الاحرف ..
وقولي عني ما تشائين .
فالسنوات تموت ..
والشعراء يموتون ..
والاطفال يموتون ..
لكن كلمات الشمس لا تموت ، لا تموت ..

* * *

الاطفال ماذا أقول عنهم ؟
انهم أطفال ..
أعتقد أن هذا يكفي عنهم ...

* * *

... وفد عام آخر ..
لا تسألي عما سيحمله لنا بين راحتيه ؟
بل قولي ..
ماذا سنحمل له بين أيدينا ؟،
ماذا سنفجر له في أعماقنا ..؟
هل الحب يكفي ؟ أو الحزن ، أو الامل ..
أو أننا بحاجة الى الانسانية ..

* * *

.. توارى عام عجوز ،،
كان يخفي وجهه بين راحتيه ..
أتصدقين يا حبيبتي ؟ أن العام كان خجلا ..
كان متعب الجسد ..
لوح لي بيدين مغسولتين بالدماء ، وغاب في قلـب
التاريـخ ..
كان العام المفقود صرخات جوعى في مدن تبحث عـن
خبـز ،،
وأحلام أطفال شاخوا قبل أن يصلوا الى العام الرابع

* * *

.. أحدثك ، وأحدثك رغم كل الظروف ، أقول لك..
ان في ذات اللحظة التي يرقص فيها المبتهجون بليلة
رأس السنـة ..
يوجد من يبكي ..
لا تقولي ..
ــ « دعنا من الحزن .. » ــ
لانني سأقول لك ..
ــ « وهل يتركنا الحزن ؟ » ــ

لا تقولي لي ..

ـ «ان الحب يكفي» ـ

ـ لانني سأقول لك ..

ـ « ما عاد الحب وحده يكفي .. »

لا تقولي شيئا ..

كوني صامتة حتى أبثك ما في أعماقي ، فربما استطعت

يوما ما أن أفجر فيك كل الاشياء

* * *

... ولد عام جديد ،

يا حبيبتي . وأنا مفلس .. لا أملك ما أهديك ..

سوى هذه الكلمات ..

انها ثرثرة على أعتاب سنة جديدة .

قولي انه جنون ..

لكنه جنون عشاق القرن العشرين ..

* * *

انهم سيطفئون الاضواء ..

انتظري . ضعي يدك على قلبك ..

فستسمعين وسط صخب الميلاد انفجار قنبلة ما ..

وربما يكون الميت في الميلاد طفلا من أطفال هذا العالم

للأطفـــال

ـ ١ ـ

...طفل رسم حمامة !

وشجرة زيتون ..

ووجه امرأة حزينة ..

وشمسا ، وزهرة ..

لوث يديه وثوبه ..

أمه نهرته قائلة ..

ـ « ثوبك الوحيد .. تلو .... » ـ

وقبل نأ تكمل سقطت جدران البيت

انفجر الموت ..

ركض الطفل ..

كان مذعورا .. عيناه فيهما رعب وحزن

طارت ورقة بعيدا مع الرياح ..

داستها أقدام الناس المذعورين ..

تلطخت بالوحل ..

الحمامة ، والشجرة ، والزهرة والشمس ..

ووجه المرأة الحزين ..

وكان الطفل يركض ..

ـ ٢ ـ

.. قهقه منتصرا ..

رسم جرحا في رأس امرأة حبلى ، طعنها بالخنجر ...

راح يحدق في لون الدم ..

في يده قنبلة ..

في يده سكين تلون بالاحمر ..

كان الوقت كل الازمنة ..

وكانت عيناه تحملان آلاف الصور لاشباح الموتى .

امرأة يزين اصبعها المقطوع خاتم الزواج ..

طفل يلف يديه حول دمية ..

خصلة شعر صبية ..

قميص في كمه حبات قمح ..

ظل يضحك .. والمرأة تحتضر ..

بدأ يبكي ..

جن .. خلع ملابسه ..

وشرع يركض ..

.. كتب قصيدة ..
وأخرى ، خط ألف ورقة في غربته ..
حمل أوراقه ..
أسرع في خطاه ..
وسأله مدير التحرير ..
ـ « ما هذا ؟؟ » ـ
فقال :
ـ « قصائد شعر .. » ـ
ضحك الرجل حتى احمر وجهه ..
ـ « انها نكتة رائعة .. » ـ
ـ « لكني لم أقل نكتة .. انها قصائد شعر » ـ
ـ « اسمع ، حاول أن تحفظها في بيتك ، أو تحرقها .
لن تجد من ينشرها .. لدي فكرة ! لماذا لا تترك هذه اللعبة ..
وتعمل معنا بقسم الاعلانات ..
انه مربح ؟ » ـ
ـ « ...... » ـ
جمع أوراقه ، وغادر المكان مسرعا ..
انتحر في الليل !!
في اليوم التالي كان ديوان شعر أنيق الغلاف يطبع بملايين النسخ
مدير التحرير يشرف على العملية بنفسه ويقول مزهوا ..
ـ « أكتبوا على الغلاف .. ديوان الشاعر الذي مات منتحرا بالامس » ـ
وهمس مخاطبا نفسه ..
ـ « لقد قلت له منذ البداية اعمل معنا في قسم الاعلانات ، فلم يرض الاحمق » ..
وكان ديوان شعر يركض .

قصيدة حب في زمن الحرب والسلم

شعر : عبداللطيف المسلاقي

الاهداء :

« الى الفرع الطيب من الشجـرة المباركة ... هذه قطرة ماء .. ليوم صائف في عصر (عجاف) ... »

قصيدة حب في زمن الحرب والسلا
يحضرني في هذا العالم
موت الانسان بلا موت ..
ضياع وفناء ، كل ممزق ،
واسقاط وسقوط ؟.
والغابة تزحف ، تقتحم المانع
والمانع قبض الريح ..
جسد ، وخوار منهوك ..
يحضرني عبر الازمنة الثكلى
شبح همجي أحمق ..
يسترق السمع ويخترق المجهول ؟.
يحاصرني الشك ، وأنت كما أنت..
لا زلت تبارك مجد الانسان ،
وهذا العالم يحتضر ..
ينقرض الزمن الحالم ،
يجتث من الاعماق ...

ويرتد هبوطا ، وصعودا ؟.
تتسع الهوة ، ما بين الميلاد الاول
وضحالة جنس الميلاد المفقود ..
أخافك يا زمن الغربة
فهبني لحظة ما بعد الخوف ..
وخذ ما شئت ، فقد طال علينا الامد
حتى صار الشك يقينا ..
والعشق جنون ؟.
أكاد ــ فلا أبدي ــ أواجه رفضا
جيش يحاصرني ؟
أحمل راية من لا يقوى ..
أجنح للسلم مخافة زمن الحرب
يداهمني ؟.
وأعلن للعالم أنك عاصمتي
وموطن عشقي ...
وأن حدودك تشمل كل
حدودي ...
وأنك ميلاد خصب ...
ينمو مثل جميع الاطفال ،
يقاوم كل أعاصير الفتنة ؟.
نبتك ينبذ كل فصائلنا ..

وحدك تبقى مكبولا
بقيودي ؟.
....
....
مجنون من يفقه سرك ؟
من يدرك فيك الغضب ..
الرفض القاطي ..
ضد وصايانا المحمومة عنك ؟.
غجري مثلك من قام يحرض
للعصيان ..
يندد بالارهاب الغاشم ، مـــن
سيـــدك ؟.
لا ، بل سيد جارية القصر ..
ورقيق العصر ،
الممطر بالعدوان ؟.
....
....
من مات فقد فات ..
ومن عاش فقد هلك ؟.
والسابق ، فاللاحق ، فالقادم
عبر مجاهلنا آت ..

سيدتـي
أيها الوجه البشري
المبرح في الاعماق ..
كم يبدو ضعيفا كل قوي
يتجرأ منك ؟.
تحاصرني عيناك
فأرغب عنك ..
وأحدث نفسي ، عن زمن العشق
طويل الدرب ؟.
فيحضرني قيس ، ولبناه ،
وليلى تفترش الارض ..
تستنجد .. تتوسل ...
تبتهل يا رباه ..
محظور كيف ؟ وأنت مشرعه
حصنا وصونا للعرض
يدركني الغرق أمام الهول ..
وفاجعة قطاع الطرق ؟.
أخاف عليك .. ومنك ..
وأكره كل هواجس لا تبقيك
وأشقى بين الرغبة ، وقتل الاطفال
في زمن الحرب
تتكسر كل الاحلام شظايا ..
ويتمدد وجعي ،
عبر الساحات المكتظة بمغانم

وفي الحرب ..
يحاصرني حبك ...
دون الضيق ، ورغم خلاء الارض ،
بما يثقل جنبات الارض ..
وأحملك سفرا ، ومتاعا
وأقتل كل شهواتي ...
دونك يا زاد العمر ...
وأحلم أن كنوز الارض
قريب منك ..
وأن مفاتيح المدن السبع
بين يديك ؟.
أقرأ في عينيك الامن
وخوف العالم ...
من فقدان الامن ..؟
أبحث عنك ، قبل مجيئك زمنا
يتعدى كل تواريخ الزمن ؟.
أحاول رسم خطاك ، لنفي الشبه
وقتل الشك المغرض عنك ؟
....
....
وأفترض أنك حضرت ..
وأفتح مجلسنا ، بقطرة ماء ،
تذهب وجع القلب ...
وأشرع دون النفس ،

أدافع عنك ..
أرفض أنك كنت عنيدا ..
وأنك عمدا ترهقني ..
وتسلب مني ، طعم العيش
ومذاق العمر ...
أرفض كل دعاوى القوم ؟.
وأجهل قيدا يمتلكني ..
ألبس عنك جميع التهم ؟
وأشهر حبك علنا ...
لافتة وبيارق تعلو
كل تضاريس الارض ..
أرفض كل حلول التجزئة
وأطالب بك خارطة ..
تمتد الى ما بين القطبين
ومن السند ،
الى السند ؟.
أحبك ...
وأحب بحبك أطفال العالم
وأحب وجوها لا تعرف
معنى الحب ..
أحبك فرضـا ...
وأخشى عليك افتراض
السنين ...

صيف ١٩٧٦ م

الجذع المتوحش

قصة : زياد علي

— ١ —

وقفت في ذلك الطابور منكس الرأس ... وفي المرات التي ألقي فيها نظري الى الحذاء الذي أرتديه كان يبدو لي قرني وعل تخترقان الجلد عند المقدمة كنت أحدق في الفراغ وأحس برغبة في أن أضع اصبعي في فمي كي أتقيأ .

انها حرب غير شريفة ..

وهذا ما يشعرني بالخجل لحد يبعث الكراهية.

ويتبقى السؤال أخرجه من فمي .. أقلبه بين يدي .

ثم ... ثم أقربه من أذني .

ولكن في كل المرات لا أسمع اجابة ..

لماذا كنت جبانا ؟

أتلهف الى اللفافة أنفثها بحقد ... أشعر بمرجل يغلي بداخلي .. تصافح البندقية بطن يدي فأهزها فيما تكز أسناني على بعضها ..

لماذا .....؟

كان يجب أن أوجه فوهتها الى قلب ذلك الضابط الحقير ... انها حرب ليست عادلة .

أحرك قدمي ببطء كي أثبت لنفسي انني لست مثبتا على الارض بمسامير .... أتحرك للامام .. للخلف ، الى كل الجهات فيما تحلق العيون عبر كل الاجواء مثل طائر (الخطيفة) .

كنت أشعر بالخجل حيال تلك العيون انها نجوم السماء ، تترصدني .

— ٢ —

تترصدني مثلما كانت تفعل تلك الرصاصات التي تنهال علينا من الجبل ... أرجلنا تتقدم عبر المسالك الوعرة ... كل فرد منا لا ينظر الى وجه جاره ...

سوط الضابط الايطالي يطرقع ظهورنا ...

— تقدموا ...

انهم لن يستمروا طويلا وحق السيدة العذراء ، مجموعتنا تزحف ككلاب مدربة ... الرصاص

يصافح بعض الاجساد ... تتعانق معه ... تتخلف عن المجموعة وقمة الجبل تبدو كما لو أنها مغروسة في بطن السماء .!

لليوم التالي نزحف الى الموت ... الرصاص لم يتوقف ... في الصفوف الامامية منا يربض الخوف ... خلف ظهورنا يعلو صوته ...

ــ ان الذخيرة ستنفذ من هذه المجموعة المخربة ...

سوف أعلق الواحد منهم من ...

الكلاب ... ويستمر الضابط الايطالي في شتائمه .

بنادقنا أعواد جافة لم نشعر بالود حيالها ...

العرق يتصبب من الاجساد .

يد البندقية الخشبية تبدو لها رائحة غريبة (كعكاز موسى)* أشعر بثقل في يدي اليسرى ، أسند مأسورة البندقية على كتفي وينصرف تفكيري بعيدا .

كان الضابط خلف المجموعة المقابلة ..

أشعر بفقدان سيطرتي على حركات يدي ... لم أعد أحس بها كانت تنمل ..

ـ ٣ ـ

كأسراب النمل تتحرك في صمت لتطوق الجبل.

جميعا نزحف متقاربين ... عيوننا تترقب .

زخات الرصاص التي تنهمر في كل لحظة ...

صوت الضابط يأتي من بعيد ..

ــ تقدموا .

(لتحيا ايطاليا ... المجد لموسوليني) .

* * *

كنا نحن الليبيين في المقدمة ... وجنودهم من الخلف ــ في وجه النار هكذا يريدون ، يعاملوننا كمرتزقة ، كان الوضع مفروض علينا عندما اقترب الضابط الايطالي سمعته يتمتم :ــ

أولاد الاحباش ... لا أتوقع أن يزيد عددهم عن عشرين رجلا ، ولكن مكانهم في أعلى الجبل يعطيهم فرصة لا نملكها ...

فجأة ودون موعد سكت الرصاص الصمت ..

... الصمت هو الوحيد الذي يجيب على زعيق الضابط الايطالي .

استسلموا ...

الجبل يصغر لم يعد له ذلك الجبروت ...

ان الجبال بدون رصاص لا تساوي شيئا ..

كنا نقترب من تلك الاشجار المتعانقة .. أيدينا تمسك على البنادق التي لا نشعر بأي ود حيالها .. لكن محاجرها تكاد أن تقفز عيوننا ..

ـ ٤ ـ

مئات العيون انغرست في جذع تلك الشجرة .. كانت ثمة سيدة صامتة تنظر الى لاشيء يعانق ظهرها الجذع وعلى مقربة من رجلها اليسرى الممتدة ثمة بعض الصناديق الفارغة .

وكوم صغير من (سيوف الخروب) خدها مستند على فتحة البندقية التي تحضنها بين

فخذيها ، الوجه الاسمر المشرب بالحمرة .. جانب من نهرها الازرق ينظر الينا باحتقار !.

كانت في اللحظات التي تجيل فيها النظر الى مجموعتنا الواقفة على رأسها تنفتح شفتاها ثم تقفلهما ...

عيون بعض الرجال تصافح التراب .

« لوحدها فعلت كل ذلك » هذا ما قاله الضابط فيما كانت عيناه تقدحان شررا ...

— ٥ —

ليفعل فيها كل منكم ...

صرخ بأعلى صوته فيما كانت بعض الجمل تخرج خافتة وكأنه يحدث نفسه ...

لوحدها فعلت بنا كل ذلك هذه الحبشية العاهرة ...

لم يتوقف الرصاص من الجبل .. انها لطخت شرفي العسكري .. ليفعل فيها كل منكم .

— ٦ —

كان شرفنا قد تلطخ عندما تقدم منها جندي ايطالي .. أعناقنا تتطاول لمعرفة ماذا سيحدث ، لم تقاوم ، لم تمانع .. الثاني .. الثالث ... الكلاب تلعق بنهم .. عيناها تحدقان في الفراغ .. كان المرء يرى أمامه جذع شجرة يتحرك بين أيدي الجنود .

انهم يتحولون الى أشباه رجال في أيام الحرب.

كرهت يومها كل الطوابير المنكسة الرأس ، الطوابير التي تحتفظ بأمشاط الرصاص في مخازن البنادق .

انها حرب ليست عادلة . هذا ما قلته لنفسي فيما ظللت أمسح حذائي بالفردة الاخرى .

كنت أريد أن أمسح القرنين الصغيرين من على رأس الحذاء ... وفيما تسرق عيني النظر الى الرجال من حولي .

كنت أشاهد مجموعة منهم كل واحد يمسح رأس حذائه بالقدم الثانية ...

كانوا ينتظرون دورهم بفارغ الصبر .

ربما ..

---

* عكاز موسى : اسم نبات بري في ليبيا .



البداية

قصة: بشير زعبية

.. الى عم حسنين العامل المصري الطيب

الذي التقيته فصار صديقي ..

ب.ز

مات الصبي ...

ماذا حدث ؟ تساءل أحدهم ..

صبي ماسح أحذية كان على الرصيف ، حاول العبور الى المقهى المقابل لكن السيارة قتلته ـ قال شاهد ـ مفتوحة عيناه .. لكنه لم يكن يرى غابة الاحذية التي أحاطت به ـ لو كانت منذ لحظات فقط !!

مات الصبي .. قذفته السيارة .. ارتطم رأسه بالاسفلت فخرج النزيف ومات.. كان الصبي مذعورا يلتفت الى الخلف حين حاول عبور الطريق .. كان يجري .

ـ قال اخر : يقف في الخلف ـ وفي الخلف كان صبي يرتعش .. يتأبط صندوقه وأصابعه مصبوغة بألوان البويا المتعددة .. سأله الرجل الذي كان بجانبه : تعرفه ؟؟

لم يجب .. لكن نظرات غريبة كان يسلطها الصبي على رجل الشرطة الذي يقف في الخلف ينظم ويأمر ويفرق ..

تشتغلان معا ..؟

تجمدت نظرات الصبي على رأس الشرطي ..

ـ أخوك ..؟

ابتعد الصبي يجري متأبطا الصندوق .

* * *

في المقهى المقابل رجل ذو كرش كان جالسا يداعب طفله .. قال لصاحبه :

ـ صبية ضالة . ـ وافقه صاحبه .. ابتسم ذو الكرش في وجه طفله .. فقد كان الطفل يشرب عصير فاكهة .. أنزلت العلبة من يده .. لوثت ثياب الرجلين فقهقها ..

* * *

في التحقيق سأل الضابط سائق السيارة :

ـ كيف كان الحادث ؟

ـ فاجأني الصبي ..

ـ لم تستعمل المنبه ..

ـ استعملت المنبه .. والصبي رأى السيارة لكنه كان يلتفت خلفه .. كان مسرعا ..

« أيده شاهدان » .

ـ يوقف السائق حتى تظهر نتيجة التحقيق ويأتي أهل الصبي ..

« لم يأت أهل الصبي »

* * *

قبل أن يصل البيت توقف الصبي الذي جرى مبتعدا مع صندوقه ..

ماذا سيحدث لتلك العجوز .. بالطبع سوف لا تسأل عنه الان ، وغدا كذلك .. كان يعرف ذلك تعودا أن يغيبا معا .. يداعبان قروشهما ويتفاخران :

ـ كم حذاء مسحنا اليوم ؟

لو كان أبوه حيا ..

أبوه قتل وأمه كذلك .. كانا في المحطة ... الحافلة لم تأت .. كانا يستعجلان زيارة ابنهما المريض .. تمردت شاحنة على سائقها فقتلت أربعة كانوا في المحطة .. خرج الخبر في اليوم التالي بارزا في الصحيفة واختفى في اليوم الذي يليه ..

والعجوز التي تكفلت بتربية الصبي لا بد أنها الان تنظف عنابر المستشفى وتغسل أرضيتها ..

قالت مرة لجارتها : ألفت هذه المهنة .. عشر سنوات يا عزيزة .

* * *

لن أخبرها .. اخفى الصبي صندوقه ورجع الى حيث كان الحادث .. نفس الشرطي يقف هناك .. يداه الى الخلف .. بقعة الدم فقدت لونها الاحمر . يمشي الشرطي وينظر حوله كأنه تكفل بحراسة الكون ..

انحنى الصبي والتقط حجرا ـ هه ـ طارت قبعة الشرطي الذي تحسس رأسه .. ثم بحركة اعتادتها يده تحسس جانبا من وسطه ..

فيما كان الصبي يختفي عند اول منعطف .. والوقت كان يدنو من الغروب .

الدخول في الزمن الثاني

الزمن الأخضر

شعر : محمد الكليش

« الى الطالعين من رهج الحلم ،
ومن أعداق النخيل ، الساكبين
دماءهم في الصحراء نوافير محبة ؟ »

(١) بطاقة انتماء

من أين أبدأ ؟
وكل الدروب تؤدي للمواعيد القديمة .
قلت ــ
أستضيء بوهجك
أدخل في معمدانية حبك ــ
أحترق ،
دمي زيتا تشربه المشاعل
أحملك في القلب سحابة .
تمطــر ،
ان غازلتها الاودية
الان أمد سماط جرحي ؟
كي أولم الطير ، والفقراء ،
وكل وحوش الفقر
وأعلن . ؟
أنا الميت المصلوب
على جذوع نخلك
أفك قيدي ؟
وأرتقي نحوك ..؟

(٢) مقدمة في تاريخ العشق

أنا طفل يتعلم أبجدية الحب
يقرأ لغة الينابيع :
لغة الارض التي تهجس بالمواعيد الخبيثة
أول رمز لثغته ماء
أول حرف كتبته ثاء
ثاني حرف واو
ثالث حرف راء
رابع حرف تاء
انها الثورة ، وعد الفقراء
وعد الفقراء حق
(عينيك ..
يا النبعين
في بيادر قلبي المجدبة . ؟)
ان لم تسقني .؟

سأغضب
وأهجر لغة الماء ..

« الخروج من الزمن الاول »

أخرج من دائرة الزمن الاول منكسرا
أعدو حافيا في أسواق الكوفة
أصرخ ..
يا الله ..؟
من يوقف هذا النزف الحاد في ذاكرتي .؟
يسرج هذه المهرة الغجرية
المفعمة بصبوات الوجد
يمتطي صهوة الجرح
يخرج من دائرة التوجس
نحو الارتقاء المستحيل .؟

« الدخول في الزمن الثاني »

دخلت في الزمن الثاني .؟؟؟
ألفيت الاطفال يزرعون
في جسدي زنابق الفرح
في تلك اللحظة
الفاصلة بين الحلم واليقظة

أشتبه على الحزن .؟
بكيت ،
بكيت ،
بكيت ،
قلت —
مبهجة هي الاغاني
حين تنبع من القلب
مبهجة هي الحياة
حين يظلها الحب
(الان تقتحمني رغبة في الغناء . ؟
سأغني لاطفال الثورة
عصافير الجنة
ألق الغد الواعد
أريج الزمن الاتي .؟؟
الزمن الاخضر ..؟)

« اعتذار »

(أعشق غناء العصافير
نقاء العصافير
فمعذرة ان أفرطت في الوجد
فخانتني أوزان الغناء .. ؟)

ليبيا حبيبتي الأولى

شعر : مصطفى العربي

بلادي احبك هاتي يديك
بدمعي رويتها يا بلادي ..
بلادي أحبك حبا عميقا
وعطر في هيكلي كل عرق
بلادي لروعة عينيك أشدو
أنا مذ رأيت بجفنيك هذا
على أن اذيب الوجود بشعري
بلادي احبك هاتي يديك
أنا يا حبيبة قلبي محب
أقدمه لك سلة ورد
كنفسك يا بلدي عبقري
جميل كاسمك (ليبيا) جميل
بشوش وديع كوجهك (ليبيا)
بلادي احبك كلي هيام
بها كم تغنيت يا (ليبيا)
بلادي أحبك ولتسألي الله
بلادي .. أحب نقاء الطفو

خذي كل ما في يدي من أزاهر
وغذيتها من دماء المشاعر
تمشى بجسمي وفي الروح سافر
فحبك مثل البنفسج عاطر
فلولا رموشك ما كنت شاعر
الفتور السماوي .. اصبحت قادر
وأسكره من رحيق القياثر
خذي كل ما في يدي من ازاهر
لاجل هواك بعمري اغامر
بديع الروائح ابيض ساحر
بهي المناظر حلو وآسر
كتلك النجوم الحسان الزواهر
عظيم المهابة .. كالنور باهر
سلي كل مافي يدي من دفاتر
سبحت ببحر بحبك زاخر
فهو العليم بذات السرائر
لة في مقلتيك .. وما كنت طائر

يغرد بين المروج طليقا تزغرد في ناظريه البشائر
سوى حين قبلت ثغر البراءة فيك .. على عذب هذي المناظر
بلادي .. أحبك مليون طفل كحشد الملائك .. بيض الضمائر
أعين أطفالك الطيبين أحبك .. أبهى وأحلى جزائر
تموج بخابورها .. بالصنوبر .. بالسنديان بشتى الازاهر

* * *

بلادي .. ألا تذكرين صبيا نحيلا .. لعوبا .. زكي الخواطر
(تعفرت) .. كان يشاكس حتى نجوم السماء .. وكان يباكر
يغازل شمس الصباح .. يشد سناها .. ويصنع منه ضفائر
ويشرب من وجنتيها رحيقا لذيذا .. وفي شعرها المتناثر
على صدرها الذهبي .. ينام يلملمه حوله كالمآزر
ألا تذكرين أيا ليبيا ذلك الطفل ؟ .. اني ما زلت ذاكر
حبيبة قلبي .. أنا كنت ذاك الصبي اللعوب الذكي الخواطر
بغاباتك الخضر كم كنت أعدو ألاطف سرب فراش تطاير
وكم تأرجحت بين الغصون جرحت .. وما كنت أخشى المخاطر
وقعت ، فقمت وأحسست أني (هرقل) .. مضى في المعارك ظافر
بغاباتك الخضر كنت صغيرا أسائل سرب النوارس .. حائر
وأسأل حتى السنونو بعيدا بآفاق تلك السماء مهاجر
(لماذا الحياة ؟ لماذا الممات ؟ لم الدهر ماض وآت وحاضر ؟)
وأصغي .. فما غير همس النسيم وغمغمة النحل في الجو عابر
فأمضي بكل البراءة أشدو وأفتح للبط كل الحظائر
وأعدو به للجوابي سريعاً أظل بكل التكبر سائر
أدور على البط وهو محاصر كقائد جيش يسوق العساكر
أسابحه في الجوابي نشيطا وفوق المياه تناثر دائر
بما في خيال الطفولة من كل لحن رقيق الترانيم ساحر
بغاباتك الخضر كنت أغني لكل سحاب بجوك ماطر

* * *

حبيبة قلبي كم كنت أبكي لشمسك عند الغروب تغادر
وداعة أكواخنا وهي تبكي دما في نواحي السماء تقاطر
همي شفقا دمويا حزينا يذكرني دم أعظم ثائر
يذكرني (عمر) المستميت الذي صاغ أضلاعه كالاساور
وقدمها لك يا ليبيا .. هدية حب عديم النظائر
لقد شنقوك .. أجل يا أبي شـ ـنقوك بحقد أثيم وجائر
على الحبل شيخا عجوزا تدلى فيا عار هذا الوجود المعاصر
ويا ذل ايطاليا ! .. كيف تنجو ؟ ستهوى .. ستردى .. فللحق ناصر
لقد كنت ياليبيا يومها مثـ ـل (فيزوف) نارا على كل غادر
برغم المجاعة والافتقار قطعت السبيل على كل كافر
وفي شهر اكتوبر كنت طهرا من الخبثاء الخنازير نافر
فأجليتهم دامعين حزانى وولت بهم نحو (روما) البواخر
هناك وعوا أن أرضك طهر وان الظلوم وان فاز خاسر

* * *

حبيبة عيني .. كم كنت أبكي وأيدي الدياجير ترخي الستائر
تكفن أكواخنا بالظلام تذكرني بفتاة تناثر
على (ليبيا) جسمها المخملي تمزق مثل رقيق الحرائر
(معيتيقة) الارض عادت الينا فقد جاء (عقبة) كالنسر كاسر
وحطم امريكا .. في الرغام هوى نجمها .. كان (عقبة) قاهر
لقد سخروا منك يا ليبيا فاف رحي الآن شعبك منهم ساخر
بلادي .. لقد كان مرأى الغروب أسى منه كادت تدوب النواظر
لقد كنت ابكي وقلبي جريح وآهات شعري تفت المرائر
وها أنذا الآن لحن بهيج شدا الشهداء به في المقابر

من مفكرة عاشقة

شعر : أسماء الطرابلسي

أرجوك أن تبتعد ..
فبيني وبينك تقف « عشـــرون »
محطة ..
وربيعي لن يلتقي بخريفك ..
ولو تعاقب الربيع والخريف ..
في أي وقت من أعمارنا ..
ثــق ...
بأن « ربيعي » ..
لن يلتقي « بخريفك » !

*

ما زال بحثي عنك جاريا ..
وما زال بحثك عني جاريا ..
أنا .. وأنت ..
وجهان ضائعان منذ الازل ..
ولم يلتقيـا !

*

انك تعيش داخل عقلي ..
وتنام في قلبي ..
فكيف تدعي بأنني لا أحبك كفايه ؟

*

جلس ليقرأ لي « فنجاني »
وباهتمام جلست أستمع اليه ..
سمعته يقول : هناك حب جديد !.
لا أدري ..
هل قرأه في فنجاني ؟..
أم في عيني ؟!

*

في زحمة الكلمات ..
سألته عنك ..
وسد خبر رحيلك حلقي ..
ترى ..
هل لاحظ أن كلماتي الاخيرة ..
تسللت عبر حلقي بصعوبة ؟..

*

في هدأة الليل ..
عندما ينام كل البشر عدا العاشقون
والعاشقات ..
عدا المحبون الذين ينتظرون عودة
أحبائهـم ..
في هدأة الليل ..
أكتب لـك ..
وأنتظرك ..
ولا أنام !..

*

أعددت للقائك
ابتسامة .. وكلمات ..
ولما رأيتك ..
تعثرت الابتسامة ...
وتبعثرت الكلمات ..!...

*

أحلى ما في الحب ..
أن لا تقول بأنك تحب بلسانك ؟
أترك المهمة ..

لعينيك ...
لتصرفاتك ..
لاهتمامك ...

*

تتجاهلني ؟
لا تكتب الي ؟
لا تسأل عني ؟
لا تشتاق لوجهي ؟
صدقني ...
لا مبالاتك .. تشدني اليك
أكثر ؟!

*

لا تقترب ..
اجلس بعيدا .. ولا تقترب ..
كي أكون قادرة
على التنفس بصوت عادي !

*

من قال بأنني أحبه ؟
من قال بأن قلبي يسرع خطاه ..
ان وقفت معه !؟

*

أستطيع أن أفعل أي شيء
بعناد .. وجرأة ..
غدا
النظر لعينيك لاكثر من ثانية ؟!

*

كيف تطالبني باعلان حبي لك ؟
وهل يعترف البحر بحبه
للسماء !؟

*

أعلم أنك لست لي ..
وأنني لن أكون لك ..
ولكنني ..
لا أريد أن تكون لاحد !

*

الحب والغيرة ..
توأمان سياميان .. يعيشان معا..
أو يموتان معا ..
وأنا لا أحبك ..
لكني .. أغار عليك !

*

وصل خطابة ..
بعد ثلاثة أشهر ..
ضل فيها طريقه الي !؟..
ليتك يا زمن تعيد صديقي ..
ليضل هو طريقه الي !؟..

*

أتظن أنك لا تهمني ؟..
ألا تدري بأنك المهم ..
الوحيد لدي ..
يا حبيبي !

*

انتظرت طويلا
هذه النهاية وهيأت
نفسي لها ..
ا ني مستعدة الان
لان نلتقي ..
ولا نكون معا !.

*

بحثت عنك كثيرا
وانتظرت مجيئك طويلا ..
لكنك ..
أبيت أن تكون ..
وأبيت أن تجيء !..

*

صعب علي
أن أعتاد رؤيتك بعيون منطفئة
وأنا التي كانت تشتعل
عندما تراك !

*

أما زلت تشك في حجم حبي
لك ؟
سجل لديك اذن
« أحبك بحجم عيوبك » !
فما أعظم حبي لك !

*

عندما يقبل الليل
أتذكرك ..
لانه حزين مثلك ..

صموت مثلك ..
غامضٌ ، مجهول ، ساحر مثلك ...
عرفت الان لماذا أناديك :
« يا ليلي » ؟

*

ستظل جزءا مني ..
وبعض من بعضي
كجرح غائر في جسدي ..
لا يدرك مداه أحد غيري ..
ولا يوجع أحدا سواي !..

*

تسألني :
ما رأيك بصوتي عبر الهاتف ؟
صوتك ؟ حلو .. حلو .. حلو
لكني أسمعُ صوتا ليهتف به
جفناك ..
هو في عيني .. أحلى

*

!حلم بأن أنتزع الشمس من مكانها
لاعيد صنعها في كلمة واحدة ..
لاذكرك كلما رفعت عينيك المشعتين
للسماء ..
بأنني « أحبك » !

*

غضبت ؟!
لانني لم أقل رأيي في ذقنك
النابت ؟

ألم أقله لك البارحة ..
في الحلم ؟!!!

*

كان في حياتي ..
صوتا يغرد ..
صار غيابه ..
سوطا يجلد ...

*

في رؤوس الاخرين ..
كنت أحب مواقد الرماد الخامدة ،
وأكره مواقد الفحم التي لم تشتعل
بعد !..
وبعد أن رأيت رأسك الجميل ..
صرت أحب مواقد الفحم التي
تكاد تخمد !...

*

في حجرتي المظلمة ..
همست باسمك ..
وسريعا ما عاتبت نفسي ..
فقلت مسرعة ..
احتشم يا لساني !...

*

ان كنت شاعر
فأنا ملهمتك ..
وان كنت قصاص
فأنا بطلة قصتك ..
وان كنت كاتب
فأنا قضيتك ..

فلماذا ترفضني ؟

*

أيها الرجل ..
ستظـــل
أحلـــى
لوحـــة
في
معرض
ذكرياتـــي

*

حقـــا ..
الغياب بالنسبة لما بيننا ..
« كما الهواء بالنسبة للنار ..
يذكي العظيمة منها .. ويطفىء
الهزيلــــة » ..
وكنا الثانية !

*

أحب أن أغوص في بحر عينيك ..
وأحب الرحيل عبر العيون
لاكتشاف الاعماق ..
فلماذا تحرمني من متعة
الرحيل .. والغوص ؟

*

لقد عجزت عن قهر حبي لك ..
فبقدر ما أحاول تجاهل وجودك ..
بقدر ما تفرض وجودك على
عقلـي !...

*

أفكر في رفع « قضية » ضدك !..
لانك تقتلني في كل لحظة بنظراتك
وخيالك يهددني .. أينما ذهبت ..
أنت متهم ..
باقتحام أعماق أنثى !...

*

أشعة « × » اكس
تكتشف ما يخبئه جسم الانسان ..
وأشعة عينيك
تكتشف ما خبأته في صدري !..

*

أيها الرجل ..
سيظل قلبي « مشتعلا » بحبك..
مدى الحياة ...

*

سألتني فتاة ..
ان كنت أحبك ؟
لكنها لم تنتظر ما سينطقه لساني
لانها قرأت الجواب ..
في بريق عيني ..
عندما نطقت باسمك !..

*

كان لقاؤنا « عذابا »
لنا .. نحن الاثنين .
ولانني لا أستطيع تحمل عذاب
لقاء آخر ..
قررت ..
الابتعاد عنك !

*

تسألني ..
ان كنت لا زلت أذكرك ؟
وهل يمكنني أن أنسى
رجلا ..
أحببته بامتداد الافق
وسعة السماء ؟

*

أحاسبه على تصرفاته
لانها شيء « مادي » قابل للمناقشة
والحساب والجدل ..
ولكن ..
كيف أحاسبه على أحاسيسه ؟
وهل « تحاكم » مشاعر
انسان .. نحو انسان ؟

*

لانني أحبه ..
أصبحت مثله !..
نظرة عيني .. هي نظرته ..
كلماتي تنطلق بنفس طريقته ..
وعندما أبتسم ..
أجدها نفس الابتسامة !

*

أحتمل ..
كل مساوئه .. وعيوبه
وكلماته القاسية ..
لسبب واحد فقط ..
لانني لا أرى غيري ..
في عينيه !

*

كلما تأخرت كلماتك المزروعة في رسائل..ومظاريف .. حقدت على كل موزعي البريد .. وكرهتهم..
وكلما وصلتني أشواقك النابضة في رسائل ومظاريف .. عفوت علي كل موزعي البريد .. وصفحت عنهم ..
لانهم أدركوا حجم عذابي ..
فجاءوا الي بمكتوب منك !..

*

فوق ملعب من الورق الابيض ..
تركت قلمي يركض وعنانه على عنقه ..
وعندما توقف ..
كان وجهك يبتسم لي ؟!

*

اكتشفت لعبتك الخبيثة معي —
تريد أن تكون « سفيرا » دائما في أراضي !..
وعندما تذهب .. تترك لي شيئا منك ..
يذكرني بك .. ويمثلك عندي !

*

لم أعرف يوما ..

ان كنت أحبك أم لا ؟
ومنذ لحظات كنت أقلب صفحات
ماضي ..
دمعت عيناي !
.. لقد ــ كنت ــ أحبك فعلا !..

*

كنت واثقة بأنك ستعود
لتبحث عنــي ..
لم أسأل أحدا ..
لكنهم أخبروني بأنك جئت ..
وأخبرتني الكتب بأنك بحثت عني
بينهـــا !...

*

لانه رأى الشوق في عينيك ..
ولان اهتمامك بي « كالحمــــل »
لا يمكن اخفاؤه ..
قال لي بصوت هامس :ــ
لن تغربي من ذاكرة هذا الرجل !
ولانني أعرف أن شمسي ستظل
عالقة بسماء ذاكرتك ..
انتفض عصفور قلبي .. وصفق
بجناحيه !

*

أحبك ــ أكرهك
أحن اليك .. ارتحت منك ..
أأتذكرك .. نسيتك
فهل تستطيع أن تجمع كل
هذه الكلمات في كلمة واحدة
لاقولهــا ــ
ثم .. أستريح ؟!

*

يوميـات عاشقـة

« اليوم الاول »
كتبت خطابا لك ..
وأعدت قراءته ..
خبأته بين طيات ظرف بريدي ..
وألصقت عليه طابعا بريديا ..
ولكني لا أعرف اسمك ..
ولا عنوانك !

*

« اليوم الثاني »
حملت خطابي
وذهبت لمبنى البريد ..
توقفت برهة ..
لاتأكد من أن أحدا لا يراقبني ..
وبيد مرتعشة وضعت خطابا ...
بلا اسم .. ولا عنوان !

*

« اليوم الخامس عشر » !
هل تصدق ؟
اليوم وصلني ردك !!!

*

كنت أسمع باسمك كثيرا
أقرأه .. وأقرأك !
وأظل أحلم (لو أنني التقيـــه ..
لتغيرت أشياء !)
والان ..
لقيتك .. ولم يتغير شيء !
غير اني لم أعد أحلم !

*

أشقيتني يا حب ..
كلما حاولت الهروب منك ..
تعثرت فيك !

*

« أنت الوحيد التي تشغل بالي
فأكاتبها » !!
هل أصدقك ؟
وفي الزاوية العليا رسمت اسمـــا
مشابهــا
لاسمي ؟
كيف أصدقك ؟
وأنت تلغي مشروع رسالة لصبية
غيري ؟

*

كنت بشوق لمعانقة
كلماتـــه ..

فعانقتني هـي !...

*

اليوم كنت بشوق لرؤيتك
لكني سمعتهم يقولون
بأنك لم تأت اليوم ..
فتظاهرت بأنني لم أسمع !..
ولم أستطع التظاهر
بأنني « عادية » !

*

بأي حق أعاتبك ؟
وكل ما بيننا ..
حفنة ورق ..
ومشاعر !

*

خيط خفي
يربط بين عينيك وشفتيك ..
يشعرني بأن في حلقك كلمات
تريد الخروج ..
فتخطىء طريقها .. الى عينيك !

*

في لقائنا ..
أنا وأنت
نكون على موعد مع
« نحن » !

*

لا تسألني عمن احتل مكانك
ولا تتساءل عن هوية من يسقيني
من نبع الحب ..
ولتعلم
بأنني « فطمت » قلبي عن الرجال!

*

كاد الجرح يلتئم ...
فلماذا تصر على تفتقه ؟
لتزيده عمقا واتساعا ؟
يا لئيم !
يوم قلت لك :
بأن كل من عرفت من رجال كانوا
« يتبارون » في النبل معي ..
لم تصدقني ..
والان دخلت المباراة !

*

في جيوبي العقلية أحمل عملة
« الصدق »
وجيوبك العقلية تخلو منها ..
اذن عامل « التداول » غير متوفر
وبطلت عملتي !

*

تعلم كيف يخفى عني كل شيء
وتعلمت كيف لا أسأله
عن كل شيء ..
وانتهى كل شيء !..

*

لانك كاتب .. وفنان ..
فأنت بحاجة لامرأة تنبش في عقلك
باحثة عن شيء أنت تجهله ..
ولانني أدركت حاجتك لي ..غزوت
عقلك .. وبدأت النبش فيه ..
وعندما أردت الخروج ..
اكتشفت بأنني نبشت الى أن وصلت
قلبك ..
فنبشته .. ونهشته !

*

آه لوجهك الذي لم يرحل
عني أبدا ..
ظل متشبثا بي يلهث ورائي
وأمامي ..
رافضا انزواءه وراء تلال الذكرى
ليظل معلقا على جدار الذاكرة !

*

جاء دورك لتجرب
كيف تكون محاصرا بوجه ..
لا يغادرك ..
يحيط بك من كل جهة ..
ينزرع أمامك في كل لحظة ..
ويلتصق بحدقة عينيك عندما
يغمرك الضباب ! ..

*

مات
الطفل المحب في داخلي ..
سأهجرك !

مكتبة في كتاب

بقلم الشاعر : عبدالرحيم الحصني

صغير في قطعه ، متواضع في حجمه ، لا يكاد يتجاوز عدد صفحاته الثلاثين بعد المئتين ، لكنه كبير في محتواه شامل في معناه يمسك بالقارىء منذ اللقاء به حتى خاتمة المطاف حيث يحوم معه في أجواء الفكر ، ويقف في كل المحطات تاركا من بصماته المبدعة كل ما هو رشيق ورائع بأسلوب يتماوج بين الشعر والنثر بشفافية عفوية لم ترهقها صنعة ولم يخدش نعومتها ازميل .

لوحات منسقة الالوان ، منسجمة الرؤية تسر الناظر . وتسمره أمامها في عالم مفعم بالرائع الرائع والناعم الناعم فيقول في وصف المؤلف :

كلما هم باليراعة سالت

خمرة الوحي من رؤوس بنانه

ذلكم هو كتاب ـ خطوط على الهواء ـ للاستاذ محمد الزوي ـ أمين رابطة الادباء و الكتاب والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية الشقيقة .

لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة منذ حملته في حقيبتي مع ما حملته من نتاج أقلام الاخوة أدباء الجماهيرية عندما عدت من مهرجان الفاتح الشعري الذي شاركت فيه بقصيدتي ـ الساحة الخضراء ـ أقول . قرأت هذا الكتاب أول مرة وشعرت عندما انتهيت من تصفحه أني بحاجة لاعادة النظر فيه .

لقد أحسست أن في الكتاب أشياء يجب أن تستوعب استيعابا أشد امعانا وأكثر دقة .

انه جامع شامل لم يترك من الادب والفن صغيرة ولا كبيرة الا احصاها . كل ذلك بمنظور حضاري سليم ورؤية هادئة صافية .

تحدث الكتاب عن الشعر والنثر والفن والمسرح والتاريخ والمؤرخين ، والكتابة الاذاعية ، والاغنية الوطنية ، وأمارة الشعر ، واللوحات وعن كتاب عالميين أمثال مكسيم غوركي وغيره . وعن الماضي والمستقبل والطبيعة وعن الالتزام . وعن الوطن الذي هو المنبع والمصب ووضع النقاط على الحروف في كل هذه الابحاث ببساطة وايجاز وبعد نظر .

ومن أروع ابداعا من اديب يستطيع امتلاك القارىء بأقل ما يمكن من السطور .

ليس للكم أدنى قيمة في موازين النقد العادلة .

وقد يكون الكاتب كاتبا كبيرا عندما يخط سطرا واحدا فيه من الابداع ما يؤهله ذلك كما هي الحال بالنسبة للشاعر الذي يصبح شاعرا كبيرا بقصيدة واحدة .

وقد حدثنا تاريخ الادب كثيرا حول صحة هذه النظرة .

وأمام هذا العمل الادبي الرائع والبيان العربي الساحر لا أجد ما أقوله أحلى مما قاله الاستاذ الزوي في الخاطرة ذات الرقم — ٤٦ — من الكتاب نفسه عندما تحدث كيف تتحول الاقلام في ايدي بعض الكتاب الى آلة موسيقية عجيبة .

بعض الكتاب تتحول الاقلام في أيديهم الى آلة موسيقية عجيبة فريدة تصدر عنها أنغام ساحرة لا تجدها في الالات الموسيقية المعروفة . ولا تجدها في أصوات الطبيعة ببلابلها وطيورها وخرير مياهها وحفيف أشجارها .

موسيقا عجيبة فريدة ساحرة تسمعها وتحسها وتلمسها وتقرأها ... وتحس أنها تخترق كل مسام جسدك . تنبس في خلاياك تحولك الى روح شفاف يهيم في عوالم جديدة . ما أكثر ما استغرقتني هذه الموسيقا التي تعزفها بعض الاقلام .

حقا أيها الاديب الكبير لقد استغرقتني معزوفتك وحملتني — وانا أشكو انحدار البيان العربي في عصرنا هذا — .

أقول حملتني الى قناعة تامة والى ايمان راسخ أن الاديب بخير . فالى جديد جديد أيها الاستاذ الجليل .

لمحات عن المرأة الليبية

بقلم : عفيفة الحصني

لصوتها رنة عذبة ، تسمعنا موسيقا الانوثة الشادية وخفقات القلب الحاني ، ونغمات الام الرؤوم ..

تلك هي المرأة العربية الليبية التي ما زالت تحافظ على حرمة المنزل ، ورسالة الامومة ، وقيادة الاسرة المنسجمة المتماسكة ، وقد أعطتها ثورة الفاتح من ايلول ، حقوقها الاسلامية كاملة ، وحررتها من تزمت الرجعية الذي عزلها عن المجتمع وجعلها في الماضي مسلوبة الارادة « لا يسمح لها أن تبدي رأيا حتى في أوثق الامور اتصالا بحياتها ومستقبلها وهو زواجها » (١) ، وقد « حاصر هذا التزمت فرصها في التعليم وفرصها في مجال العمل »(٢) .

فحطمت الثورة سدود التقاليد البالية التي تستغل الدين لتحول دون طبيعته وضد روحه وجوهره ، فتعرقل التقدم والانطلاق .

ان الاسلام لم يمنع المرأة من مزاولة أي عمل شريف تستطيع القيام به دون أن يجور على امكاناتها الطبيعية،بل أعطاها من الحقوق السياسية والاجتماعية ما لم تحظ به امرأة في أرقى المجتمعات الحديثة ، ولكنه لم يجبرها على العمل لئلا يهدر اضطرارها اليه وسعيها وراءه كرامتها وأنوثتها ..

ولم يفرض الاسلام على المرأة القتال ولكنه لم يمنع القادرات عليه من شرف الدفاع فاشتركت كثيرات من النساء في غزوات الرسول وأبلين بلاء حسنا .كما قامت المرأة بأدوار عظيمة في خدمة الدعوة الاسلامية على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فالاسلام أعطى المرأة حريتها الانسانية كاملة فأعطت الانسانية عطاء سجله لها التاريخ في أجمل الصفحات وأروعها .

وقد استمد الكتاب الاخضر حقوق المرأةالعربية الليبية من روح التشريع الاسلامي فجاء في الفصل الثالث من هذا الكتاب ص ٥٥ و ص ٥٦ . « العمل يجب أن يوفره المجتمع لكل أفراده القادرين عليه المحتاجين اليه ، رجالا ونساء ، ولكن على أن يعمل كل فرد في المجال الذي يناسبه والا يضطر تحت العسف أن يعمل ما لا يناسبه » .

وقد آمنت هذه الثورة بدور المرأة العظيم في « بناء الاسرة وبناء المجتمع وبناء الاسرة الدولية »(٢) ولكنها رفضت « مفاهيم التحرر الزائف الذي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب بالنسبة للمرأة والاسرة بكاملها » .

وآمنت بحق المرأة في الدفاع عن نفسها وعن وطنها في حدود امكاناتها فأنشأت لها كلية عسكرية تتدرب فيها على الجوانب التالية : (٥)

١ ــ التدريب على الاسلحة الخفيفة (مقاومة شعبية) .
٢ ــ التدريب على أعمال الدفاع المدني .
٣ ــ التدريب على أعمال اللاسلكي .
٤ ــ التدريب على قيادة السيارات العسكرية .
٥ ــ التدريب على الاعمال المكتبية .
٦ ــ التدريب على الاعمال الذهنية .

وأتاحت للمرأة فرص العمل وشجعتها على المساهمة في المجالات التي تتفق وطبيعة تكوينها ، واعتبرت خدمات الامومة والطفولة والشباب استثمارا اقتصاديا .

كذلك أتاحت لها فرص المشاركة في مسؤوليات السلطة والحكم، التي تتجسد في المؤتمرات الشعبية الاساسية. والتعليم للمرأة الزامي حتى نهاية المرحلة الاعدادية والمجتمع الليبي ملتزم بمحو امية الراشدات اللواتي فاتهن فرص التعليم.

« والقوانين الليبية لا تعرف فرقا فيما يتعلق بحق العمل والتدرج في مختلف الوظائف حتى المناصب العليا ولا تعرف فارقا بين أجر المرأة واجر الرجل متى تساوت الكفاءة بينهما. كما أن المجال النقابي مفتوح أمام المرأة لتزاول نشاطها من خلاله »(٦).

وللمرأة الحق في الاستفادة بنتاج الفكر والثقافة والفن في المراكز الثافية.

وللفتاة البالغة الحق في تزويج نفسها دون ولي أمرها، ولها حق المطالبة بالطلاق ان توفرت ظروفه وأسبابه.

وهناك رعاية خاصة للمرأة من حيث « اجازة الحمل واجازة الوضع براتبها الكامل، ومن حيث تأمين العناية الطبية المجانية قبل الولادة وأثناءها وبعدها .. وتخصص ساعة لرضاعة الطفل يوميا. ويلزم صاحب العمل الذي يستخدم خمسين عاملة فأكثر في مكان واحد بتوفير دار الحضانة لاطفالهن »(٧).

وهناك تشجيعات مغرية لرفع ثقافة المرأة الريفية ودفعها الى ارتياد مراكز التنمية الريفية التي تكون مدة الدورة فيها تسعة أشهر كحد أدنى لتكوين ربة البيت القادرة على ادارة المنزل الحديث والقيام بكافة احتياجاته من تدبير منزلي وعناية بالطفل وثقافة غذائية وصحية ومشاركة في رعاية المزرعة والدواجن والمواشي ورفع المستوى الفكري. وقد جعلت المواصلات مجانية ذهابا وايابا للمشتركات في هذه الدورة. وفي كل مركز دار حضانة خاصة بأولاد المتزوجات المتدربات ويمنحن مكافأة شهرية قدرها عشرون دينارا ... أما الفتيات العازبات فيمنحن عشرة دنانير. وتمنح المتفوقات في نهاية الدورة جوائز تقديرية من ثلاجة أو غسالة أو مكنة خياطة أو الة صناعية، أو منسوجات صوفية، أو الة لحياكة الطنافس.

وتبذل الجهود المرموقة لمحو الامية السياسية وتثوير المرأة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن هذا المنطلق اندفعت أختنا العربية الليبية تعمل في شتى الميادين بجد ونشاط وايمان لا يتزعزع وثورية محتشمة متزنة.

وقد رأيناها في المؤسسات بائعة دقيقة الحسابات وشاهدناها على شاشة الرائي مذيعة مليحة تحافظ على زيها القومي شامخة الانف ناصعة الجبين وسمعناها في ملتقى الشعر المقاتل(٨) شاعرة رقيقة تجمع الفتوة (٩) والاتزان والحقيقة والخيال والعذوبة والجمال.

وألفيناها في قيادة الاتحاد النسائي مخلصة نشيطة تتكبد لهيب الجو وحرارة الصيام ووهن الحمل، ومشقة السفر لتؤدي واجبها على أكمل وجه في المؤتمر النسائي العام الذي عقد في دمشق ١٩٨١.

وقرأناها أديبة واعية، عميقة التفكير، دقيقة في توجيه الاسئلة حول الحركات الثقافية والادبية والسياسية ... أذكر على سبيل المثال المقابلة التي أجرتها الاديبة عفاف خورشيد مع الدكتور غالي شكري ونشرت في مجلة الثقافة العربية الليبية العدد الثامن من السنة الثانية آب ١٩٨١ وقرأناها مثقفة واسعة الاطلاع غيورة على التراث العربي، دارسة عميقة التفكير تجيد التحليل والاستقراء والاستنتاج (١٠).

وقرأناها ناقدة مجيدة تتقن الموازنة وتحسن الاستنتاج كما اتضح ذلك في دراسة الاديبة المفكرة فوزية عمار في موضوعها « المدينة الفاضلة بين المفهوم التقليدي وعصر الجماهير »(١١).

هذه لمحات خاطفة عن أختنا العربية الليبية التي تزهو بها الانوثة حين تراها محافظة على جوهرها ومنطلقة في مختلف الميادين.

ولا ريب أن هناك جمانات كثيره ما تزال مكنونة في أصدافها ولا بد لاكتشافها من اتقان الغوص والسباحة.

---

١ ـ ص ٣٠ من كتاب المرأة وثورة الفاتح من سبتمبر الصادر عن وزارة الاعلام والثقافة الليبية.

٢ ـ ص ٣١ المصدر ذاته.

٣ ـ ص ٣٦ من كتاب المرأة وثورة الفاتح من سبتمبر.

٥ ـ ص ٣٧ المصدر نفسه.

٦ ـ ص ٤٠ المصدر نفسه.

٧ ـ ص ٤٣ المصدر نفسه.

٨ ـ أقيم مهرجان الشعر المقاتل في مدينة طرابلس الليبية في حزيران ١٩٨١.

٩ ـ اشتركت في هذا المهرجان الشاعرة العربية الليبية الناشئة فوزية البشتي.

١٠ ـ اشير على سبيل المثال الى بحث « تصنيف العلوم في الفكر الاسلامي » الذي نشرته الاديبة مبروكة محيريق في مجلة الفصول الاربعة العدد ١٢ ك٢ الـ١٩٨٠ السنة الثالثة.

١١ ـ الفصول الاربعة العدد ١٢ السنة الثالثة ديسمبر ١٩٨٠ ص ١٠٤.